تاريخ المغرب العربي الحديث

«المغرب الأقصى - ليبية»

الأستاذ الدكتور
محمود علي عامر
كلية الآداب
قسم التاريخ

الأستاذ الدكتور
محمد خير فارس
كلية الآداب
قسم التاريخ

تاريخ المغرب العربي الحديث

«المغرب الأقصى - ليبية»

الأستاذ الدكتور
محمود علي عامر
كلية الآداب
قسم التاريخ

الأستاذ الدكتور
محمد خير فارس
كلية الآداب
قسم التاريخ

الجزء الأول

المغرب الأقصى

منذ بداية القرن السادس عشر
حتى سنة ١٨٣٠ م

الأستاذ الدكتور
محمدخير فارس

مقدمة

يبدأ تاريخ المغرب الحديث بثلاث ظواهر :

آ – أزمة سياسية واجتماعية واقتصادية وصفها شاهدا عيان بارزان :

١ – ابن خلدون الذي عايش بداية الأزمات ووصفها وعلل أسبابها.
يرى ابن خلدون أن أهم أسباب هذه الأزمة انتشار قبائل بني هلال وسليم البدوية في شمال أفريقيا وتأثيرهم السياسي والاقتصادي والديمغرافي، وانحلال العصبية البربرية، وانتشار الطاعون الجارف الذي فتك بعدد كبير من السكان.

يقول ابن خلدون في مقدمة كتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر..»: «وأما لهذا العهد وهو آخر المئة الثامنة للهجرة (النصف الثاني للقرن الرابع عشر الميلادي) فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن مشاهدوه، وتبدلت

بالجملة، واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم بمن طرأ عليه من لدن المئة الخامسة للهجرة (القرن الحادي عشر الميلادي) من أجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان، وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم وبأسهم. هذا إلى ما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه المئة الثامنة ومن الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر فخربت الأمصار وضعفت الدول والقبائل...»[1] .

---

(١) ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر من ذوي السلطان الأكبر ج١ ص ٥٢-٥٣. وقال توضيحاً لهذا القول في فصل «أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب ، وأفريقيا والمغرب لما جاء إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المئة الخامسة هجرية وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت ..... خراباً كلها بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمراناً، تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمدن» ج١ ص ٢٦٣-٦٤-٦٥. وما من شك في أن ابن خلدون يقصد هنا الأعراب، وإن كان قد بالغ في ذلك مبالغة أساءت إلى سمعته كعالم اجتماع وفيلسوف مؤرخ بل ومؤرخ كذلك. وقد استغل المؤرخون الفرنسيون المناصرون للاستعمار الفرنسي مقولة ابن خلدون فزعموا، كما قال غوتييه الضابط المحارب في مدغشقر والأستاذ في الجزائر بعد ذلك: أن شمالي أفريقيا لم تنهض من كارثة الغزو الهلالي إلا بعد مجيء الاستعمار الأوربي الحديث، وبالغ هو وآخرون من أضرابه في تشويه تغريبة بني هلال وبني سليم وعدّوها «نكبة» و«هجمة شعب بدوي مخرب»=

٢ - الحسن الوزان المعروف باسم ليون الأفريقي . وصف الوزان في كتابه «وصف أفريقيا» الأزمة إبان اشتدادها وعزا أهم أسبابها إلى الصراعات الداخلية والغزو الأجنبي. ويتفق الوزان مع ابن خلدون في دور البدو في هذه الأزمة.

= وشبهها بعضهم بغزوات جنكيز خان وتيمورلنك. وغير خاف إن هذه محاولة لتسويغ الاستعمار الفرنسي من خلال تصويره عمليات الإعمار والتحديث التي قام بها - وكلها لصالح المستعمرين الأوربيين - بعكس المرحلة العربية الإسلامية السابقة التي أدت إلى بث الفوضى والدمار الاقتصادي، متناسين بذلك همجية المستعمرين وسياسة الأرض المحروقة والقتل الجماعي والتشريد. بدأ هذا التفسير الإيديولوجي السخيف يقابل بمراجعة تصحيحية ونقدية قام بها العديد من مفكري الغرب وعلمائه المنصفين كعالم الآثار الإنجليزي روبرت جولد تشايلد الذي تخصص في دراسة الآثار الرومانية اليونانية في شرق ليبيا وأشار إلى أن الزراعة المستقرة بدأت في التدهور في القرن الثالث الميلادي أي قبل الغزو الهلالي بقرون طويلة وذلك بسبب السياسة الرومانية وغزو قبائل الفاندال وتخريبها شمال أفريقيا. ويتفق المؤرخان الفرنسيان ج. بوسيه وكلود كاهن مع جولد تشايلد ويضيفان بأن تغير طرق التجارة وضعف الدولة الزيرية ساعدا في تغيير الاقتصاد في شمال أفريقيا، ويعتقد أيضاً لاكوست في كتابه عن ابن خلدون أن التركيز على القبائل الهلالية إيديولوجي لتسويغ الاستعمار الفرنسي ووضح بأسلوب نقدي علمي مقولة ابن خلدون وفندها. كذلك فند البرت حوراني في كتابه «تاريخ الشعوب العربية» هذه المقولات الاستعمارية التي لا تستند إلى أساس علمي.

يتحدث الوزان عن مجاعة في المغرب في أوائل القرن السادس عشر أدت إلى هجرة واسعة، واضطرت بعضهم أن يبيع نفسه رقيقاً مقابل الحصول على الطعام. كما تحدث الوزان عن أحوال المدن المغربية حيث اندثر بعضها وتقلص بعضها الآخر، وفقد عدد من عواصم المغرب بريقه العظيم، فقد غدت مدينة مراكش العظمى التي كانت: «واحدة من كبريات المدن في العالم ومن أشرف المدن في أفريقيا مدينة مهجورة»، «إن ثلثي هذه المدينة المسكينة غير مسكون، والأراضي الفارغة فيها غرست بالنخيل والكروم والأشجار المثمرة لأن السكان لا يستطيعون أن يملكوا شبراً واحداً من الأراضي الصالحة للفلاحة خارج الأسوار لكثرة تعسف الأعراب. ويمكن أن نقول حقيقية إن هذه المدينة شاخت قبل الأوان»[(١)] .

ب – الغزو الأجنبي (الغزو البرتغالي للمغرب والإسباني للجزائر وتونس وليبيا).

جـ – رد الفعل على الغزو الأجنبي: ظهر في المغرب بنهوض ديني وطني حيث التف المغاربة حول الأسرة السعدية التي قادت الجهاد ضد الغزاة منذ بداية القرن السادس عشر حتى أوائل القرن السابع عشر. ثم بقيادة أسرة الأشراف العلويين التي أكملت عملية التحرير وحصرت من تبقى من الغزاة في رقعة ضيقة شمالي المغرب. وظهر رد الفعل في الجزائر

---

(١) الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الأفريقي «وصف أفريقيا» ص ١٢٨.

بالاستعانة بالدولة العثمانية التي ساعدت على طرد الإسبان وفرسان القديس يوحنا من طرابلس وتقليص الخطر الإسباني وحصر الإسبان في مدينة وهران حتى تم طردهم منها في أواخر القرن الثامن عشر. كما نجح العثمانيون في طرد الإسبان من تونس سنة ١٥٧٤ م. وفي حين نجح المغرب بالاحتفاظ باستقلاله صارت الجزائر وتونس وليبيا إيالات عثمانية تتمتع بقدر كبير من الاستقلال.

الفصل الأول

المغرب منذ بداية القرن السادس عشر حتى ١٨٣٠م

تمهيد :

يبدأ تاريخ المغرب الحديث منذ أوائل القرن السادس عشر في عهد دولة بني وطاس ١٤٢٠-١٥٥٤. ولا نعني بالحداثة هنا ما نعنيه بالنسبة للتاريخ الأوربي الحديث، إذ إن ذلك كان يعني بالنسبة لتاريخ أوربا تغييرات واسعة، ولنقل ثورية في الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية. تجلت بظهور الدول القومية، والطبقة البورجوازية، ونمو التجارة الدولية، والحركة الإنسانية (تعشق الحرية الفردية والإيمان بالعقل). بدلت هذه التغييرات مظهر أوربا وبخاصة أوربا الغربية، ونقلت إليها مقاليد القوة في شتى مجالاتها، ولا سيما حين أخذت هذه التغييرات شكلها الثوري بالانقلاب الصناعي والثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر.

أما بالنسبة للمغرب حيث ظلت القوى الدينية والإقطاعية والقبلية تلعب الدور القائد الذي كانت تلعبه من قبل، فلا نجد شيئاً مما طرأ على أوربا، ومن هنا فإن كلمة الحداثة لا تعني أكثر من المعاصرة الزمنية وتبني الاصطلاح الأوربي، ومع ذلك فإن هذه الفترة تتميز بالنسبة للمغرب بمزايا خاصة، فقد انتهت تطلعات المغرب الطموحة نحو الأندلس ونحو المغرب الكبير، وانتقل المغرب إلى الدفاع في مواجهة خطرين أحدهما من الشرق (الأتراك) والآخر من الشمال (الإسبان

والبرتغاليون). كانت شواغل الحكومة المغربية الرئيسة في العصور الوسطى هي الامتداد نحو المغربين الأوسط والأدنى من جهة ونحو الأندلس من جهة أخرى، باستثناء فترة قصيرة كانت تحاول فيها أن ترد عنها النفوذ الأندلسي السياسي والنفوذ العباسي ثم الفاطمي من المغربين الآخرين. ومنذ مطلع العصر الحديث بسط الأتراك سلطتهم على المغرب الأوسط وسعوا إلى الامتداد إلى المغربين الأدنى والأقصى. وطرد الإسبان المسلمين من الأندلس وتطلعوا إلى شمال أفريقيا بعد أن سبقهم إليها البرتغاليون. فكان لزاماً على المغرب أن يدرأ عنه توغل الترك من الشرق، وتوغل الإسبان والبرتغاليين من الشمال والغرب. وبسبب هذا الحصار الذي فرض على المغرب بدأت عزلته النسبية عن العالمين الإسلامي والغربي ضمن حدود ظلت حتى الوقت الحاضر حدود المغرب الحديث، واستمرت عزلة المغرب عن العالم الإسلامي حتى وقت قريب، واستمرت بالنسبة لأروبا حتى منتصف القرن التاسع عشر عندما بدأت رياح الضغط الأوربي تهب عليه بتسارع متزايد في أواخر هذا القرن.

واعتاد المؤرخون الغربيون القول إن المغرب صين ثانية. ظهر الخطر البرتغالي على المغرب منذ بداية القرن الخامس عشر واشتد في أواخر هذا القرن. وفي بداية القرن السادس عشر كان البرتغاليون يسيطرون على معظم سواحل المغرب الأطلسية. وكان المغرب يمر بأزمة سياسية واقتصادية واجتماعية حادة. وبالرغم أن وضع المغرب لم يكن أسوأ حالاً من باقي أقطار المغرب الأخرى، إلا أنه انفرد بوضع خاص. فهو لم يتطلع إلى قوة خارجية لإنقاذه أو مساعدته كما فعلت الأقطار الأخرى، بل اعتمد على قواه الخاصة. وظهر رد الفعل بحركة دينية وطنية دفعت إلى سدة الحكم بأسرتين عربيتين من الأشراف (السعديين والعلويين) قادتا المغرب ضد الخطر البرتغالي وضد محاولات التوسع التركي. وبهذا انفرد المغرب بمصير خاص يختلف عن مصير باقي الأقطار العربية الأخرى وضمن حدود توضحت في تلك الفترة[1] .

---

(١) يتحدث عدد من الكتاب المغاربة المعاصرين عن وجود شعور قومي مغربي وفكرة أمة مغربية في هذه الفترة، مبينين أن معظم العناصر التي كانت تقوم عليها فكرة القومية كانت متوفرة آنذاك. يتحدث د. محمد الحجي ود. محمد المنوني عن ذلك مبينين: =

الأزمة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية:

بدأت بوادر هذه الأزمة في القرن الثالث عشر بانهيار دولة الموحدين التي وحدت بلدان المغرب العربي وقام على أنقاضها ثلاث دول: الحفصيون في تونس، بنو عبد الواد في تلمسان، وبنو مرين في المغرب. وقام بين هذه الدول صراع على إرث الموحدين كما قام صراع داخلي في كل منها. وبالرغم من أن هذه الدول عرفت حظوظاً مختلفة ومرت بساعات من المجد والازدهار النسبيين إلا أنه لا يمكن عدّها إلا دولاً من الدرجة الثانية، لم يظهر فيها أحد له حيوية الموحدين وقوة شخصيتهم.

- ١ً - اندماج العرب والبربر إن لم يكن بسبب وحدة الأصل كما يشير إلى ذلك عدد من النسابة آنذاك، فعلى الأقل بسبب التعايش المتزايد منذ الفتح العربي ولا سيما بعد وصول الهلاليين المغرب.

٢ً - اللغة الواحدة فمنذ العصر المريني أصبحت اللغة العربية اللغة الأدبية التي يتفاهم بها الجميع ويكتبون بها بمن فيهم البربر، ولم تعد اللغة البربرية تستخدم في الأذان وفي خطب الجمعة، حتى أن كبير علماء العصر الوطاسي عبد الواحد الونشريسي عدَّ في كتابه الشهير «المعيار» أن الأذان بالبربرية بدعة. إن وجود لهجات بربرية في بعض المناطق المنعزلة ولا سيما في الجبال لا يقلل في نظر محمد حجي من حقيقة أن اللغة العربية هي لغة الشعب العربي.

٣ً - وحدة الدين فجميع المغاربة باستثناء أقلية يهودية ، مسلمون على المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية. أضف إلى ذلك أن الشرع الإسلامي بدأ يحل في معظم أنحاء المغرب محل العرف.

٤ً - وحدة المصير فقد هب المغاربة جميعاً ومن مختلف المناطق ضد الغزو الأجنبي، وتدفق المتطوعون حتى من المناطق التي لم تتأثر بهذا الغزو. انظر محمد حجي في مجلة هسبيريس تامودا المجلد التاسع ١٩٦٨ ص ١٠٩-١٢٠، ومحمد المنوني «عناصر تشكيل الشعور القومي في العصر المريني والوطاسي» مجلة هسبيريس تامودا مجلد ٩ عدد ٢ ص ٢٠٩ - ٢٢٧.

وفي منتصف القرن الرابع عشر وبخاصة منذ مقتل أبرز سلاطين بني مرين «أبو عنان» – الذي نجح لفترة قصيرة في إحياء إمبراطورية الموحدين – بدأ المغرب يعاني من أزمة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية. فقد أصبح السلاطين الضعفاء ألعوبة بيد الوزراء الأقوياء الذين كانوا يعينون السلاطين ويعزلونهم. ولم يكن هؤلاء الوزراء الطموحون سوى أداة في يد عصبة من الإقطاعيين الذين تمركزوا بقوة في الجنوب والشرق والريف وكانوا يدينون بقوتهم لعوامل اقتصادية(١).

ونشب صراع على السلطة أتاح الفرصة لتدخل خارجي في شؤون المغرب، كما استغل البرتغاليون هذه الاضطرابات ليبدؤوا منذ مطلع القرن الخامس عشر غزوهم المغرب. وانعكس اضطراب أوضاع السلطة المركزية وضعفها بتقلص رقعة «بلاد المخزن» (أي البلاد الخاضعة للحكومة) واتساع رقعة بلاد السيبة (أي البلاد الخارجة عن سلطة الحكومة) وذلك لحساب قوى إقطاعية أو دينية أو قبلية. ومما ساعد على ضعف السلطة أن بني مرين كانوا على عكس أسلافهم يعتمدون فقط على سند قبلي (قبيلة زناته)، في حين كان اسلافهم الأدارسة والمرابطون والموحدون يستندون إلى سندين قبلي وديني. وخلال هذه الأزمة تعربت قبيلة زناته، واضطر المرينيون إلى الاعتماد على بعض القبائل البدوية مقابل منحها إقطاعات أرضية وإعفاءات ضرائبية(٢).

رافق الأزمة السياسية والاجتماعية أزمة اقتصادية حادة فقد تقلصت مساحة الأراضي المزروعة وتعطلت إلى حد بعيد التجارة الداخلية وتحولت التجارة الإفريقية نحو تلمسان ونحو ممتلكات الحفصيين في الشمال الشرقي. ذلك أن التجزئة المغربية والاضطرابات في عهد خلفاء أبي عنان، واستعادة تلمسان الزيانية قوتها وصراعها

---

(1) Jean Brignon et autres : Histoisr de Maroc. P. 167.

(٢) خلال الصراعات على السلطة كان السلاطين أو المطالبون بالعرش بحاجة إلى مساندة زعماء القبائل الذين قدموا هذه المساعدة مقابل امتيازات حصلوا بموجبها على إقطاعات متزايدة الأهمية، وأصبحوا زعماء إقليميين حريصين على استقلالهم.

مع عرب معقل أسياد تافللت الواحة الهامة التي كانت تهيمن على التجارة الإفريقية عبر الصحراء، واستعادة الحفصيين قوتهم في تونس وضمهم معظم الجزائر وطرابلس وبسكره وتوزر، سمح بتحول التجارة الإفريقية نحو الشمال الشرقي. كما أن المماليك في مصر نجحوا في مطلع القرن الرابع عشر في بسط سلطانهم على أعالي وادي النيل، فصار بإمكان مراكز المشرق التجارية الكبرى إقامة العلاقات مع الممالك السودانية المنتجة للذهب دون وساطة المغرب، وبدأ انحطاط سجلماسة التي كانت أهم مرافئ الصحراء والتي حدد امتلاكها قوة الحكومات المتعاقبة على المغرب[١] . ويرى لاكوست أنه كان لندرة الذهب في المغرب عواقب وخيمة بالنسبة لبلدان أوربا الغربية. وبالفعل فإن التجار المسيحيين كانوا يتقاطرون إلى المراكز التجارية الكبرى في إفريقيا الشمالية لمبادلة منتوجات مصنعة بالمعدن الثمين... ولهذا بدأ الأوربيون يسعون للوصول إلى المناطق المنتجة للذهب عن طريق المحيط الأطلس مباشرة. وفي عام ١٣٢٣ وصل الجنويون إلى جزر ماديرا وآثور. وفي أواخر القرن الرابع عشر بدأ البرتغاليون يتكاثرون على شواطئ إفريقيا وقد تمكنوا بدءاً من عام ١٤٥٠ من اجتذاب قسم من تجارة الذهب شطر خليج غينيا[٢].

كما حدث تدهور ثقافي خطير. يقول الوزان في «وصف إفريقيا»: «إن القصر الذي كانت فيه خزانة الكتب في مراكش استعمل جناح منه للدجاج وآخر للحمام وأصبحت الخزانات التي توضع فيها الكتب أقفاصاً لهذه الطيور»[٣]. وتحدث الوزان عن مدرسة في مراكش في غاية الحسن أو على الأصح مؤسسة للدراسة وسكنى الطلاب تحتوي ثلاثين حجرة وقاعة في الطبقة الأرضية كانت تعطى فيها الدروس فيما سبق، وكان كل طالب مقبول في هذه المدرسة ينفق عليه ويكسى مرة في السنة.. «وكان في المدرسة قديماً كما سمعت كثير من الطلبة لكنهم

---

(١) ايف لاكوست: ابن خلدون ص ١٠١.

(٢) ايف لاكوست : المصدر السابق ص ١٠٢.

(٣) الوزان ، ص ١٣٤.

اليوم لا يتجاوزون خمسة طلاب مع أستاذ جهله بالفقه فاحش ليس له سوى معرفة سطحية غامضة بالآداب وأقل من ذلك بعلوم أخرى»[1] . وكان السلاطين الوطاسيون في فاس يقترضون أموالاً من جامع القرويين ولا يزدونها[2] .. وأثناء الحرب الأهلية خربت الكثير من البساتين الموقوفة لمدارس فاس.. ولعل هذا أحد الأسباب التي أدت إلى انخفاض القيمة الفكرية ليس في فاس وحدها ولكن في جميع إفريقيا[3] .

الغزو البرتغالي :

في الوقت الذي كانت الدولة المغربية تتفكك وتحل الإقليمية محل الوحدة، كانت الدولة البرتغالية الحديثة تتكون وتتوطد. ولد الشعور القومي البرتغالي من خلال الصراع مع المسلمين فاتسم بالسمة الدينية. وأدت الثورة التي تزعمها دون جوان رئيس نظام أفيس بمساعدة بورجوازية برشلونة وباقي الموانئ البرتغالية ضد الإقطاعيين المؤيدين لقشتالة[4]، أدى ذلك إلى تغلب المصالح الاقتصادية ولا سيما التجارية على سياسة الدولة. ولعبت السمتان الدينية والتجارية دورهما البارز معاً في توحيد السياسة البرتغالية[5] .

أسباب الغزو البرتغالي :

يرى هنري تراس في كتابه «تاريخ المغرب» أنه قد أعطى للغزو البرتغالي فيما مضى أسباباً بدت اليوم ضعيفة. وكانت الأسباب العميقة قد غابت عن اهتمام المؤرخين. واليوم بفضل أعمال العلماء البرتغاليين وبخاصة دافيد لوبيز، وفي المغرب

---

(١) الوزان، ص ١٣٢.

(٢) الوزان، ص ٢٢٥.

(٣) الوزان، ص ٢٢٧.

(٤) في عام ١٣٨٥ انتصر دون جوان على قشتالة في معركة الجوبارّوتا Aljubarrota وحقق استقلال البرتغال.

(5) Ch. A, Julien: Le Maroc Face aux imperialismes 1416-1956 P. 20.

بفضل أبحاث بيـيردو سينيفال وروبـير ريكـار ظهـرت أسـباب العمـل البرتغـالي في المغرب ونماذجه ونتائجه بوضوح(١).

ويفسر بعضهم توجه البرتغال نحو التوسع البحري والهجوم على المغـرب في القرن الخامس عشر بعدة أسباب:

١ - تزايد عدد السكان النسبي، وعـدم القـدرة على التوسـع القـاري علـى حساب قشـتالة القويـة. كذلـك نقـص القمـح والطلـب المتزايد للسـمك والجلـود والأصبغة، والبحث عن أراضٍ جديدة صالحة لزراعة قصب السـكر، والبحـث عـن العبيد للعمـل في مصـافي السـكر الـتي أنشـئت آنـذاك في «الجـراف»، والحاجـة إلى الذهب. كما أن الفرسان الذين دمرتهم الأزمـة الاقتصاديـة كـانوا بحاجـة إلى مجـال لنشاطهم. وهذا ما دفـع البرتغـال إلى احتـلال سبتة ١٤١٥ وجـزر ماديرا ١٤١٨ وجزر أثور ١٤٣٢، واستكشاف الشاطئ الإفريقي للوصول إلى بلاد الذهب.

٢ - وقيل إن الغزو البرتغالي كان رد فعل على القرصنة المغربية التي نشـطت في أواخر القرن الرابع عشر وفي القرن الخـامس عشـر وأخـذت طـابع الجهـاد ضـد أولئك الذين طردوا المسلمين من الأندلس. ويرى تراس أن الرغبة في قمـع القرصنـة تلعب دوراً ضعيفاً في المشاريع البرتغالية ولكنها تفسر سـبب هجـوم الإسـبان علـى تطوان عام ١٣٩٩ وتدميرها، وهجوم البرتغاليين على أنفا(٢).

٣ - قيل إن الغزو البرتغالي كان امتداداً لحرب الاسترداد وجزءاً من النضـال ضد مسلمي الأندلس. قلل بعضهم من أهميـة هـذا السبب في حـين عـدّه بعضهـم الآخر العامل الأساسي. يرى الفريق الأول أن وضع مسلمي الأندلـس لم يعـد يهـم البرتغال فقد صار ذلك مسؤولية قشتالة كما أن وضع المغرب لم يكن يساعده علـى تقديم أي مساعدة لمسلمي الأندلس.

يرى الفريق الآخر أن الـروح الصليبيـة كـانت عنصـراً أساسياً، كـان نفـوذ الكنيسة قوياً، وكانت علاقة الحكم البرتغالي مع البابا وثيقة. وكـان ملـك البرتغـال

---

(1) Henri Terrass : Histoire du Maroc tome 2 P. 112.
(2) Henri Terrass : Histoire du Maroc tome 2 P. 114.

«جان» يصرح أن الميدان الحقيقي الذي يكسب فيه أفراد البيت المالك الفخار هو الحرب المقدسة ضد المسلمين في المغرب. وأعلن أنه سيمنح أعظم وسام في بلاده وهو «وسام السيد الأعظم» لمن يجاهد في هذا الميدان. وكان هذا الشرف من نصيب ابنه هنري الملقب بالملاح الذي كان على رأس «جماعة المسيح» وكان نواة هذه الجماعة بعض الفرسان الصليبيين الذين هربوا من جزر البحر المتوسط بعد تعقب المسلمين لهم فلجؤوا إلى البرتغال، وكان هؤلاء متعطشين للانتقام من المسلمين[1] وذكر كاتب برتغالي «إن الشباب البرتغالي كان يعتقد أن المسلمين إذا كانوا قد التجأوا من شبه جزيرة الأندلس إلى الشمال الأفريقي فإن الواجب على المسيحيين ألا يتركوهم ينعمون بالمقام هناك بل أن يتعقبوهم حيث وصلوا»[2] .

ويرى «غوديشو» في كتابه «تاريخ الأطلنطي» أن المشروعات البرتغالية في إفريقيا والأطلنطي هي مشروعات دولة نظمت لمصلحة الدولة، وأن الأقرب إلى المعقول أن يكمن السبب في الصراع ضد المغاربة. ففي بداية القرن الخامس عشر حققت البرتغال وحدتها وطردت من أراضيها آخر الفاتحين العرب. وإذا كان الخطر قد أصبح أقل فإنه ما يزال قائماً. فوراء جبل طارق وعلى بعد بضعة كيلومترات يوجد المغاربة تدعمهم دولة قوية ما تزال مخيفة بالنسبة للأمة البرتغالية الشابة. أليس من الأفضل متابعة الصراع ونقل المعركة إلى الأرض الإفريقية. وكان الإستيلاء على سبتة ١٤١٥ فاتحة المعركة الجديدة. ولكن البرتغاليين كانوا بحاجة إلى مساعدة، وكان من الشائع في أوربة أنه يوجد في إفريقيا جنوب بلاد المسلمين مملكة مسيحية كبيرة يراسها الأسقف جان تمتد من البحر الأحمر إلى الأطلسي، وأن هذه المملكة تخوض صراعاً ضد المسلمين فكان من الطبيعي أن يسعى البرتغاليون إلى الوصول إلى هذه المملكة والتحالف معها لتطويق المسلمين.

---

(١) د. شوقي عطا الله الجمل: المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا – تونس – الجزائر – المغرب) ص ٤٢-٤٣.

(٢) د. شوقي الجمل: المصدر السابق ص ٤٤.

وهكذا يفترض غوديشو أن المشروع البرتغالي الكبير كان بمثابة حملة عسكرية وبحرية وعملية استراتيجية برمائية تهدف إلى تطويق المغاربة وهي بالتالي، في البداية على الأقل، حملة صليبية وآخر الحروب الصليبية وأكثر الحملات الصليبية روعة[1] . ما من شك أن الروح الصليبية لعبت دوراً مهماً في الغزو البرتغالي[2] ، فقد كان التعصب الديني سمة بارزة في السياسة الخارجية والاستعمارية البرتغالية. وقد لبت البرتغال نداء البابا للقيام بحملة صليبية على المسلمين إثر سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣، وكانت تلبية هذا النداء تعني السماح لملك البرتغال بجباية ضريبة خاصة والحصول على متطوعين يطمعون بالحصول على الغفران بتحويل السكان المغاربة إلى النصرانية. ولكن نتائج هذه الحملات لم تحقق هذه الغاية إذ لم يقبل السكان التحول عن دينهم ولهذا قلّ عدد المتطوعين وأصبحت الحاميات البرتغالية تتألف من مرتزقة. وكبقية الأمراء المسيحيين جهز ملك البرتغال جيشاً وأسطولاً ولكنه بدلاً من الدخول في صراع في ميادين بعيدة لا مصلحة للبرتغال فيها، آثر تحويل قواته ضد ميناء القصر الصغير الواقع بين سبتة وطنجة وكان يطمع في اتخاذه قاعدة عسكرية.

٤ – الأسباب الاقتصادية :

يقلل بعضهم من أهمية هذه العوامل فيتساءل جوديشو عما إذا كان التعطش للثروة والذهب هما اللذان دفعا البرتغال على طريق الأطلنطي؟ صحيح أن مناجم الذهب والفضة التي كانت تزود أوربا بالمعادن الثمينة منذ القديم قد استنفذت تقريباً وبالتالي بدأت العملة تصبح نادرة وانخفضت الأسعار وفقدت التجارة اتساعها، وخلاصة القول أنه عصفت بأوربا أزمة اقتصادية حادة. ولكن لماذا عملت البرتغال وحدها للبحث عن الذهب والذهاب عبر الأطلنطي للبحث عن مناجم الذهب التي كان يقال إنها موجودة في الهند العظمى؟. وهناك مؤرخون آخرون – كما يقول غوديشو – يرون أنه في القرن الرابع عشر حدث تحول في

[1] Jacques Gadichot: Histoire de l'Atlantoque. P. 39-40.
[2] H. Terrass : Come 2 P. 114.

الحياة الاقتصادية فقد تمركزت في العديد من المناطق المتمدنة الحرف الصغيرة بخاصة في الفلاندر وإيطاليا الشمالية. وكان الإنتاج أكثر من قدرة السوق الأوربية على استيعابه ولهذا كان يلزم لهذه الصناعة البحث عن أسواق جديدة ولكن لماذا البرتغال ذات التطور البحري البدائي؟ هل كانت تعمل لحساب الرأسماليين في بروج وميلان وفلورنسا؟ ينفي غوديشو ذلك ويركز على العامل الديني[1].

ولكن تراس يرى أن العوامل الاقتصادية التي ظلت مجهولة لمدة طويلة قد لعبت على الأقل بالنسبة للجنوب المغربي دوراً أكبر مما يمكننا تصوره. صحيح أن البرتغاليين كان لديهم القليل ليبيعوه ولكنهم وجدوا هناك القمح للوطن الأم حيث المواسم السيئة مألوفة[2]، ووجدوا الأغطية الصوفية والخيل والحبوب التي كانوا يبادلونها في غينية بمرابح كبيرة مقابل العبيد والذهب[3]. وهكذا كما يقول تراس لعب المغرب دوراً مهماً في الاقتصاد البرتغالي واقتصاد الإمبراطورية البرتغالية بقمحه وخيله وصوفه.

ويرى مؤلفو تاريخ المغرب أنه إذا كانت العوامل السياسية - الدينية قد تمكنت من لعب دور في مشاريع البرتغال فإن الأسباب الاقتصادية كانت هي الأكثر أهمية. صحيح أن الروح الصليبية لم تغب في الأعمال العسكرية ولا لدى بعض القادة وإن الاستيلاء على عدد من المدن نظر إليه كأنه استمرار لحرب الاسترداد، لكن وبسرعة بدا احتلال المغرب أمراً لا غنى عنه للإمبراطورية البرتغالية ذلك أنه كان يزود البرتغال بالقمح والحيوانات والعبيد وبخاصة المنتجات المرغوبة لدى السود. كانت هذه المنتجات التي لا غنى عنها للحصول على الذهب عديدة: الأصواف، الخيول. ذلك لأن غاية البرتغاليين كانت الحصول على الذهب الذي كان يعبر الصحراء ويصل إلى شمال إفريقيا. وكان ملك البرتغال.

---

(1) J. Godichot : Ibid P. 39-40.
(2) H. Terrass : Ibid P. 114.

(٣) كانت الخيول المغربية تلقى رواجاً كبيراً بالسودان إلى درجة أن جواداً واحداً يباع هناك مقابل ٢٥ إلى ٣٠ من الرقيق.

كما كتب الألماني مونزر Munzer «لرؤية غزارة الذهب الذي يجلبه ملك تونس قد أرسل جواسيس إلى تونس لمعرفة كيف يحصل ملك تونس على الذهب والعبيد من بلاد السود مقابل البضائع التي كان يرسلها إليهم وكان يرغب أن يعمل عن طريق البحر ما يعمله ملك تونس عن طريق البر[1].

٥ – أسباب استراتيجية :

أدت جهود إسبانيا والبرتغال البحر به إلى كتشاف أميركا وطريق جديدة إلى الهند بالطواف حول أفريقيا. وفي سعي الدولتين لإقامة إمبراطوريات استعمارية في أميركا والشرق الأقصى لم يكن هناك بد من الاهتمام بالمغرب ولا سيما أن السفن المتجهة نحو غينيا والهند كانت تمر بالسواحل المغربية.

مر التدخل البرتغالي في مرحلتين :

١ً – تركز اهتمام البرتغال في المرحلة الأولى بين ١٤١٥ – ١٤٨٦ على الشمال، بدأ البرتغاليون بالاستيلاء على سبتة عام ١٤١٥ ذلك أنها كانت تتمتع بموقع استراتيجي لإشرافها على الطريق البحرية بين جنوب أوربا وشمالها الغربي عبر مضيق جبل طارق كما أنها كانت قاعدة للقرصنة المغربية يهددون منها السفن الأوربية، وكان الرتغاليون يعرفون وفرة الذهب في سبتة. وفشل البرتغاليون عام

---

(1) Brignon : Ibid. P. 176, F. Braudel: La mediterranée et le medeterranéen à L'Epoque de Philipe 2. P. 365.

يقول برودل «.. ولكن ذهب السودان ليس فقط أساس رخاء إفريقيا الشمالية وإسبانيا الإسلامية، هذه الكتلة من الإسلام الغربي التي انقطعت جزئياً عن طريق البحر الكبرى مع القرن ١٢ واضطرت منذئذ ان تنطوي على نفسها محرومة من عطاءات المشرق وأن تبني لحاجاتها الخاصة حضارة أندلسية مغربية عظيمة وأصيلة... إن ذهب بامبوك ارتبط ثانية بتاريخ المتوسط العظيم ذلك أنه بدأ يدخل أكثر فأكثر في الدوران العام للبحر في القرن الرابع عشر والخامس عشر. وكانت إفريقيا الشمالية الممون بالمعدن الأصفر ومحرك Moteur المتوسط كله». وانظر أيضاً : .Jean Favier les grands decouverts, P. 53

١٤٣٧ بالاستيلاء على طنجة، واستولوا على القصر الصغير عام ١٤٥٨ وفي عام ١٤٧١ استولوا على أصيلا وطنجه فسيطروا بذلك على الطرف الغربي من المضيق.

٢ً - تركز النشاط البرتغالي في المرحلة الثانية ١٤٨٦-١٥١٥ على الجنوب إثر نجاحهم في إفريقيا ووصولهم إلى الهند فاستولوا على أغادير عام ١٥٠٥ وآسفي ١٥٠٨ وأزمور ١٥١٣ وبنوا قلعة مازاغان ١٥١٤ ولم يبق في أيدي المغاربة من الموانئ المهمة على الأطلسي سوى سلا.

اكتفى البرتغاليون بالسيطرة على السواحل، وكانت سياسة الاحتلال المقصور هذه جزءاً من سياستهم الاستعمارية في إمبراطوريتهم كلها. فقد كانت الإمبراطورية هامشية سواحلية يحميها الأسطول البرتغالي وكانت محاولاتهم التوغل في الداخل عبارة عن حملات وقائية أو غارات تأديب ونهب.

وكان توغلهم في الشمال محدوداً بسبب الكثافة البشرية والمقاومة الشديدة الحكومية والشعبية. ولكن توغلهم في الجنوب كان واسعا حيث وصلوا إلى أبواب مراكش.

كان للغزو البرتغالي نتائج مهمة :

١ً - أدى إلى إثارة المشاعر الدينية والوطنية لدى المغاربة أدت بدورها - بسبب عجز السلطات الوطاسية - إلى ظهور قيادات دينية وطنية أبرزها الأشراف السعديون الذين نجحوا بالوصول إلى السلطة.

٢ً - أسهم الغزو البرتغالي في تعاظم الأزمة السياسية والاقتصادية في المغرب، فقد عمل البرتغاليون على الحصول على الحبوب المغربية بشتى الوسائل: الشراء، استخلاصها على شكل ضرائب أو عن طريق النهب. وحتى حين يتم بيع القمح للبرتغاليين كان هؤلاء هم الذين يتحكمون غالباً بالثمن ويتحينون الفرصة الملائمة للشراء عندما يكثر العرض ويقل الطلب وترخص الأثمان. وبسبب هذا الإلحاح الشديد على الإنتاج المغربي من الحبوب والذي لا يراعي إمكانات المغرب

وظروفه، عجز المغرب عن مواجهة أزمات المجاعة التي تعرض لها بسبب فقدان الفائض الذي كان يدخر لتلافي آثار المواسم السيئة. ولذلك كانت مجاعة عام ١٥٢١ من أشد المجاعات التي عرفها المغرب في دكالة وعبده والسوس حيث فُقدت القبائل في هذا المناطق الكثير من سكانها وماشيتها وطاقتها الإنتاجية. ولما شدد السعديون قبضتهم شيئاً فشيئاً على البرتغاليين والمتعاملين معهم عمدوا إلى البحث عن الحبوب في الشمال الخاضع للوطاسيين الذين تساهلوا في بيع القمح للبرتغاليين سداً لحاجاتهم المالية فحصلت مجاعة شديدة في فاس عامي ١٥٤١-١٥٤٢[١].

جـ – رد الفعل الديني والوطني على الغزو البرتغالي:

استغل البرتغاليون ضعف المرينيين والصراع القائم بين أفراد الأسرة الحاكمة فاستولوا على سبتة عام ١٤١٥. وأدى عجز المرينيين عن صدهم إلى قيام ثورة قضت على الأسرة المرينية باستثناء طفل صغير «عبد الحق». استغل بنو وطاس[٢] وهم فريق من زناته تربطهم ببني مرين روابط القربى والمصاهرة والمصلحة – الفرصة فتبنوا قضية عبد الحق واستولوا على السلطنة ١٤٢٠-١٥٥٤.

---

(١) انعكاسات الاحتلال البرتغال على الأوضاع الاقتصادية بمغرب القرن ١٦, بحث غير منشور للدكتور عثمان الأنصاري ص ١٤٤.

(٢) كان بنو وطاس إحدى قبائل مجموعة زناته. وكغيرهم من الزناتيين انتقلوا من الجريد إلى الغرب أو إلى الأطراف الصحراوية. وكانت جماعة منهم قد اسست غدامس، كما ساعدت جماعة أخرى منهم في توزر بني غانية (آخر زعماء المرابطين) ولكن أغلبهم اتجهوا نحو الغرب مع كتلة زناته الكبرى. وارتبطوا مع بني مرين برباط المصاهرة والكفاح المشترك ضد الموحدين واستقروا في الريف في قلعة تازوتا. وكان بنو الوزير يسعون إلى الرئاسة في بني وطاس ونجحوا في ذلك. ويزعم بنو الوزير أنهم من أعقاب يوسف بن تاشفين «لحقوا بالبدو ونزلوا في بني وطاس ووشجت فيهم عروقهم حتى لبسوا جلدتهم (الناصري: الاستقصا ج ٣ ص ١١٨) ولم يكن ولاؤهم لبني مرين ثابتاً وكانوا موضع شك وحذر من قبل المرينيين، وقد أخضعهم المرينيون لرقابة مستمرة، ومع ذلك يمكن عدهم من قبائل المخزن المريني الكبرى وشغل زعماؤهم مناصب كبرى في الحكومة والجيش واستغلوا فرصة الصراع بين أفراد الأسرة المرينية فبدؤوا يتوسعون فاستولوا على سلا وباديس وعلى ممر سلا فاس.

مرَّ حكم الوطاسيين بمرحلتين :

آ – مرحلة الوصاية ١٤٢٠–١٤٥٨: تميزت هذه الفترة :

١ – بنجاح الوطاسيين في إلحاق هزيمة كبرى بالبرتغاليين الذين حاولوا الاستيلاء على طنجه ١٤٣٧ وأجبروا القوات المهاجمة البرتغالية على الاستسلام والموافقة على إخلاء سبته، على أن يبقى قائد الحملة الأمير فرناندو رهينة حتى يتم تسليم سبته (نكث البرتغاليون بوعدهم وتمسكوا بسبته وظل الأمير البرتغالي سجيناً حتى مات).

٢ – انبعاث الروح الدينية الوطنية في المغرب وبروز القوى الصوفية التي أطلقت صيحة الجهاد ضد الغزاة. انتقلت الصوفية من المشرق إلى المغرب في عهد المرابطين. ولكن بروز زعماء الطرق الصوفية المغربية يعود إلى عصر الموحدين. وبسبب الرقابة الشديدة التي فرضها الموحدون على نشاط الصوفية، أيدت هذه المرينين في صراعهم ضد الموحدين. وبالرغم من أن المرينين أفادوا من هذا الدعم فإنهم لم يكونوا مرتاحين لتوسع النشاط الصوفي وتعدد الزوايا والطرق. وإذا كان نشاط الصوفية قد اقتصر في المراحل الأولى على النواحي الدينية فإن إنحطاط المرينيين ساعد على بروز هذه الطرق الوضع السياسي الاقليمي. فقد استغلت الصوفية نفوذها الروحي لتلعب دور الحكم في النزاعات القبلية. كما أن استيلاء البرتغاليين على سبته وعجز المرينيين عن القيام برد فعال ترك الباب مفتوحاً لتحرك صوفي كبير مستقل عن الدولة.

وفي نهاية القرن الخامس عشر وفي عهد الوطاسيين أصبحت الصوفية موضة العصر في المغرب كله، وأقبل عليها المثقفون في المدن والأرياف. ويبدو أن الوطاسيين الذين كانوا محرومين من السند القبلي حاولوا أن يعوضوا عن ذلك بإيجاد سند ديني وذلك بتشجيع الصوفية والشريفية. وفي الوقت الذي عجز فيه الوطاسيون عن فرض سيطرتهم على البلاد كانت الصوفية قد وطدت سلطتها الروحية على المغرب كله. وقد برزت في هذه الفترة طريقتان: الأولى القادرية نسبة

إلى قطب الصوفية المشرقي عبد القادر الجيلاني الذي توفي في بغداد عام ١٠٦٦. والثانية الشاذلية ومؤسسها قطب الصوفية المغربي عبد السلام بن مشيش وسميت بالشاذلية نسبة إلى أبي الحسن الشاذلي أول مريد لعبد السلام بن مشيش، وكان زعيمها آنذاك محمد الجزولي الذي طار صيته في أنحاء المغرب، وشخصية الجزولي لا تطبع تاريخ الحركة الصوفية في المغرب فحسب بل تطبع تاريخ المغرب كله. وكان مركز قوة هذه الطريقة الأساسي في الجنوب موطن الجزولي. وكانت تلقى في فاس دعم الأشراف الأدارسة. وقد انضم الكثير من الأشراف إلى هذه الطريقة، حتى أنها دعيت «طريقة» الأشراف. وقفتّ الشاذلية ضد الوطاسيين في فاس وكانت وراء الانقلاب الإدريسي فيها كما كانت القوة الأولى المساندة للسعديين.

وفي الفترة الوطاسية لم تعد الصوفية تقتصر على الناحية الدينية بل أخذت تلعب دوراً سياسياً بارزاً في حياة البلاد. ويعود ذلك إلى الغزو الأجنبي وعجز السلطات الوطاسية.

وإذا كان الغزو الأجنبي لم يحدث أي تغيير في بنية البلاد السياسية أو الاجتماعية أو الحضارية، فإن رد الفعل الذي أحدثه كان عميقاً وعاماً. فقد أطلق زعماء الصوفية نداء الجهاد بعد أن لمسوا عجز السلطات الوطاسية وتغاضيها إن لم نقل تشجيعها، وحملوا راية الجهاد بالاشتراك مع الزعماء المحليين، وجمعوا الجند لصد هجمات البرتغاليين، وجمعوا الأموال لافتداء الأسرى.

ولما لم يكن للوطاسيين سند قبلي أو ديني فقد حاولوا أن يستغلوا هذا الانبعاث الديني والوطني لصالحهم. فعملوا على تشجيع الصوفية والمرابطين الداعين للجهاد، وسعوا لجعل فاس عاصمة المغرب الدينية فزعموا عام ١٤٣٧ أنهم عثروا - حين كانوا يحاولون تجديد ضريح مولاي إدريس - على جثة مولاي إدريس سليمة وقرروا إقامة ضريح في المكان الذي عثروا فيه على الجثة. كانت هذه المحاولة لصالح الأشراف الأدارسة أكثر مما كانت لصالح الوطاسيين.

٣ - لم يكن لدى الوطاسيين قوة سند ملتزمة ولا أسلوب عمل جديد

يناسب الظروف الجديدة. وكانوا مضطرين إلى الاعتماد على بعض القبائل العربية غير الملتزمة مقابل امتيازات وإعفاءات ضرائبية.

وكان المغرب يعاني من أزمة حادة نجمت عن الغزو الأجنبي الذي دخل مرحلة النشاط الدؤوب وتصاعد القوى الصوفية، واستقلال الكثير من الأمراء الإقليميين أو انتشار الفوضى. واقتصرت السيطرة الوطاسية على جزء من البلاد يشمل منطقة فاس وسهول الأطلنطي حتى نهر أم الربيع. أما في منطقة المضيق فقد استقل المجاهدون في مدينتي شفشاون وتطوان اللتين أصبحتا إمارتين مستقلتين تجبيان الضرائب لحسابهما من القبائل المجاورة ولا تعترفان للوطاسيين إلا بسلطة اسمية، واستقلت أكثر قبائل الريف والمغرب الشرقي، وتحرر الأطلس الأوسط. أما جنوبي أم الربيع فقد كان خارج نطاق السلطة الوطاسية وكان المعاصرون آنذاك يميزون وجود مملكتي فاس ومراكش التي كان على رأسها أمراء هنتاتة قبل دخول السعديين إليها.

انتهى عهد الوصاية الوطاسية حين بلغ السلطان المريني عبد الحق سن الرشد حيث تمكن من الانقلاب على الوصي الوطاسي يحيى ابن الوصي الأول وسميه وكانت ولايته كما يقول الناصري «مبدأ الشر والفتنة» فقد ملأ المخزن بأتباعه، وعامل الرعية بقسوة، وضايق السلطان والجند والفقهاء واستحوذ على أموال الدولة. قبض السلطان المريني عبد الحق على الوصي وأفراد أسرته ١٤٥٨ ولم ينج من الأسرة إلا أخوا الوصي محمد الشيخ ومحمد الحلو اللذان كانا في الصيد حين جرت المجزرة. نجح محمد الشيخ في الاستيلاء على أصيلا واتخذها قاعدة له.

كان عبد الحق عديم المواهب أحمقاً دون قوة حقيقية يعتمد عليها. سلك سياسة ألّبت عليه الجميع. ألغى كل إعفاء من الضرائب بسبب حاجته إلى المال، وارتكب غلطة قاتلة بتسليط وزيرين يهوديين على الفاسيين وكان الدافع إلى ذلك مالياً. أخذ الوزيران اليهوديان «أهل فاس بالضرب والمصادرة على الأموال»[1].

---

(١) الناصري، ج٤ ص ٩٨-٩٩.

واعتز اليهود بالمدينة وتحكموا بالأشراف والفقهاء ومن دونهم في وقت غدا فيه الأشراف القوة الصاعدة التي تتطلع إليها أبصار المغاربة. وأثناء غياب عبد الحق في قمع ثورة في تازا ثارت جماهير فاس بتحريض من إمام الطريقة الشاذلية ونصب الثوار نقيب الأشراف الأدارسة الشريف الجوتي سلطاناً. فشل عبد الحق في قمع الثورة وأسر وقتل سنة ١٤٦٥ وبمقتله انتهت الأسرة المرينية.

ب – المرحلة الثانية : الحكم الوطاسي المباشر ١٤٧٢–١٥٥٤:

توجه محمد الشيخ سنة ١٤٧١ نحو فاس للقضاء على الأدارسة. استغل البرتغاليون هذا الصراع فهاجموا أصيلا. كان على محمد الشيخ أن يختار بين الجهاد ضد البرتغاليين في أصيلا وبين السلطة في فاس، فآثر السلطة على الجهاد وهادن البرتغاليين. نجح محمد الشيخ في احتلال فاس، لكن البرتغاليين نجحوا في الاستيلاء على أصيلا وطنجه. ولم يكتف محمد الشيخ بمهادنة البرتغاليين بل تعهد لملوك إسبانيا سنة ١٤٨٥ بالامتناع عن تقديم أي مساعدة لغرناطة. وفي سنة ١٤٩٢ سقطت غرناطة وتدفق المهاجرون الأندلسيون إلى المغرب يحملون معهم حقدهم على الإسبان ونقمتهم على الوطاسيين الذين لم يساعدوهم واستقبلوهم بفتور ولم يستخدموهم في المخزن. فتحول الأندلسيون إلى قوة معارضة خطرة. وفي سنة ١٤٩٧ استولى الإسبان على مليلا وجساسة ثم استولوا سنة ١٥٠٧ على حجر باديس. وهكذا بدأ حكم الوطاسيين المباشر بالعار والتخلي عن الجهاد مما أفقدهم كل رصيد أمام المغاربة الذين بدؤوا يتطلعون إلى قيادة جديدة.

وإذا كان محمد الشيخ قد بدأ عهده بمهادنة البرتغاليين والتخلي عن الجهاد فإن خلفه ابنه محمد الملقب بالبرتغالي – بسبب السنوات السبع المريرة التي أمضاها أسيراً في البرتغال إثر احتلالهم أصيلا – آثر امتشاق السلاح لينتقم من آسريه، ولكنه فشل في تحرير أصيلا وفي استرداد طنجه كما فشل في منع البرتغاليين من السيطرة على الجنوب. وتميز عهد محمد البرتغالي ببروز قوة السعديين في الجنوب وبسبب عجزه آثر التفاهم معهم ومع غيرهم من زعماء الجهاد ليكسب من ذلك

قوة دعم معنوية تعوضه عن نقص إمكاناته المادية. ولهذا دعا اثنين من أبناء الزعيم السعدي القائم وهما أحمد الأعرج ومحمد الشيخ إلى فاس حيث شاركا في الجهاد ضد البرتغاليين في الشمال وعمل محمد الشيخ مؤدباً لأبي العباس أحمد بن السلطان. ولم يعارض السلطان الوطاسي في عودة الأخوين إلى الجنوب ليخلفا والدهما في قيادة الجهاد. ولكن الوضع تغير حين استولى السعديون على مراكش سنة ١٥٢٣. ويتداخل عهد السلطانين الوطاسيين الأخيرين أبو العباس أحمد ١٥٢٤-١٥٥٠ والسلطان أبو حسون ١٥٥٤ مع تاريخ السعديين.

الفصل الثاني

دولة الأشراف السعديين

يعود أصل الأشراف السعديين إلى مدينة ينبع ، قدموا إلى المغرب في وقت يصعب تحديده، ولأسباب غير واضحة[١]. ويقدر هنري تراس أن السعديين والعلويين قدموا إلى المغرب مع عرب معقل الذين بسطوا سيطرتهم على الواحات المغربية منذ أوائل عهد المرينيين[٢] . واستقر السعديون في وادي درعة في بداية القرن الرابع عشر في تاجمدارت في منطقة من أغنى مناطق درعة بالسكان. وظلوا حتى مطلع القرن السادس عشر يعيشون حياة بسيطة كعلماء، وكان نسبهم يكسبهم شيئاً من الاحترام.

ونسب السعديين العربي ليس موضع شك ولكن نسبهم الشريفي كان موضع طعن. ويبدو أن هذه المسألة آثارها الأشراف العلويون في أواخر عهد السعديين حين كانوا يتحركون ليحلوا محلهم. ويشير اليفرني إلى أن مولاي محمد الشريف بدأ الطعن جهاراً بصحة نسب السعديين الشريفي ونسبهم إلى بني سعد قبيلة مرضعة الرسول.

---

(١) يذكر اليفرني قصة اتيانهم من الينبوع (ينبع) إلى درعة أن أهلها أتوا بهم من هناك كما أتى أهل سجلماسة ببني عمهم لأنهم كانوا لا تصلح ثمارهم وتعتريها العاهات فقيل لهم لو أتيتم بشريف إلى بلادكم كما أتى به أهل سجلماسة إلى بلادهم لصلحت ثماركم كما صلحت ثمارهم. اليفرني: نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ص ٦.

(٢) H. Terrasse : P. 250.

ونقل اليفرني رسالة وجهها محمد الشيخ بن مولاي زيدان إلى مولاي محمد الشريف ينكر عليه إدعاءه أمام الحضر والبدو نسب السعديين الشريفي وينسبهم إلى بني سعد، وأحاله إلى كتاب مناهل الصفا ليتأكد من صحة نسب السعديين الشريفي. وقد رد محمد الشريف أنه من العبث الرجوع إلى الفشتالي أو غيره من مؤيدي السعديين.

ويرى اليفرني أن المقصود من إطلاق تسمية «السعديين» الطعن في نسبهم والتصغير من شأنهم، ويؤكد اليفرني أن هذه التسمية لم تكن لهم في القديم ولا وقعت بها تحليتهم في ظهائرهم ولا في سجلاتهم وصدور رسائلهم. بل كانوا لا يقبلون ذلك ولا يجترئ أحد على مواجهتهم بها لأنه إنما يصفهم بذلك من يقدح في نسبهم ويطعن في شرفهم ويزعم أنهم من بني بكر كما قلنا[1].

ويؤكد مؤرخ الأسرة العلوية أبو القاسم الزياني صحة نسبهم الشريفي مستنداً في ذلك إلى السلطان العلوي مولاي محمد بن عبد الله. يقول الزياني أنه حين ذكر للسلطان محمد الخلاف الذي وقع في نسب السعديين أجابه: «اسكت ولا تعد لمثل هذه المقالة فإنهم إخواننا وبنو عمنا وجدنا واحد وقريتنا ينبع واحدة يقال لها بنو إبراهيم، وجدهم أحمد بن محمد خرج لدرعة قبل جدنا الحسن بن قاسم وهو ابن أخيه وقد ورد علينا من بني عمنا من ينبع من حقق نسبهم وعرف فرعهم وأصلهم، إلا أنهم لما صار إليهم ملك المغرب لم يعاملونا معاملة الإخوان، واقتصروا على التوقير والاحترام فكان سلفنا رحمهم الله يحقدون عليهم ذلك الإهمال وعدم المبالاة وعدم السؤال، هذا موجب طعنهم بهم». وختم السلطان محمد كلامه: «لا ينكر نسبهم إلا جاهل أو من لا معرفة له بالأنساب»[2]. وأياً كان الأمر فقد كان المغاربة آنذاك ينظرون إليهم كأشراف ومن سلالة الرسول حين بدؤوا شق طريقهم نحو السلطة.

---

(١) اليفرني : المرجع السابق . ص ٧.

(٢) أبو القاسم الزياني: البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف مخطوط. ص ٩-١٠.

المغرب عشية ظهور السعديين :

كان المغرب في بداية القرن السادس عشر يعيش «محنة تاريخية» نراها مجسدة في كتاب وصف أفريقيا الذي كتبه الحسن بن محمد الوزان. وقيمة ما كتبه الوزان ناجم عن كونه شاهد عيان زار أنحاء المغرب ريفه وحضره وسهله وجبله، صحراءه وسواحله، وقابل العديد من الشخصيات ذات الأثر في مجرى الأحداث. وتبدو صورة المغرب في هذه الفترة صورة قاتمة: مغرب ممزق تقلصت فيه السلطة المركزية، وتوطدت السلطات الاقليمية، وصورة مغرب مدمر بتأثير الحروب والفتن الداخلية والغزو الخارجي البرتغالي والإسباني. وقد تجلى ذلك بانحطاط الحياة المدينية، فقد فقدت الكثير من المدن ازدهارها السابق كمراكش وآزمور وآسفي الخ... وهجرت أو درست مدن أخرى. وإذا استثنينا مدينة فاس التي احتفظت بازدهارها النسبي لأسباب تاريخية وسياسية واقتصادية، فإن باقي المدن تحولت إلى قرى كبيرة لا يتجاوز عدد سكان أكبرها عشرة آلاف نسمة. ويقابل تقلص القطاع الحضري توسع القطاع الريفي البدوي، ويعني هذا تراجع الاقتصاد النشيط المفتوح داخلياً وخارجياً، وتوسع الاقتصاد المحلي الاكتفائي. وإذا كانت الحروب والفتن وانعدام الأمن قد أدت إلى تعطل التجارة الداخلية، وهجرة سكان المدن والقرى إلى الجبال، وتقلص مساحة الأراضي المزروعة، وتوسع العنصر البدوي الرعوي وانتشاره حتى في السهول الخصبة، فإن الغزو البرتغالي أدى إلى خنق المغرب اقتصادياً وشل تجارته الخارجية التي كانت أحد أسباب ازدهاره. ذلك أن المغرب كان يلعب خلال عدة قرون دور الوسيط بين أوربا القريبة التي كان اقتصادها النامي بحاجة إلى المعادن الثمينة وبين إفريقيا السوداء التي كانت حاجتها إلى المواد المصنوعة تتزايد مع تطور المجتمع الإفريقي بتأثير انتشار الإسلام، كما نجح البرتغاليون في تحويل التجارة الإفريقية نحو الساحل حيث تغلبت الأساطيل على قوافل الجمال.

إن هذا الوضع المتردي حمل في طياته بذور تحول جديد فالفوضى والغزو والاختناق ولد ردود فعل معاكسة أبرزها فقدان الأسرة الوطاسية كل احترام بسبب عجزها ومهادنتها العدو، وانتعاش روح المقاومة الوطنية الدينية «الجهاد».

ولما كانت المقاومة العفوية غير كافية تطلع الغاربة إلى زعامة قادرة على توحيد الجهد وتنظيم الجهاد والحلول محل الأسرة الوطاسية المنهارة.

أوضاع الجنوب المغربي وتأثيرها في قيام الدولة السعدية :

انطلق السعديون في مسيرة السلطة من الجنوب أي من المنطقة التي شهدت انطلاق مسيرة الأسر الحاكمة المغربية القوية، قبلهم كالمرابطين والموحدين، وبعدهم العلويين. فبالرغم من اتساع الواجهة البحرية المغربية على الأطلسي والمتوسط، فإن دور البحر كان قليل الأهمية في العصور السابقة، وعلى العكس لعبت الصحراء بالنسبة للمغرب دور البحر بالنسبة لباقي شعوب البحر المتوسط. وكان الجنوب المغربي مركزاً نشطاً من مراكز التجارة الإفريقية حيث كان المغرب يحصل على الذهب والتوابل والعبيد. وكانت الموانئ الصحراوية في وادي درعة والسوس وتافللت تعج بالنشاط . ولكن هذه المناطق تعرضت لأضرار اقتصادية جسيمة إثر تحول التجارة الإفريقية نحو توات فالمغرب الأوسط وتونس، وإثر الغزو البرتغالي الذي سعى إلى تحويل التجارة الإفريقية نحو البحر حيث سيطر البرتغاليون على السواحل المغربية والإفريقية. وبسبب غياب السلطة المركزية والصراعات الداخلية كان الجنوب المغربي عاجزاً عن مجابهة الغزو البرتغالي وتلافي آثاره المدمرة. ولهذا كان الجنوب المغربي بحاجة إلى قيادة قوية يقبلها الجميع، قادرة على تعبئة الجهود لمجابهة الغزو، وأن تعيد للجنوب نشاطه الاقتصادي. وبالرغم من النفوذ الذي كانت تتمتع به الطرق الصوفية ولا سيما الشاذلية الجزولية في هذه المنطقة فإن أياً من زعماء هذه الطرق لم يحاول أن يأخذ مبادرة سياسية ويلعب دور القائد، بل وجه زعماء الصوفية السكان نحو السعديين. ويشرح اليفرني نقلاً عن شارح زهرة الشماريخ بدء ظهور السعديين: «إن أهل السوس أحاط بهم العدو الكافر ونزل بجوانبهم من كل جهة حتى أظلم الجو واستحكمت شوكة البرتغال، وبقي المسلمون في أمر مريع لعدم وجود أمير تجتمع عليه كلمة الإسلام لأن بني وطاس فشلت ريحهم يومئذ في بلاد السوس، وإنما كان لهم الملك في حواضر المغرب، ولم

يَكن منه بالسوس إلا الاسم، مع ما كانوا فيه من قتال العدو في طنجة وأصيلا وحجر باديس وغيرها من ثغور وسهول الهبط. فلما رأى أهل السوس ما داهمهم من تفاقم الأحوال وكثرة الأهوال وطمع العدو في بلادهم ذهبوا إلى الشيخ الولي الصالح أبي عبد الله محمد بن مبارك فذكروا له ما هم فيه من انتشار جماعتهم وافتراق كلمتهم وتكالب العدو على مباكرتهم بالقتال ومراوحتهم، وطلبوا منه أن تجتمع كلمتهم عليه ويعقدون له البيعة ويقوم بأمر الناس في إمضاء الحكم عليهم وجمعهم لقتال عدوهم فأبى ذلك وامتنع منه كل الامتناع وقال لهم إن رجلاً من الأشراف بتاكما دارت من بلاد درعة يقوَل إنه سيكون له ولولديه شأن فلو بعثتم إليه وبايعتموه كان أنسب لكم وأليق بمقصودكم»[1].

وكان ابن مبارك كما يقول اليفرني «من أكابر الأولياء المشاهير.. كان نزيلاً ببلاد آقّ، وزاويته هناك شهيرة، وكان رحمه الله قطعي الولاية، عند أهل السوس وظهرت له كرامات عديدة.. من ذلك أنه جعل لهم ثلاثة أيام في كل أسبوع من كل شهر لا يحمل فيها أحد سلاحاً ولا يتعرض بعض القبائل فيها لبعض...»[2].

جرى لقاء بين ابن مبارك وأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن سنة ١٥١٠ في آقّ عاد بعدها أبو عبد الله إلى درعة. وفي العام التالي أرسل فقهاء مصمودة وزعماء القبائل مندوبين إلى أبي عبد الله وأوكلوا إليه أمر قيادتهم. قبل أبو عبد الله ودعاهم إلى الاجتماع في تيدسي قرب تارودانت حيث تمت مبايعته ولقب بالقائم بأمر الله.

ويلاحظ أنه إلى جانب الطابع الديني للتحرك السعدي هناك الطابع الاقتصادي. فإذا كانت آقّ مقر الزعيم الجزولي الكبير ابن مبارك فهي أيضاً كانت مركزاً مهماً للقوافل التي كانت تنقل التجارة الإفريقية . كذلك كانت تيدسي

---

(١) اليفرني : ص ١٠.

(٢) اليفرني : ص ١٢.

مركزاً دينياً وفي الوقت نفسه كانت مركزاً لسوق سنوية كبيرة، وكذلك كان حال مراكز أخرى في الجنوب المغربي، وهكذا كان الجهاد ضد الغزاة هو نضال أيضاً لاستعادة التجارة الإفريقية للجنوب. وفضلاً عن ذلك لقي السعديون منذ البداية تأييد عرب معقل وبخاصة الشبانات وذوي منصور، وكانت هذه القبائل تجبي الضرائب وتستفيد من تجارة القوافل، وكانت قوافلهم المنطلقة من السنغال تنتهي إلى آقّ ولكن منذ نصف قرن بدأت هذه التجارة تلقى منافسة حادة من البرتغال في موريتانيا. ومن هنا نفهم أحد دوافع الزعيم الديني في آقّ لحث الناس على الالتفاف حول الشريف السعدي.. إن تضامن السوس ودرعه وتافللت مدين لدعم عرب معقل تدفعهم جميعاً المصالح الاقتصادية نفسها وكذلك توصية مرابطي الطريقة الشاذلية فهم جميعاً يحاربون الغزاة وفي الوقت نفسه المنافسين. إن استيلاء السعديين على واحة توات سنة ١٥٢٦ ذو مغزى، فرغم نضالهم ضد البرتغاليين لم ينسوا أن يحلوا محل منافسيهم في تلمسان في هذه الواحة التي تلعب دوراً أساسياً في التجارة الصحراوية[١] .

دعا القائم السكان إلى الجهاد ضد البرتغاليين في تفتنت وهي قرية فونتي قرب أغادير وقد أحرز المجاهدون نجاحاً أولياً شجع على الالتفاف حول القائم. وفي ١٥١٧ توفى القائم وخلفه ابنه أحمد الأعرج. وتولى أخوه محمد الشيخ أمر السوس.

استأنف أحمد الأعرج النضال ضد البرتغاليين. وكان أكبر عقبة أمام أحمد الأعرج هو حليف البرتغاليين يحيى بن تعففت الذي نجح في إبعاد السعديين إلى الجنوب بعد أن أحرزوا نجاحات غير حاسمة. لجأ أحمد الأعرج لى المكر للتخلص من غريمه ابن تعففت، ونجح خلال هدنة عقدها مع البرتغاليين في الإيقاع بين البرتغاليين وحليفهم الذي اضطر إلى السفر إلى لشبونة لتسوية وضعه وتبرئة نفسه مما سمح للسعديين بإعادة تنظيم قواتهم وتسليحها بسلاح حديث. نجح السعديون في تدبير

---

(١) Brignon : Histoire de Maroc P, 206.

اغتيال ابن تعففت أثناء غارة كان يقوم بها في الداخل عـام ١٥١٨ وأزيحت بقتله أخطر عقبة أمامهم. وبين عام ١٥٢٣-١٥٢٥ استولى أحمد الأعرج علـى مراكـش إحدى العواصم التاريخية الكبرى للمغـرب. وكـان هـذا أولى الخطـوات الكـبرى في مسيرة السلطة.

الصراع السعدي الوطاسي :

لم يبد الوطاسيون أي إنزعاج للتحركات السعدية الأولى بسبب انشغالهم بمشاكلهم في الشمال، وخروج الجنوب المغربي واقعياً عن سلطتهم، وعجزهـم عـن العمل في هذه المناطق، ولأن التحرك السعدي في مظاهره الأولى كـان موجهـاً ضـد البرتغاليين بصورة أساسية وبين قبائل خارجة عن طاعة الوطاسيين.

وكان السعديون يعملون بحذر ويحرصـون علـى تجنـب كـل مـا يثير خـاطر الوطاسـيين أو شـكوكهم ويظهـرون ولاءهـم للسـلطة الوطاسـية. وفي إطـار هـذه السياسة الحذرة اتجه أحمد الأعرج ومحمد الشـيخ في طريـق عودتهمـا مـن الحـج إلى فاس، حيث تردد أحمد الأعرج على القرويين وعمـل محمـد الشـيخ علـى تربيـة ولي العهد الوطاسي أحمد. وقيل إنهما حثا السلطان الوطاسي على الجهاد وأنـه أيدهمـا وكلفهما القيام بدعوة الناس إلى الجهاد، مما هيأ لهما فرصـة التنقـل في بـلاد المغـرب بحجة الدعوة إلى الجهاد الأمر الذي أكسبهما سمعة طيبة[1].

إلا أن التحركات الأولى لأحمد الأعرج الذي خلف والده بدأت تثير شكوك الوطاسيين. وتزايدت هذه الشكوك إثر دخول السعديين مراكش الذي كان منعطفاً مهماً في العلاقات بين الوطاسيين والسعديين. كان أحمد الأعرج حذراً ولم يشـأ أن يكون البادئ في الصدام، ولم يكن هـذا خوفـاً مـن الوطاسـيين، فقـد كـان يعـرف حدود قوتهم المشلولة ، ولكن حرصاً على مداراة الرأي العـام المغربـي الـذي كـان معبأ - بفضل الزعامات الصوفية - للجهاد. لهذا حرص أحمـد الأعـرج، رغـم كـل

---

(١) الناصري : الاستقصا ، ج٥ ص ٩.

مظاهر الاستقلال التي كان يتمتع بها، على تأكيد ولائه للوطاسيين ظاهرياً في حين كان يعمل بصورة تدفع الوطاسيين للبدء في التحرك ضده ليظهرهم أمام الرأي العام المغربي بمظهر المتخلين عن أولوية الجهاد.

اكتفى أحمد الأعرج بالامتناع عن إرسال ما يتوجب عليه دفعه من المال للسلطان الوطاسي أو اكتفى بدفع القليل، بعد أن وعد بإرسال ما كان يعطيه أهل هذه البلاد مضاعفاً، و لم يكن ينقصه المبرر فالمال يلزم للجهاد.

كان احتلال مراكش بمثابة إنذار للوطاسيين ومما زاد في قلق الوطاسيين نشاط أحمد الأعرج الدبلوماسي. فقد عمل هذا على تنظيم تحالف مرابطي، فقد تحالف مع مرابطي الدلاء الذين بدؤوا يسيطرون على صنهاجة في الأطلس الأوسط، وتحالف مع عدد من مرابطي الريف الذين كان يتمتع بينهم بسمعة طيبة بسبب كرههم للوطاسيين المتقاعسين عن الجهاد، ولأن أحمد الأعرج شاركهم في الجهاد أمام طنجة وأصيلا، وكان يحظى بتأييد الجزوليين. كما تحالف مع أمراء هنتاته الذين كانوا يسيطرون على جزء من الأطلس العظمى، وكانوا على خلاف مع أمير مراكش السابق ناصر بن شنتوف الهنتاني، وقد لعب الجزوليون دوراً بارزاً في هذه الاتصالات[1] .

إزاء هذا كله كان لا بد للسلطان الوطاسي من التحرك. حاصر الوطاسيون مراكش ولكن السلطان، بفضل نشاط المرابط الشيخ الغزواني – الذي كان ناقماً على الوطاسيين الذي كانوا قد سجنوه مع أتباعه في فاس– قاوموا ببسالة. اضطر السلطان الوطاسي لفك الحصار إثر اندلاع ثورة قام بها أولاد عمه في فاس. واستؤنف الصراع عام ١٥٢٨ فجرت معركة أنماي غير الحاسمة التي انتهت بصلح.

وفي عام ١٥٣٧ اعتقد أحمد الأعرج أن الوقت حان ليبدأ التحرك باتجاه فاس، وجرت معركة مهمة على وادي العبيد في مشرع بو عقبة لحق الوطاسيين فيها هزيمة ساحقة. لكن القوى المرابطة أدركت خطورة هذا الصراع الوطاسي السعدي وتأثيره على الجهاد ضد العدو الخارجي فتدخلت وتوسطت بين الطرفين.

---

(١) اليفرني : ص ٢١.

وقام عدد كبير من العلماء أبرزهم العالم الفاسي الونشريس بالمفاوضات. وبالرغم من تشدد السعديين فقد نجحت الوساطة وتم الاتفاق على أن تكون المناطق الواقعة من تادلا إلى السوس إلى السعديين ولم يشر الاتفاق إلى مسألة التبعية[1] .

الصراع السعدي الوطاسي في عهد محمد الشيخ:

تحول السعديون إثر الاتفاق السابق الذي جمد الوطاسيين نحو البرتغاليين ونجحوا عام ١٥٤١ في استرداد أغادير. كان لاسترداد أغادير وقع كبير في المغرب إذ كان أول مركز برتغالي يسقط في حرب التحرير التي يقودها السعديون. وقد ترتب على هذا النجاح آثار مهمة فقد اضطر البرتغاليون إلى إخلاء آسفي وأزمور حيث زال خطرهم في الجنوب وصار بإمكان السعديين التوجه لاحتلال المغرب الشمالي. كما صار بإمكان السعديين استقبال التجار الأجانب وبخاصة الانجليز والفرنسيين والحصول على الأسلحة الحديثة. كما أن هذا النجاح الذي تحقق على يد محمد الشيخ الذي كان يقود القوات المهاجمة أكسبه سمعة وأسلحة حديثة ساعدته في الصراع الذي نشب بينه وبين أخيه أحمد الأعرج.

يرى اليفرني أن الدسائس هي التي فرقت بين الأخوين وأفسدت قلوبهما[2] ، في حين يرى تراس أن الخلاف جرى حول اقتسام غنائم أغادير[3] ، ولا سيما استئثار محمد الشيخ بالمدفعية التي غنمها، ويبدو أن الأمرين لعبا دورهما، فالخلاف كان قد نشب بين الأخوين قبل سقوط أغادير ولكن القطيعة النهائية والصدام الحاسم وقعا بعد سقوط أغادير.

رجحت كفة محمد الشيخ لأن معظم قبائل السوس أيدته لأنه عرف خلال إمرته عليها كيف يكسب محبتها. انسحب أحمد الأعرج إلى تافيللت وانفرد محمد

---

(١) H. Terrasse : Ibid. P. 163.

(٢) اليفرني : المصدر السابق ، ص ٢٢.

(٣) H. Terrasse : Ibid. P. 165.

الشيخ بالسلطة. لم يستغل الوطاسيون هذا الصراع وظلوا في موقف المترقب. ويعزو أحد البرتغاليين الذي كان موجوداً آنذاك في فاس هذا الجمود إلى خـوف السـلطان الوطاسي أن يؤدي تدخله إلى تصالح الأخوين(١) . ولعله لم يتوقع أن يحسم الموقـف بهـذه السـرعة. كمـا أن الوضـع الاقتصـادي في الشـمال لم يكـن ملائمـاً ذلـك أن موسم ١٥٤٢ كـان سـيئاً للغايـة لم يشـجع الفاسـيين علـى القيـام بمشـروع بـاهظ التكاليف(٢) .

وفي سنة ١٥٤٥، استأنف السعديون نشاطهم فقد طالبوا بإقليم تـادلا وزحفوا على الإقليم وحاصروا قلعة فشتالة مفتاح الإقليم على طريق مراكـش فـاس واستولوا عليها، ونشبت معركة مع الوطاسيين بقيادة السلطان أحمـد علـى ضفـاف وادي درنـة أحـد روافـد أم الربيـع. وأحـرز محمـد الشـيخ انتصـاراً سـاحقاً علـى الوطاسيين وأسر السلطان أحمد. برزت شخصية وطاسية قوية خلال هذه الأحداث وهي شخصية أبو حسون عم السلطان أحمـد حـاكم إقليـم باديس وقـد شـارك في المعركة على رأس قوات الريـف، ونجـح بعـد أسـر ابـن أخيـه في لم شـتات الجيـش الوطاسي، ونادى بابن السلطان أحمد حاكماً مؤقتاً واكتفى بدور الوصـي ونجـح في صد هجوم السعديين على مكناسة.

أدرك أبو حسون أن مـيزان القـوى قـد تحـول إلى جـانب خصومـه فقـرر أن يستعين بالعثمانيين فـأعلن ولاءه للسـلطان العثمـاني. تقبـل السـلطان سـليمان ولاء الوطاسيين بسرور لأن هذا الولاء يعني توطيد مركز العثمانيين في كل شمال إفريقيا. أوفد السلطان سليمان سفيراً إلى مراكش وطلب من محمد الشيخ أن يحذو حذو أبي حسون، ولكن محمد الشـيخ رفـض بعنـف وأهـان المبعوث العثمـاني فاتحـاً بذلـك صفحة العداء مع الأتراك. ويرى تـراس أن هـذا الحـادث سيكون لـه نتـائج قاسـية

(١) Le tournean : Fes et la naissance du pamvoir SA'Dien : Revue Al'Andalus 1953 Vol. XVIII. P. 275.

(٢) Le Tourneau L Ibid, P. 275.

بالنسبة إلى السعديين والمغرب فقد حكم على الأسرة السعدية أن تبقى عدوة الأتراك وأن تبقى تحت كابوس الخطر التركي(١).

وفي سنة ١٥٤٧ حدث تحول مفاجئ فقد مل السلطان الأسير حياة الأسر فقدم لمحمد الشيخ تنازلات كبيرة مقابل إطلاق سراحه. فقد تنازل له عن الهبط والغرب ومكناسة واعترف له بحق حمل لقب سلطان وصك عملة وكان معنى هذا الاتفاق كما يقول لوتورنو أنه وقع مرسوم موت مملكة فاس(٢).

كان السلطان أحمد يأمل أن يعطيه هذا الاتفاق وقتاً كافياً يلتقط فيه أنفاسه ويستجمع قواه لمعركة آتية لا ريب فيها. ولكن محمد الشيخ لم يتح له هذا الوقت فبعد محاولتين فاشلتين للاستيلاء على فاس قرر فرض الحصار عليها سنة ١٥٤٩ معتمداً على أن الوقت يعمل لصالحه وأن الجوع سيجبر أهل فاس على الاستسلام. وصمد أهل فاس ظناً منهم أن المطر والبرد سيضطر السعديين إلى فك الحصار. وبدا أن حساب السعديين سيتحقق فقد بدأ الجوع يعصف بفاس وبدأ الفاسيون يخرجون ليلاً ليحاولوا سرقة شيء ما من معسكر السعديين.

سعى محمد الشيخ إلى الاستيلاء على فاس سلماً ليتجنب إلحاق الأذى بفاس والفاسيين. حاول في بادئ الأمر أن يقنع السلطان الوطاسي بالتفاهم فعرض عليه السماح له بالإقامة في تافللت. رفض السلطان الوطاسي العرض بتأثير عمه أبو حسون وصمم على المقاومة. حاول محمد الشيخ جذب علماء فاس إلى صفه وكان ثلاثة من هؤلاء أبرزهم الونشريس يحثون أهل فاس على الصمود. ولما فشل محمد الشيخ في كسب الونشريس إلى صفه عمد إلى تدبير أمر اغتياله بوساطة أعوانه داخل فاس ونجح في ذلك فتخلص من خصم عنيد وخطير. وبذل محمد الشيخ المال الكثير لكسب مؤيدين داخل فاس ونجح بفضل ذلك من كسب أنصار لعبوا دوراً مهماً في تسهيل دخوله فاس(٣). واضطر السلطان الوطاسي أحمد إلى عقد اتفاق

---

(١) H. Terrasse : Ibid. P. 165.

(٢) R. Le Tourneau : Ibid. P. 277.

(٣) Le Tourneau : Ibid. P. 277-78-79-80-81-82-83-84. اعتمد لوتورنو في تفاصيل=

مع محمد الشيخ ضمن حياته مع معاملة مشرفة، كما ضمن الاتفاق ضمان حياة سكان فاس وممتلكاتهم. اقتيد السلطان الوطاسي إلى مراكش مع حاشيته حيث دس لهم السم بعد فترة وجيزة. أما أبو حسون فقد غادر فاس إلى باديس في الشمال ثم اضطر إلى اللجوء إلى الإسبان في مليلا.

استخدم محمد الشيخ مع الفاسيين اللين والاعتدال في محاولة لكسب قلوبهم فحال دون حدوث نهب وأعمال عنف. ولكن بلاط محمد الشيخ وحاشيته التي كان يغلب عليها طابع البساطة البدوية بدت غريبة عن أهل فاس المترفين. كما لم يكن من السهل محو ذكريات بني مرين من ذاكرة الفاسيين، ذلك أن فاس عرفت عهدها الذهبي في عهدهم.

الصدام السعدي التركي :

تسرع محمد الشيخ بمهاجمة المغرب الأوسط قبل أن يستتب له الأمر تماماً في المغرب. كانت تلمسان ما تزال بيد الزيانيين الذين كانوا بسبب ضعفهم يتقلبون في ولائهم بين الترك والإسبان، وكانوا آنذاك في حماية الإسبان. تطلعت أنظار الناقمين في تلمسان على سياسة الزيانيين الموالية للكفار نحو محمد الشيخ فطالبوه بالتدخل لإنقاذهم. لبى محمد الشيخ النداء وأرسل جيشاً بقيادة ابنه الحران الذي نجح بوساطة أنصاره داخل تلسمان في احتلال المدينة وهرب الحكام الزيانيون ولجؤوا إلى الإسبان. وبدلاً من أن يلاحق الحران الزيانيين إلى وهران فيحررها من الإسبان توجه بالرغم من أوامر والده نحو مستغانم التي كانت بيد الأتراك. رحب الإسبان بهذا التحول وامتنعوا عن التدخل لصالح أتباعهم الزيانيين تاركين مسلمي المغرب يقاتلون مسلمي الجزائر. رد حسن باشا بلربي الجزائر بعنف وقوة على التحرش السعدي ووجه بسرعة جيشاً نجح باستعادة مستغانم وقتل حاميتها كما قتل الحران وأخاً له. واضطر السعديون إلى الإنسحاب إلى ما وراء الملوية.

= الحصار على مؤرخ مجهول كتب «تأريخ الدولة السعدية الدرعية التاكمادرنية» يبدو أنه من مكناس ومن مؤيدي الوطاسيين. انظر ص ٩-١٠-١١-١٢-١٣-١٤-١٥.

نهاية الصراع السعدي الوطاسي :

أثار احتلال محمد الشيخ فاس القلق لدى البرتغاليين والإسبان والأتراك. حاول أبو حسون استغلال هذا القلق ولكنه لم يحصل في بادئ الأمر على أي نتيجة.

كان البرتغاليون يراقبون تطور الأحداث في المغرب باهتمام وقد ترامى إليهم نبأ اجتماعات يعقدها محمد الشيخ مع قواد القصر الكبير والعرائش وشفشاون، وما يرافق ذلك من استعدادات بحرية تهدف كلها إلى مهاجمة المراكز البرتغالية. وأمام هذا التهديد رأى البرتغاليون أن يضحوا بأصيلا وبدؤوا باتخاذ الترتيبات لذلك حين تدخل أبو حسون مطالباً بأصيلا لنفسه على أن يعيدها بعد استرداد مملكته[1]. لم يكن أبو حسون ليكتفي بمساعدة البرتغال، كان يرغب في الحصول كذلك على مساعدة إسبانية تضمن له النجاح. كانت الحكومة الإسبانية غارقة في المشكلات الأوربية، وكانت الأمور الإفريقية تعالجها سلطات الاحتلال الإسبانية. كان حاكم وهران يميل إلى التعاون مع أحمد الأعرج وأمير دبدو المعارضين لمحمد الشيخ[2].

كان أبو حسون على اطلاع على مساعي حاكم وهران فقرر إحباطها بالاتصال المباشر مع الحكومة الإسبانية[3]. انتقل أبو حسون في صيف سنة ١٥٤٩ إلى إسبانيا وقابل مكسيميليان في فالاد وليد ليطالبه بإمداده بألف جندي إسباني كان ملك البرتغال قد اشترط حصوله عليهم لتسليمه اصيلا، ولكن مكسيميليان تهرب من تلبية الطلب. لم ييأس أبو حسون وقرر السفر إلى ألمانيا للقاء الأمبراطور شارلكان، ولكنه أصيب بخيبة أمل جديدة فقد كان شارلكان غارقاً في مشكلات

---

(١) Coissac de Chavrebière : Histoire du Maroc P. 293.

(٢) Coissac de Chavrebière : P. 293.

(٣) Coissac de Chavrebière : P. 293.

أوربا[١] . عاد أبو حسون إلى لشبونة، وفي هذه الأثناء طرأت ظروف جديدة لصالح أبي حسون فقد كثرت الاضطرابات في المغرب من جراء سياسة محمد الشيخ الضريبية، وزاد قلق البرتغاليين من تدفق الأسلحة الحديثة على محمد الشيخ بوساطة التجار الفرنسيين والإنجليز، مما دفعهم إلى تقليص مناطق احتلالهم وإخلاء أصيلا والقصر الصغير[٢] ، ووصلت رسائل عديدة من فاس ومن أنصار الوطاسيين إلى أبي حسون تحثه على العودة شجع كل ذلك البرتغال على تقديم مساعدة محدودة تقتصر على كمية من المال وست سفن وخمسمائة جندي[٣] .

استقل أبو حسون السفن إلى الحسيمه، ولكن الأسطول الجزائري فاجأه في مياه باديس واقتاده ومن معه أسيراً إلى الجزائر. نجح أبو حسون في التفاهم مع صالح ريس بلربي الجزائر، وفي سنة ١٥٥٣ توجهت حملة تركية بصحبة أبي حسون. نجحت الحملة في طرد محمد الشيخ من فاس. استقبل الفاسيون أبا حسون بحماس، ولكن الأتراك تصرفوا وكأنهم في بلد محتل. يقول مؤرخ مجهول: «ولما رأى الترك محاسن البلاد ومنعتها وأعجبتهم وأخذوا من المدينة ما أرادوا، يقبضون على النسوان والصبيان وينهبوا ما شاءوا من الأموال... فلما اجتمعوا بفاس الجديد ادعوا لأنفسهم وقبضوا على السلطان أبي حسون المريني وقبضوا على خاصته..»[٤] . أثارت هذه الأعمال ثائرة أهل فاس فهبوا لحمل السلاح وحاصروا الأتراك في فاس الجديدة. اضطر الأتراك إلى إعادة أبي حسون الذي عمل على الفور على إجلاء الأتراك عن فاس مقابل مبلغ من المال كما تخلى لهم عن كنوز مولاي محمد الشيخ وعن ميناء بنون دوفيليز الذي عين يحيى ريس حاكماً له فصال وجال وتحكم بمنطقة المضيق حتى لقب «سيد المضيق»[٥] .

---

(١) Coissac de Chavrebière : P. 293-294.

(٢) Coissac de Chavrebière : P. 297.

(٣) Coissac De Chavrebière : P. 298.

(٤) مؤلف مجهول ، ص ١٩.

(٥) Coissac De Chavrebière : P. 299.

بعد خروج الأتراك كان أبو حسون يفتقر إلى المال عصب الحرب والرجال وعدة الحرب. تحالف مع أحمد الأعرج الذي استأنف الصراع مع أخيه مستغلاً نقمة القبائل في الجنوب والجبل ضد سياسة محمد الشيخ المالية. نجح محمد الشيخ بالفصل بين الحليفين بالمكر والخديعة وتغلب على أخيه وأسره. ثم هزم أبا حسون وقتله واسترد فاس سنة ١٥٥٤. غير محمد الشيخ سياسته إزاء أهل فاس فاستخدم الشدة والبطش بأنصار الوطاسيين، وأبعد الكثيرين من أهل فاس وفرض غرامة على من بقي فيها من أهلها لأنه عد الفاسيين مسؤولين عن نهب كنوزه حين طرده الأتراك من فاس. وانتزع الخيل والسلاح من القبائل التي غدرت به وانضمت إلى خصمه، واسقطها من الجندية، وضرب عليها المغارم، ونقل أعيانها وشيوخها إلى مراكش وأسكنهم بها وأهملهم ولم يرتب لهم شيئاً.

لم يرغب محمد الشيخ الذي تلقب بأمير المؤمنين لأول مرة في فاس وتلقب بالمهدي، أن يبقى في فاس لأنه لم يشعر بالارتياح فيها ولأنه لم يستطع أن ينسى الاستقبال الحماسي الذي استقبلت به فاس أبا حسون حين عاد سنة ١٥٥٣. كما أن فاس كانت مدينة حضرية أكثر مما كان يتحمله طبعه الصحراوي، كما كان يرى أن فاس معرضة لهجمات الأتراك ولهم فيها مؤيدون ومتعاطفون. فقرر العودة إلى مراكش عاصمة الجنوب والدول التي انطلقت من الجنوب، وجعل منها عاصمته المفضلة حيث استمرت كذلك في عهد خلفائه.

سياسة محمد الشيخ الخارجية والداخلية :

لم يكن محمد الشيخ مؤسساً للدولة فحسب بل كان المسؤول الأول عن رسم الخطوط العامة لسياستها الخارجية والداخلية، تلك السياسة المغايرة للأسس الأولى التي كان لها الفضل في صعود السعديين وانتصارهم، مما خلق للدولة السعدية متاعب خطيرة، وكانت أحد عوامل انهيارها.

وترتكز سياسة محمد الشيخ الخارجية وسياسة خلفائه من بعده على الخوف من الأتراك وكرههم ومعاداتهم، وقد دفعه هذا، بالإضافة إلى شعوره بضعفه

العسكري إزاء قوة الأتراك النظمية الحديثة إلى السعي للتحالف مع الإسبان أعداء الأتراك الألداء.

وبالرغم من أن الطابع الديني كان يلعب دوراً في سياسة الحكومتين السعدية والإسبانية فإن العداء المشترك للأتراك وما يمكن أن نسميه المصلحة القومية دفع الطرفين إلى تناسي العداء الديني وإلى التحالف الواقعي.

ويعود الصراع التركي السعدي إلى مرحلة الصراع الوطاسي السعدي، حين أعلن الوطاسيون ولاءهم للترك ورغب هؤلاء أن يحصلوا من السعديين على مثل هذا الولاء ليتم الأمر في المغرب على نحو ما تم لهم في الجزائر مما يعزز موقفهم في الصراع مع الإسبان، وجرى أكثر من اتصال. كان موقف محمد الشيخ متصلباً وقد رفض بشدة وأظهر احتقاراً «لسلطان الحواتة»[1] . أي السلطان العثماني.

ولا شك أن الصدام المبكر في غرب الجزائر ومساعدة الأتراك لأبي حسون في استرداد فاس عمق العداء بين الطرفين. ولعل إعلان محمد الشيخ نفسه خليفة وتلقبه بالمهدي وأمير المؤمنين كان لوضع حد لأي مزاعم عثمانية. ولمجابهة الخطر التركي اتجه محمد الشيخ إلى التفاهم مع الإسبان، وكان هذا بمثابة تخل عن سياسته الدينية التي قامت عليها دولته ومباشرة لسياسة أسرية.

عرض محمد الشيخ على الإسبان مشروع طرد الأتراك من شمال إفريقيا - لعل في هذا محاولة من السعديين لإحياء تقاليد الدول التي سبقتهم في محاولة بسط سيطرتهم على شمال إفريقيا - ودارت المفاوضات حول إرسال حملة على مدينة الجزائر وتدميرها[2] ، لكن الأتراك شعروا بالخطر فسارع صالح ريس بلربي الجزائر

---

(١) يذكر اليفرني أن محمد الشيخ كان لا يسمي «سلطان العثامنة إلا سلطان الحواتة لأن الغالب على هؤلاء الأتراك السفر في السفاين» . النزهة ، ص ٤٢.

(٢) H. Terrasse : Ibid. P. 171.

ويذكر اليفرني أن محمد الشيخ لما تغلب «على المغرب ودانت له حواضره وبواديه تاقت همته العليا إلى بلاد المشرق فكان يقول لا بد لي أن أذهب إلى مصر وأخرج منها الأتراك من أجحارهم وأنازلهم في ديارهم..». ص ٤٢.

احتلال بجاية وطلب من استنبول مساعدات مالية وعسكرية ليهاجم وهران ولكن صالح ريس توفي واستدعت الدولة العثمانية القوات التي أرسلتها إلى الجزائر لمجابهة خطر هجوم بحري في البوسفور وبقيادة أندريه دوريا. تلا ذلك قيام اضطرابات في الجزائر استمرت حتى تعيين حسن باشا بن خير الدين ١٥٥٧ حدت من نشاط الأتراك. لم يتحقق التنسيق بين جهود الحلفاء السعديين والإسبان فقد هاجم السلطان السعدي تلمسان، وبالرغم من استيلائه على المدينة فقد قاومت الحامية التركية في المشور. ولما طلب محمد الشيخ من الإسبان إمداده بالمدفعية لم يردوا عليه بسبب غياب حاكم وهران[1] .

عمد حسن باشا إلى التخلص من محمد الشيخ بالخديعة وكلف واحداً من خيرة ضباط «صلاح كاهيا» بتدبير اغتيال محمد الشيخ. تظاهر صلاح أنه هارب من الجيش التركي ولجأ إلى محمد الشيخ فرحب به وضمه إلى صفوف القوة التركية التي كانت تعمل في صفوف الجيش الوطاسي وقبلت الانضواء تحت لواء محمد الشيخ بعد انتصاره على الوطاسيين. ونجح صلاح كاهيا باغتيال محمد الشيخ سنة ١٥٥٧.

وتلتقي سياسة محمد الشيخ المالية التي تابعها خلفاؤه من بعده في تأثيراتها السلبية مع سياسته الخارجية. بالرغم أن السعديين استعادوا الإشراف على تجارة القوافل الإفريقية ونجحوا في تحويلها نحو توات التي استولوا عليها سنة ١٥٢٦ وتافللت وتارودانت وأعادوا بذلك للمغرب عامة وللجنوب المغربي خاصة نشاطه الاقتصادي الذي أصيب بضربة قاصمة، بالرغم من هذا فإن سياستهم الضرائبية كانت كارثة. كان السعديون بحاجة إلى إيجاد جيش يعتمدون عليه لأنه لم يكن لديهم سند قبلي ثابت يعتمدون عليه ولإيجاد هذا الجيش كان لا بد لهم من المال. يقول اليفرني أن محمد الشيخ اضطر «إلى الاكثار من الأجناد لمقاومة الأعداء والذب عن الدين وحماية ثغور المسلمين فدعى تضاعف الأجناد إلى تضاعف

(١) H. Terrasse : Ibid. P. 171.

العطاء، وتضاعف العطاء إلى تضاعف الخراج، وتضاعف الخراج إلى الإجحاف بالرعية..»[1] .

كان قسم كبير من البلاد أيام المرينيين المتأخرين والوطاسيين معفياً من الضرائب أو ممتنعاً عن دفعها. وقد سعى السعديون إلى إلغاء الإعفاءات وإجبار الممتنعين عن دفع الضرائب على دفعها «ومحمد الشيخ أول من استخرج الضريبة المسماة على لسان العامة بالنايبه وفرض على الناس المغارم والمطالب وكان لا ينزه عنها أحد»[2] .

وكانت ضريبة الخراج مفروضة على السهول التي كانت تعدّ أراضي فتح في حين امتنع سكان الجبال عن دفعها بحجة أنهم اعتنقوا الإسلام بمحض إرادتهم وأصروا على الامتناع عن دفع هذه الضريبة. واستصدر محمد الشيخ فتوى تقضي أن يدفع سكان الجبال الذين لا يستطيعون إثبات مزاعمهم. كما أكره محمد الشيخ المرابطين على دفع هذه الضريبة . وقد أدت هذه السياسة إلى ثورات القبائل في الجنوب والجبال وإلى تصدع العلاقات مع القوى المرابطية التي كانت تشكل قوة دعم أساسية للسعديين. وقد استخدم محمد الشيخ القوة والقسوة مع معارضيه من زعماء القبائل والمرابطين، وقد شمل هذا الاضطهاد عدداً من الشخصيات البارزة. كما طالب محمد الشيخ أصحاب الزوايا برد الودائع التي تلقوها من بني مرين[3] . وهكذا نسف السعديون القاعدة الثانية التي قاموا على أساسها ونعني بذلك القاعدة المرابطية بعد أن نسفوا قاعدة الجهاد.

مولاي عبد الله الغالب بالله (١٥٥٧-١٥٧٤):

كان عبد الله في حياة والده حاكماً على فاس وحين قتل الأتراك والده بويع دون أن يلقى مصاعب وتلقب بـ «الغالب بالله» . انتقل مولاي عبد الله من فاس

---

(١) اليفرني : النزهة ص ٣٩.

(٢) اليفرني : النزهة ص ٣٨.

(٣) اليفرني : النزهة ص ٤١.

إلى مراكش لأن أنصار الترك كانوا كثيرين في فاس[1] . كان مولاي عبد الله قاسياً إزاء أسرته قتل بعضهم وهرب ثلاثة من أخوته (عبد المالك وأحمد وعبد المؤمن) إلى الجزائر، ومنح ولاية العهد لابنه محمد[2] .

تابع عبد الله الغالب سياسة والده الخارجية والداخلية، بدأ عهده بصد هجوم تركي شنه الأتراك بتحريض أمير دبدو اللاجئ إليهم، ونجح بإلحاق الهزيمة بالأتراك سنة ١٥٥٨. وقد حاول حاكم وهران الكونت دالكوديت استغلال هزيمة الأتراك هذه فهاجم الأتراك في مستغانم معتمداً فيما يبدو على استمرار التحالف المغربي الإسباني. ولكن الغالب لم يتدخل وفشل الهجوم الإسباني فشلاً ذريعاً سنة ١٥٥٨.

وفي سنة ١٥٦٠ استغل الغالب بالله الصراع بين الأتراك وزعماء القبائل من بني عباس الذين كانوا حلفاء الإسبان، تعاون الغالب مع الإسبان فجاء أسطول إسباني إلى المياه الجزائرية في حين استولى السعديون على تلمسان. ولكن الأسطول الجزائري هزم الأسطول الإسباني فسارع السعديون إلى الانسحاب من تلمسان. كان الأتراك يحتلون حجر باديس استخدمتها البحرية الجزائرية قاعدة ضد السفن الإسبانية والبرتغالية وقد أشار السفير الفرنسي في مدريد في رسالة إلى الملك شارل التاسع إلى أهمية الجزيرة وموقعها الاستراتيجي سواء أكان ذلك بالنسبة لساحل المغرب الشمالي أم بالنسبة للسواحل الإسبانية. وتطرق إلى الأعمال التي كان يقوم بها يحي ريس الذي عينه بلربي الجزائر حسن باشا حاكماً عليها. لقب يحي ريس بسيد المضيق فقد كان يتحكم بالمرور في مضيق جبل طارق كما كان يهدد

---

(١) H. Terrasse : Ibid, P. 181.

(٢) ربما كان سبب الخلاف بين مولاي عبد الله وإخوته ما جاء في رسالته لعلماء المغرب جواباً على محمد المتوكل جاء فيها أن هناك تقليداً وضعه جد السعديين القائم بأمر الله ألا يتولى من أولاده إلا الأكبر ولكن عبد الله خالف القاعدة فعهد بولاية العهد لابنه محمد بدلاً من أحد أخوته. انظر اليفرني ص ٦٦ في رسالة رد للعلماء على محمد المتوكل.

السواحل الإسبانية[1] . كان الغالب بالله يتخوف من استخدام الأتراك باديس كقاعدة للهجوم على المغرب، فاتفق مع ملك إسبانيا على إعطائه حجر باديس وإخلائها من المسلمين «فتنقطع مادة الترك من المغرب ولا يجدوا سبيلاً إليه»[2] . وكان قرصان مغاربة يعملون ضد الإسبان في ريو مارتان قرب تطون يدعمهم أمير شفشاون الذي كان مستقلاً. تعاون الغالب مع الإسبان: هاجم الإسبان ريومارتان وأغرقوا قوارب مليئة بالحجارة في الميناء وفي الوقت نفسه حاصر السعديون شفشاون واستولوا عليها.

ويتهم المؤرخ المجهول الغالب با لله بالغدر بثوار الأندلس ١٥٦٨ إذ وعدهم بالمساعدة إذا ثاروا فلما أعلنوا الثورة تخلى عنهم واتفق مع الإسبان أن يخرجوا الأندلسيين إلى المغرب. وكان قصده بذلك «تعمير سواحله ويكون له منهم بمدينتي فاس ومراكش جيش عظيم بنتفع به في مصالح ملكه»[3] .

نشطت أيام الغالب با لله التجارة مع فرنسا وإنجلترا، وكان التجار الفرنسيون والإنجليز يجنون مرابح ضخمة. وقد جرت محاولة قام بها الفرنسي أنطوان دوبوربون بموافقة سرية من ملك فرنسا تهدف إلى تقديم قوة فرنسية مجهزة باسلحة نارية للغالب با لله مقابل تسليم القصر الصغير الذي كان يفكر بإعطائه لإسبانيا مقابل نافار ما وراء البيرنيه ولكن ملك إسبانيا فيليب الثاني رفض المشروع[4] .

بدأت العلاقات الإنجليزية المغربية في وقت مبكر بمبادرة من تجار إنجليز كانوا يتحدون الاحتكار البرتغالي للتجارة في هذه المناطق. وقد جلب هؤلاء الأسلحة والذخيرة التي ساعدت السعديين على تحرير موانئ الجنوب المحتلة، وقد شجع

---

(١) د. عبد الكريم كريم: المغرب في عهد الدولة السعدية. ص ٩٠.

(٢) اليفرني : النزهة ص ٤٩.

(٣) مؤرخ مجهول : ص ٣٨.

(٤) H. Terrasse : Ibid. P. 181.

السعديون منذ بداية تحركهم التجار الأوربيين على كسر الاحتكار البرتغالي وتوسعت هذه التجارة بعد تحرير أغادير واتسحاب البرتغاليين من آسفي وآزمور. وقد قامت أول رحلة إنجليزية معروفة إلى المغرب سنة ١٥٥١ اشتركت فيها سفينتان بقيادة توماس ويندهام، وقامت رحلة ثانية سنة ١٥٥٣ اشتركت فيها ثلاث سفن بقيادة ويندهام أيضاً وقد مول عدد من تجار لندن هاتين الرحلتين. كان هذا التعامل التجاري مربحاً للطرفين فقد كان السلاطين يرغبون الحصول على السلاح والذخيرة كما كان التجار المغاربة يرغبون الحصول على الأقمشة الإنجليزية التي يتزايد الطلب عليها يوماً بعد يوم. وقد اهتم الإنجليز بنترات البوتاسيوم المغربية لما تمتاز به من نوعية متفوقة، كذلك اهتموا بالسكر الذي تزايد الطلب عليه في أوربا في القرن السادس عشر. وكان السلاطين السعديون قد توسعوا في زراعة قصب السكر[1] .

محمد المتوكل (١٥٧٤-١٥٧٦):

مدحه المؤرخ المجهول: «أعطى العطاء الجزيل للفقهاء والفضلاء والمساكين والضعفاء.. وتفقد أحوال الرعية وعدل في أحكامه بين الناس بالسوية، وكان متيقظاً في أحواله متأنياً في أفعاله منزهاً في أقواله، وما علم أنه زنى ولا شرب خمراً ولا مسكراً غيره قط. وأكثر حركاته وجميع سغيه محمود ولا شيئاً فيه مذموم سوى إتيانه بالنصارى لوادي المخازن»[2] .

بينما يذكر اليفرني في النزهة أن «بعضهم يصفه أنه كان متكبراً غير مبالٍ بأحد ولا متوقفاً في الدماء شديد العسف على الرعية...»[3] . لم يطل به الأمر فقد نجح عماه عبد الملك وأحمد في الحصول على عون تركي بعد أن شاركا الأتراك في

---

(١) ب. ج. روجرز : تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية حتى عام ١٩٠٠ ، ص ٣٩-٤٠.

(٢) مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص ٤٠-٤١، والمؤرخ معروف بالافراط في ذم السعديين.

(٣) اليفرني : مصدر سابق ص ٦٢.

معركة تحرير تونس من الإسبان سنة ١٥٧٤[١] . وكان العلج علي يرغب أن يستغل وجود قوات عثمانية كبيرة للعمل في المغرب، على أن يعمل الأتراك والمغاربة معاً على طرد الإسبان من شمال إفريقيا. وقد نجح عبد الملك بفضل هذا العون من التغلب على ابن أخيه الذي تخلى عنه معظم جيشه وانضموا إلى عمه. ولم يستسلم المتوكل بسهولة بل قاوم بشدة في الجنوب وخاض ضد عميه أربع وعشرين معركة ثم فر إلى الشمال ولجأ إلى البرتغاليين في طنجة.

مولاي عبد الملك (١٥٧٦-١٥٧٨):

كان عبد الملك واسع الأفق استفاد من غربته وقضائه فترة في البلاط العثماني في استانبول فتعلم التركية والإسبانية والإيطالية. وتأثر بنمط الحياة العثمانية عامة وفي الدولة خاصة. كما اكتسب خبرة في المسائل الدولية والسياسية والتجارية. عمد إلى إرضاء الأتراك حتى ضمن خروجهم، وعمد بعد ذلك إلى تشكيل الجيش معتمداً على عناصر من الأتراك والعلوج كانت موجودة في المغرب تولت الإشراف على المدفعية والأسلحة النارية. كما اعتمد على الأندلسيين الذين سارعوا بالانضمام إليه متخلين عن المتوكل لأنهم كانوا يكرهون عبد الله الغالب وابنه المتوكل لخيانته للثورة الأندلسية[٢] . واعتمد كذلك على القبائل العربية التي شكلت العنصر الأساسي في قوة الخيالة.

سار عبد الملك في سياسته الخارجية على السياسة السعدية التقليدية نفسها وهي سياسة المحافظة على التفاهم مع الإسبان ليؤكد بفضل ذلك استقلاله عن الأتراك، وليحول من جهة أخرى دون تقديم مساعدة إسبانية للمتوكل الذي لجأ

---

(١) لجأ عبد الملك وأخواه أحمد وعبد المؤمن إلى تلمسان وذهب عبد الملك مع أمه سحبانة الرحمانية إلى استنبول ثم عاد مع القوة العثمانية التي أرسلت لتحرير تونس وشارك هو وأخوه أحمد في معارك تحرير تونس ونجح عبد الملك في أن يكون أول من يزف البشرى للسلطان العثماني وحصل مقابل ذلك على مواقة السلطان العثماني على مساعدته.

(٢) مؤرخ مجهول : ص ٤٨.

بادئ الأمر إلى طلب مساعدة إسبانيا. ويفسر هذا عدم اهتمام المسؤولين الإسبان بالمتوكل الذي اضطر إلى اللجوء إلى البرتغال[1] .

وتعود صلة عبد الملك بالإسبان إلى أيام المنفى فقد فكر سنة ١٥٧٢ بالذهاب إلى إسبانيا، وكان وهو في استنبول يطلع ملك إسبانيا على كل ما يجري في العاصمة التركية. وحين تولى السلطة في المغرب تابع مفاوضاته مع الإسبان حول مشروع معاهدة عرض فيها أنه لن يستخدم أحداً من الأتراك في إدارته، وأنه لن يهاجم ملك إسبانيا حتى لو طلب السلطان العثماني ذلك، وأن يبلغ ملك إسبانيا عن نوايا السلطان العثماني العدوانية ضد إسبانيا. وأن يتعهد كل من الطرفين المتعاقدين عدم تقديم أي مساعدة للأتراك ضد الطرف الأخرن وأن يتبادل الطرفان عند الحاجة المساعدة ضد الأتراك.

وبالرغم من ذلك اتبع عبد الملك سياسة حذرة مع الأتراك، متجنباً إثارة المتاعب معهم، فقد عمد فور استلامه السلطة إلى دفع مبالغ كبيرة من المال وعدداً من المدافع ثمناً لمساعدتهم وليضمن انسحابهم. ووعدهم عبد الملك بعدم التدخل في تلمسان وبالتخلي عن سياسة التحالف مع إسبانيا كما أنه سمح بالدعاء للسلطان العثماني على منابر المغرب[2] . وفي الوقت الذي كان فيه عبد الملك يفاوض الإسبان كان على اتصال مستمر مع الأتراك يتبادل معهم السفارات سواء أكان ذلك في الجزائر أم في استنبول. إلا أن الأمور لم تستمر طويلاً على هذا النحو ويبدو أن المفاوضات بينه وبين إسبانيا والأتراك لم تسفر عن شيء محدد.

واتصل عبد الملك بكل من فرنسا وإنجلترا وعرض على كل منهما مشروع تحالف. فقد كلف غليوم بيرار الطبيب الفرنسي الذي عالجه في استنبول بسفارة لدى ملك فرنسا هنري الثالث لإبرام حلف بين المغرب وفرنسا ورغم عدم وجود

---

(١) H. Terrasse : Ibid, P. 186.

(٢) مؤرخ مجهول : ص ٥٣. ويرى تراس أنه يمكن الاعتقاد أن هذا لم يستمر بعد جلاء الأتراك. H. Terrasse : Ibid, P. 185.

أي إشارة لإبرام هذا الحلف فإن غليوم بيرار سمي قنصلاً لفرنسا في المغرب[1]. كما تقرب عبد الملك من ملكة أنجلترا إليزابيث، واستدعى التاجرين الإنجليزيين جون ويليامز وجون بامبتون وأكد لهما رغبته في احترام جميع الاتفاقات التي كان ملوك المغرب عقدوها مع الإنجليز وأعرب للتاجرين عن عواطفه وتمنياته نحو ملكة إنجلترا معرباً عن أمله أن تزدهر تجارة المغرب في المستقبل وذلك بأن يقوم التجار الإنجليز بنقل منتوجات البلدان الأوربية إلى الشرق الإسلامي عبر الأراضي المغربية عوضاً عن نقلها عن طريق ألمانيا وإيطاليا. وكان عبد الملك في أمس الحاجة إلى قنابل المدافع في صراعه مع المتوكل. وقد قام التاجر الإنجليزي جون ويليامز الذي كان يعمل وكيلاً لأدمون هوجان أحد كبار تجار لندن ببيع عبد الملك كمية كبيرة من قنابل المدافع مقابل كمية من نترات البوتاسيوم. وتلقى عبد الملك رسالة من الملكة اليزابيث سلمها أدمون هوجان مبعوث الملكة. ذكر هوجان أن عبد الملك أبدى رغبته بالتعاون مع إنجلترا وأنه لا يميل للملك الإسباني فيليب الثاني لأنه يراه واقعاً تحت تأثير البابا ومحاكم التفتيش، وأبدى استعداده لمنح التجار الإنجليز تسهيلات واسعة. ووعد عبد الملك بإرسال سفير لعقد معاهدة تحالف مع ملكة إنجلترا. وقد ردت الملكة تشكر عبد الملك على استعداده لمنح التجار الإنجليز تلك التسهيلات وطلبت منه أن يبقي خبر زيارة المبعوث المغربي طي الكتمان[2]. ويبدو أن عبد الملك لم يكن مطمئناً للإسبان وربما كان على إطلاع على محاولات ملك البرتغال مع ملك إسبانيا للقيام بعمل مشترك ضد المغرب وبخاصة اجتماع الملكين في غوادلوب سنة ١٥٧٧، فقام بهذه المحاولات مستغلاً الصراع بين فيليب الثاني وإليزابيث.

معركة وادي المخازن ١٥٧٨ :

كانت السياسة البرتغالية في عهد جان الثالث ١٥٢١ - ١٥٥٧ قد أدارت

(١) د. عبد الكريم كريم: المصدر السابق، ص ١٠٠.

(٢) انظر ب. ج. روجرز : ص ٤٢-٤٣-٤٤-٤٥.

ظهرها للمغرب وشؤونه وانصرفت لاستغلال البرازيل[1] . حدث تحول في السياسة البرتغالية حين تسلم الدوق سيباستيان العرش ١٥٥٧-١٥٧٨ الذي أولى المسائل المغربية اهتماماً كبيراً. ويعود هذا لتأثير الوسط الذي كان يعيش فيه سيباستيان وهو وسط جزويتي متعصب حاول أن يدخل في نفس سيباستيان أنه بطل الكاثوليكية في صراعها ضد البروتستنتية والإسلام[2] .

كان سيباستيان يحلم بمشاريع توسعية كبيرة في المغرب. وفي سنة ١٥٧٣ حصل بالاتفاق مع فيليب الثاني من البابا على تجديد لمدة خمسة أعوام للمنشور البابوي المسمى «الحرب الصليبية المقدسة» الذي أمن له عائدات وفيرة. حاول سيباستيان إشراك إسبانيا في غزو المغرب وفي سنة ١٥٧٧ اجتمع مع فيليب الثاني في غوادلوب وحصل على وعد بإمداده بـ (١٥) ألف إسباني وخمسين سفينة هذا إذا لم تجبره الظروف على الاحتفاظ بهذه القوات للدفاع عن إيطاليا ضد الأتراك[3] . والواقع أن فيليب الثاني كان قد صرف أنظاره عن إفريقيا و لم يكن متحمساً لمشاريع البرتغال وقد سمحت له ثورة في إقليم الباسك للتنصل من وعده. وسعى فيليب الثاني أكثر من مرة لثني سيباستيان عن عزمه على مهاجمة المغرب وفشل[4] .

ازدادت حماسة سيباستيان لتنفيذ مشروعه حين لجأ إليه المتوكل. أبدى المتوكل استعداده لتقديم تنازلات واسعة وصلت إلى حد التنازل عن كل الساحل المغربي المطل على الأطلسي مع ست فراسخ إلى الداخل وتسليم تطوان والقصر الكبير، وتسهيل التبشير المسيحي في المغرب واعترافه بالتبعية لملك البرتغال وقدم له كسلفة على المعاهدة أصيلا[5] .

---

(١) شارل أندريه جوليان: المصدر السابق ص ٢٧٠.

(٢) شارل أندريه جوليان: المصدر السابق ص ٢٧٠.

(٣) Coissac de Chavrebière : Ibid, P. 310.

(٤) Coissac de Chavrebière : Ibid, P. 310.

(٥) Coissac de Chavrebière : Ibid, P. 312.

ساد في أوساط الرأي العام البرتغالي تياران تيار متطرف متحمس لمشروع الحملة. وآخر معارض وعلى رأسه الكاردينال هنري عم الملك الذي كان لا يثق بالمتوكل ويعتقد أن الشقاق بين المتوكل وعبد الملك شقاق ظاهري وأن عروض المتوكل ليست إلا فخاً يهدف إلى إيقاع ملك البرتغال وجيشه في كمين[1].

كان عبد الملك على علم بالاستعدادات البرتغالية والاتصالات الجارية بين المتوكل وسيباستيان فحاول إيقاف الغزو وإحباط التعاون بين خصميه بالطرق الدبلوماسية، فقدم عرضاً بتوسيع منطقة الاحتلال البرتغالي وتسليم سانتا كروز في رأس غير في الجنوب. لكن هذا العرض لم يلق استجابة فقد كانت استعدادات الحملة قد تمت وتحركت قوات الغزو إلى أصيلا.

كانت الحملة البرتغالية حملة صليبية حقيقية فقد أسهم إلى جانب البرتغاليين إسبان وإيطاليون وألمان وباركها البابا وقدم لها مساعدات مادية ومعنوية وعسكرية.

كان الجيش البرتغالي مزوداً باسلحة نارية حديثة متفوقاً بالمدفعية ضعيفاً بالفرسان. وكان الحماس الديني طاغٍ على المشاركين في الحملة.

ارتكب سيباستيان أخطاء قاتلة :

١ - لم يستمع سيباستيان لنصيحة المتوكل باحتلال تطوان والعرائش كي يستطيع المتوكل حشد قبائل هذه المناطق إلى جانب البرتغاليين.

٢ - كان تحرك البرتغاليين بطيئاً بسبب كثرة العربات ، ووعورة الطرق المغربية مما اعطى السعديين الوقت لإكمال استعداداتهم.

٣ - نجح عبد الملك في استدراجه إلى الداخل مبتعداً عن حماية الأسطول، واتخاذه موقعاً غير ملائم حين اتجه نحو معبر بين نهر اللوكوس وأحد روافده وادي المخازن في منطقة مستنقعات دون أن يأخذ حذره أن مستوى النهر في هذه المنطقة يتغير تغيراً كبيراً في حالة المد.

٤ - اتخذ الجيش البرتغالي وضعاً قتالياً لا يسمح بالمناورة إذ اعتمد نظام

(١) Coissac de Chavrebière : Ibid, P. 311.

المربعات ، وأحاط جناحيه بالعربات وجعل مؤخرته تستند إلى وادي المخازن ومستنقعاته مما يحول دون التراجع.

كان الجيش المغربي يملك مدفعية أقل وفرساناً أكثر واتخذ وضعاً قتالياً ممتازاً فقد انتظم على شكل هلال: الخيالة في الجناحين والمشاة في الوسط تغطيها المدفعية من الخلف، واتخذ مواقع تسهل المناورة والحركة. وكان الحماس الديني والوطني طاغٍ على المحاربين المغاربة. ودمر المغاوير المغاربة الجسور على وادي المخازن ليقطعوا خط الرجوع على البرتغاليين. انتهت المعركة لصالح المغاربة بالرغم من وفاة سلطانهم عبد الملك أثناء المعركة، إذ نجح أخوه أحمد وسائس المحفة السلطانية في إخفاء النبأ حتى انتهت المعركة. وقتل ملك البرتغال وحليفه المتوكل[1]، وغرق معظم الجيش البرتغالي في مياه النهر التي ارتفعت بسبب المد.

نتائج المعركة :

١ - تُعدّ من أهم المعارك في تاريخ المغرب، شبهها المغاربة بمعركة بدر، وقد تركت لأحمد المنصور الذي بويع غداة هذه المعركة رصيداً مادياً ومعنوياً ضخماً جعل منه واحداً من أشهر سلاطين المغرب.

٢ - حطمت البرتغال وتركتها فريسة سهلة أمام فيليب الثاني ملك إسبانيا الذي نجح في ضمها بعد عامين سنة ١٥٨٠.

٣ - بدأ ملوك أوربا ينظرون إلى المغرب كدولة كبرى وصاروا يخطبون وده، ويحسبون له حساباً في خططهم الدبلوماسية.

٤ - أوقف هذا النصر الضخم حملة عثمانية ضد المغرب، أعدها العلج علي بحجة أن عبد الملك نكث في عهوده للعثمانيين، وبدلاً من الحملة ارسل الأتراك وفد تهنئة.

١ - السلطان أحمد منصور (١٥٧٨-١٦٠٣):

بويع غداة معركة وادي المخازن ولقب بالمنصور. استفاد من هذا النصر

---

(١) لهذا السبب سميت هذه المعركة معركة الملوك الثلاثة.

العظيم داخلياً وخارجياً. تمتع المغرب في عهده باستقرار نسبي قلما عرفه بالرغم من قيام بعض الاضطرابات وبخاصة تلك التي أثارها أفراد من أسرته.

كان واسع الثقافة جمع بين الثقافة التقليدية والخبرة بالمسائل العصرية والدبلوماسية والإدارية. قرب العلماء والفقهاء المغاربة ، وصفه العالم أحمد المنجور بأنه «خليفة العلماء وعالم الخلفاء»[1] . واتصل بعلماء مشارقة في مصر والشام[2].

---

(١) فهرس أحمد المنجور ، ص ٩.

(٢) ذكر د. عبد الكريم كريم في كتابه «المغرب في عهد الدولة السعدية» نقلاً عن مصادر معاصرة للمنصور كالفشتالي في مناهل الصفا، وابن القاضي في «المنتقى المقصور» والتمجروتي في «النفحة المسكية» والمقري في «روض الآس» أن المنصور وجه دعاة من علمائه إلى المشرق، وكاتب علماء المشرق، وأن الكثير من عرب المشرق مالت نفوسهم إليه. وقد تمكن هؤلاء الدعاة من استمالة عدد كبير من عرب المشرق إلى حد «أن الكثير من أهل المشرق الذين عليهم العقد والضبط وإليهم الحل والربط حلف لي - أي لابن القاضي - بالأيمان اللازمة المغلظة الجازمة التي لا يمكن نقضها ولا ينكث بعضها أنه لو رأى جارية من جواري مولانا أيده الله أقبلت عليه بالدعاء لطاعته والانقياد إليه في إمارته لكان أول مطيع لها وأهله في لحظة من غير مهلة». وبلغ الأمر بعرب المشرق - كما يقول ابن القاضي - أنهم أصبحوا يفخرون بالمنصور»... وصارت العرب من كل مملكة يفخرون بذلك على الترك بهذا الملك العظيم. وأنهم أخذوا ينتظرون ساعة الخلاص من الحكم التركي على يديه «... فكادت قلوب الناس أن تتفطر شوقاً إليه وودوا لو كانوا عنده ولديه أو يكونوا تحت رايته وألويته ...» ولم يعد عرب المشرق يقرون بشرعية الخلافة العثمانية «لاشتياقهم إلى إمارته العربية العلوية، ولأن العثمانيين من جملة المماليك والموالي الذين دافع الله بهم عن المسلمين وجعلهم حصناً وسوراً للإسلام... وقلدوا الأمر في الحقيقة نيابة وأمانة يؤدونها إلى من هو أحق بها وأهلها، وهم موالينا وسادتنا الشرفاء». كما يقول التمجروتي في «النفحة المسكية» وكذلك المقري في «روض الآس» أن عرب المشرق ازداد تبرمهم بالحكم التركي وزادت رغبتهم في أن تساعدهم الظروف على الانتقال للمغرب «نسأل الله تعالى أن يزعجنا عاجلاً -

كان المنصور إدارياً ممتازاً جمع في مخزنه بين التقاليد المغربية، والتاثيرات التركية يقول الفشتالي «كانت سيرة الخلفاء رضوان الله عليهم من أول الدولة إلى أيام المتوكل عفى الله عنه سيرة مطلقة لم تحفظها قوانين ولا قيدتها ضوابط بل كانت الأمور مسترسلة وجارية على مقتضيات الحال بما كانت الدولة عربية ساذجة غير مرتاضه للقوانين التي تملك زمامها.. إلى أن صار الملك والخلافة للمولى عبد الملك أمير المؤمنين المعتصم رحمه الله فجنح بالدولة إلى السيرة العجمية... وحمل الناس عليها حملاً عنيفاً فشق عليهم ذلك.. ثم جاء الله من مولانا الإمام المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله بالطبيب الماهر والحكيم المدبر الباهر الذي يحيل الصبغة ويؤلف الطباع الشاذة فلم الشعث وجبر الصدع وسكن الهيعة ورتب الألقاب ووافى بحسن سياسته وحميد سيرته وجميل معدلته بين الشاة والديب والضب والنون والعير والبعير وجعل بين العرب والعجم رحمة الخدمة الواصلة وقربى الصداقة الجامعة... فاختص رؤساء العرب وأكابر الدولة بالمشورة والتدبير وقيادة عساكر الخيل اليزنيه واصطفى من العجم موالي أنبتتهم نعمته ودربتهم تربيته فنجبت طوائف عديدة...»[1].

وتميز مخزن المنصور بكثرة عدد الأجانب وقوة نفوذهم وبخاصة الأتراك والعلوج الذين شغلوا مناصب كبيرة في المخزن والجيش، وقد أدى استخدام عدد

= إلى حضرته المقدسة الطاهرة من أدناس الجور والحيف» وأن توفقه العناية الإلهية إلى بسط سلطانه على كل العالم العربي «أيد الله دولته الطيبة الأعراف وملكه من السوس الأقصى إلى أقصى العراق»، وقد صرح أحد علماء مصر البكري بمعاداة الأتراك والإعراب عن رغبته أن يكون الخلاص على يد المنصور .. واعجباً من طلوع الشمس من المغرب أماناً للعالم وحفظاً.. ثم استطار ذكره بين نقطتي الشروق والغروب، وحشرت لدعوته أفئدة الموحدين فكل ينادي البدار البدار.. عترة مولانا أمير المؤمنين وقبلة الموحدين.. فأصبح الإسلام متوجاً بعزه الحي القيوم، ويشرق به تخت الخلافة على الممالك.. يناصرهم من فتاك الأتراك» وردد الشعراء المغاربة الحلم بعودة وحدة الوطن العربي على يديه. انظر د. كريم، ص ١٨٦-١٨٧-١٨٨.

(١) الفشتالي: مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، ص ٢٠٠-٢٠١.

كبير من الأتراك إلى ازدياد التأثير التركي في المخزن والجيش واللباس، وما عدا ذلك ظل المخزن السعدي مخزناً مغربياً تقليدياً.

فرض المنصور مركزية شديدة، وكان متطلعاً على أخبار النواحي بحاثاً عنها، يقرأ ما يرد عليه من رسائل عماله ولا يتأخر بالإجابة وكان يقول كل شيء يقبل التأخير إلا مجاوبة العمال على رسائلهم. وكان له عيون في جميع أنحاء المغرب، وكان شديد الحذر اخترع أشكالاً من الخط على عدد حروف المعجم يكتب فيها مالا يريد الإطلاع عليه من أسراره ومهمات أمره وأخباره «فيصير بذلك الكتاب ملمعاً مستغلقاً فلا يجد المطلع عليه باباً يدخل منه إلى فتح شيء من معاني الكتاب ولا الوصول إلى سر من أسراره .. ثم نوع ذلك الخط إلى أنواع يخص ولي عهده منها بنوع يرجع إليه في فك معمي كتبه. ثم إذا جهز أحداً بالعساكر أو بعثه في غرض رساله أو قلده جانباً من أطراف ممالكه وثغوره، ناوله خطاً من تلك الخطوط يفك به رسائل أمير المؤمنين ويكتب به هو من عنده فيما يريد تعميته من الأخبار وخبايا الأسرار»[1] . وهذا ما يعرف بالشيفرة في أيامنا.

اهتم المنصور بأمور الجيش والأسطول. كان جيشه يتألف من قسمين:

١ - نظامي حديث تتكون عناصره الأساسية من الأتراك والعلوج والأندلسيين ويعتمد على الأسلحة الحديثة المصنوعة محلياً أو المستوردة من أوربا وسمي عسكر النار.

٢ - جيش تقليدي يعتمد على أسلوب التجنيد التقليدي المعروف في المغرب وعلى الأسلحة التقليدية غير النارية ويسمى عسكر الأسنة.

واعتنى المنصور بأمر الأسطول وأوكل أمره إلى واحد من أبرز رجال البحر الريس إبراهيم الشط وجعل مركز قيادة الأسطول في ثغر العرائش.

---

(١) الفشتالي، ص ٢٠٧-٢٠٨.

كان المنصور محباً للعظمة والمظاهر الفخمة، بنى قصر البديع[١] ليخلده ويخلد أسرته وسعى لأن يجعل منه تحفة فنية لا مثيل لها تجمع تقاليد المشرق والمغرب وأوربا الفنية. وحشد له الصناع من كل البلاد وجلب له الرخام من إيطاليا. وقد لاحظ الكاتب الفرنسي المعاصر مونتين أثناء زيارته إيطاليا مقالع مرمر تعمل لحساب ملك المغرب قرب بيزه كان يدفع ثمنه سكراً وزناً بوزن[٢] . ووصف الكتاب والشعراء المغاربة هذا القصر وقالوا أنه فاق كل ما عداه من أوابد سالفة كأهرام القاهرة وغمدان اليمن وزهراء الأندلس وقباب الشام[٣].

واحتفل المنصور بالأعياد الدينية احتفالاً لم يعرف له مثيل من قبل، وعمل على تكوين بلاط وحاشية وحرس لم تكن لسلطان من قبل. واستقبل السفراء والوفود باحتفالات مهيبة وأبهة عجيبة ليرسخ لديهم الانطباع بعظمة السلطان وعظمة المغرب، ويغرس في قلوبهم وقلوب دولهم المهابة التي كان بحاجة إليها ليكسب ودهم ويتقي شرهم. وحرص على المظاهر الفخمة في حله وترحاله، فقد كان يتنقل بحاشية ضخمة وحرس كبير، وكانت خيمته أشبه بقصر كبير وكانت خيام من معه تشكل بوفرتها مدينة ضخمة. وكان ذلك ليلقي الهيبة في نفوس القبائل التي كانت تؤخذ بهذه المظاهر. كانت هذه المظاهر باهظة التكاليف تتطلب الكثير من المال. لم يكف المنصور لسد هذه النفقات افتكاك الأسرى وغنائم وادي المخازن الضخمة، وموارد القرصنة الوفيرة، واحتكار بعض الصناعات ولا سيما

---

(١) كان الدافع إلى بناء هذا القصر كما يذكر الفشتالي قول المنصور «ما بعثني على ذلك إلا أني إذا نظرت إلى آثار سلفنا الكريم أجد آثار الموحدين ما زالت تنازعها فضل تنجيز وضخامة واحتفال أربي عليها وآثار بني مرين تجاذبها رداء التأنق وربما شقت في تنميق الحلة وبديع الطراز فأبيت لأهل النبوة أن يكون الفضل والشفوف لآثار من دونهم من الدول على آثارهم فلم ارض إلا بما يضفي على آثار الدولتين..» الفشتالي : ص ٢٥٣.

(٢) Coissac de Chavrebière: P. 319.

(٣) الناصري : الاستقصا، ج٥ ص ١٣٥.

احتكارات السكر[1] والملح، وتنشيط التجارة مع الأجانب، والضرائب التقليدية، فهاجم السودان سنة ١٥٩٠ بالرغم أنه كان بلداً إسلامياً تحكمه حكومة إسلامية وذلك ليستولي على مناجم الذهب الغنية. ومع ذلك لم يكفه ذلك كله فلجأ إلى إرهاق الشعب بزيادة الضرائب والتعسف في جبايتها.

سياسة المنصور الخارجية :

أعطى انتصار وادي المخازن للمغرب وللمنصور هيبة وسمعة دولية استند إليها المنصور في سياسته الخارجية واستفاد منها. ويتجلى ذلك في الوفود التي وفدت على المنصور والهدايا الثمينة التي حملها[2] .

حفل عهد المنصور بنشاط دبلوماسي واسع كان الغرض منه تأمين سلامة المغرب. وبالرغم من اتساع علاقات المنصور الخارجية، وتنوع المشاريع السياسية التي ترددت في اتصالاته هذه، فإنه حرص على الاستفادة منها دون أن يورط المغرب في أية مغامرة خارجية.

كانت الظروف الخارجية مواتية للمنصور فقد كانت أوربا تعيش في فترة صراع دولي بين إسبانيا من جهة وانجلترا وفرنسا والبلاد المنخفضة من جهة أخرى. وقد شلت هذه الحروب نشاط إسبانيا في إفريقيا ودفعتها كما دفعت غيرها من الدول إلى التماس المساعدة المغربية. كما كانت الدولة العثمانية مشغولة في أوربا وفي صراعها مع إيران وفي اضطرابات البلاد العربية، و لم يعد بإمكانها تهديد

---

(١) أنشأ المنصور معاصر سكر في حاحه وشوشاوة. الفشتالي ٢٠٩-٢١٠.

(٢) يذكر اليفرني أن رسول حاكم الجزائر كان أول المهنئين تلاه رسول الوصي على عرش البرتغال «فجاء بهدية عظيمة وضعوها يوم دخلوا فاس على العجلات والكراريط.. ثم رسول فيليب التالي بهدية عظيمة..» وتكلم الناس فيما بين هدية برتقال (برتغال) وهدية صاحب فشتالة أيهما أعظم.. ثم جاء رسول السلطان العثماني يحمل سيفاً محلى بالذهب «لم يرقط مثله مضاء..» وجاء رسول فرنسا. اليفرني ص ٨٢.

المغرب تهديداً جدياً وذلك من جراء تراجع قوتها إثر هزيمتها في معركة ليبانت سنة ١٥٧١، وانتشار الفوضى في ممتلكاتها الإفريقية بعد وفاة العلج علي سنة ١٥٨٧. وفي هذه الظروف كان المنصور في وضع يجعله أكثر حرية في اختيار حلفائه وفق ما تقتضيه ظروفه ومصالحه. وكان يستخدم إسبانيا ضد الأتراك تارة ويستخدم أنجلترا وأسواقها ضد إسبانيا تارة أخرى. وكانت مصلحته أن يداري ويداور الجميع دون أن يتورط بالالتزام مع أحد.

١ - علاقات المنصور مع الأتراك :

أرسل المنصور بعد أن تمت له البيعة رسولاً إلى السلطان العثماني برئاسة أحمد بن يحيى الهوزالي ولسائر ممالك الإسلام المجاورين للمغرب ومنهم صاحب الجزائر يخبرهم بالنصر.

وكان العثمانيون قد أوقفوا الحملة التي كانوا يعدونها لمهاجمة المغرب. ولكن السفير العثماني طالب المنصور تعيين إسماعيل بن عبد الملك المقيم في الجزائر مع أمه التركية حاكماً على فاس. وكان هدف العثمانيين من ذلك إضعاف المنصور وإيجاد عميل موال لهم في شمال المغرب مما يقوي أملهم في بسط نفوذهم على المغرب. ولكن المنصور أهمل السفير ورفض الرد عليه وحين وصل السفير الإسباني طلب منه مغادرة المغرب. توترت العلاقات المغربية العثمانية حين تآمر القادة الأتراك في جيشه منذ إعلان بيعته ونادوا بأحقية أخيه عبد المؤمن سنة ١٥٨٠ وأمه تركية وكان قد نشأ في تلمسان. كما أقنع العلج على السلطان بإعداد حملة لمهاجمة المغرب، وقد علم المنصور بنوايا العلج علي فنجح في تجنب الغزو العثماني بالوسائل الدبلوماسية . وقد تكررت السفارات بين الطرفين، وبالرغم من المجاملات فإن تعالي السلطان العثماني وعدِّ نفسه الخليفة الوحيد، وأن المنصور ليس إلا حاكماً أو أميراً لفاس أو مراكش، وإلحاح العثمانيين على موضوع تسليم إسماعيل بن عبد الملك فاس من جهة ، ورغبة المنصور في تأكيد استقلاله عن الأتراك واعتباره نداً للسلطان العثماني من جهة أخرى، كان يحول دون وصول المفاوضات إلى نتائج

ملموسة. ومع ذلك فإن شعور العثمانيين والمنصور بتزايد الخطر الإسباني بعد ضم البرتغال، وتضايق المنصور من إلحاح الإسبان على تسلم العرائش من المغرب، ومساعي الإنجليز للتقريب بين الطرفين جعلهما يستمران في الاتصالات وتبادل السفارات والهدايا. ففي سنة ١٥٨٠ تلقى المنصور من السلطان العثماني مراد رسالتين يقترح فيهما على المنصور التحالف وأن يقدم السلطان العثماني (٣٠٠) سفينة حربية وقوات عثمانية تشترك مع المغاربة في مهاجمة إسبانيا . كما عرض السلطان العثماني ابنته زوجة للمنصور لتوثيق هذا التحالف.

وأمام إلحاح إسبانيا على المنصور لتسليم العرائش، تملص المنصور بحجة الرجوع إلى السلطان العثماني، وكانت إنجلترا تحث السلطان العثماني على التدخل لدى المنصور للامتناع عن تسليم العرائش للإسبان. كما أبدى العلج علي رغبته للذهاب إلى المغرب مع هدايا ثمينة للسعي لإبعاد مستشاري المنصور الميالين للإسبان. وظل تبادل السفارات في الأطر نفسها. وفي أواخر عهد المنصور تحسنت لهجة السلطان العثماني الذي شغل بالحرب مع النمسا ومشاكل البلاد العربية وتبدل وضع الجزائر بسبب الاضطرابات الداخلية[1] .

علاقات المنصور مع إسبانيا :

تابع الطرفان سياسة بلديهما التقليدية في الإبقاء على الحلف الإسباني المغربي. ساعد ذلك في بداية حكم المنصور نوايا الأتراك بمهاجمة المغرب. إلا أن الفتور بدأ يسود العلاقات المغربية الإسبانية بعد أن تصالح المنصور مع الأتراك وبدأ يسعى لتقوية صلاته بهم. كان ذلك بخاصة بعد أن ضمت إسبانيا البرتغال سنة ١٥٨٠ وورثت بذلك ممتلكاتها في المغرب، وأظهرت رغبتها في الحصول على ميناء العرائش، وآوت إليها الأمير السعدي الناصر أخا المتوكل.

---

(١) بالنسبة للعلاقات المغربية مع الدول يحسن الرجوع إلى المصادر التالية : الفشتالي: مناهل الصفا واليفرني : نزهة الحادي. والمراجع : د. عبد الكريم كريم المغرب في عهد الدولة السعدية. ود. إبراهيم شحاته: أطوار العلاقات المغربية العثمانية. وهنري تراس، وكواساك دوشابر وفيير وغيرهم.

كانت قضية العرائش من القضايا الشائكة، و لم يكن موضوعها يقتصر على إسبانيا والمغرب، بل كانت إنجلترا شديدة الاهتمام بالحصول على ميناء مغربي أو تسهيلات في أحد موانئ المغرب لاستخدامه في صراعها مع الإسبان، وتهديد السفن الحربية والتجارية وزوارق الصيد الإسبانية. كان اهتمام إنجلترا منصباً على العرائش ليس فقط بسبب موقعه المهم وصلاحيته بل لتحبط المشروع الإسباني كذلك، ثم تحولت بعد ذلك نحو موغادور. كما كان لفرنسا تطلعات مماثلة ، أو على الأقل كانت مهتمة بإحباط المشروع الإسباني حول العرائش. كان فيليب الثاني شديد الاهتمام بالحصول على العرائش، ليقضي بذلك على مطامع الانجليز في هذا الميناء وكي يؤمن لأساطيله القادمة من أميركا ملجأ ومرسى دون أن يكون بحاجة لخدمات البرتغال. وكان يصرح علناً أن العرائش تساوي وحدها بالنسبة له كل إفريقيا[1] . وبالرغم أن فيليب الثاني قد حصل بعد ضم البرتغال على سبتة وطنجة ومازاغان، فقد ظل متمسكاً بالعرائش، لأنه كان يرى أن مازاغان بعيدة جداً وهي محرومة من أي مجال خارج المدينة، كما يصعب تموينها والدفاع عنها، وكان موقعها سيئاً بالنسبة للسفن القادمة من أميركا. في حين أنه كان يرى أن العرائش تقع على مسافة يوم من قادش وميناؤها آمن وعميق قادر على حماية السفن اللاجئة إليه. كما أن العرائش كانت تشكل منفذاً مباشراً إلى مكناسة وفاس عبر مناطق خصبة وقبائل مسالمة نسبياً. كما أن احتلالها يضع حداً لدسائس الدول الأخرى الطامعة بها[2] .

وفي سنة ١٥٨١ أحرز فيليب تقدماً في مسألة العرائش، فقد وضع المفاوضون المغاربة والإسبان مشروع اتفاق وقعوه بالأحرف الأولى يقضي بتسليم العرائش لإسبانيا. لم يصادق المنصور على المعاهدة ولجأ إلى المماطلة. ويبدو أن المساعي العثمانية والإنجليزية شجعت المنصور . وفي بداية سنة ١٥٨٢ قرر فيليب الثاني إنهاء مسألة العرائش وطالب تحديد وقت لتسليمها على أن يكون في صيف هذا العام، وأمر مبعوثه المكوث في أصيلا انتظاراً لجواب المنصور. وخلال هذه المماطلة كانت الأموال والهدايا تتدفق على المنصور دون جدوى، حتى أن سفير توسكانا فسر الموضوع على أنه ابتزاز وأن المغاربة يسخرون من الإسبان[3] .

(١) Coissac de Chavrebière : P. 336.

(٢) Coissac de Chavrebière : P. 336.

(٣) Coissac de Chavrebière : P. 338.

وفي سنة ١٥٨٩ اقتنع ملك إسبانيا بسوء نية المنصور بعد أن رآه يقدم على تحصين العرائش بمساعدة إنجلترا. ويبدو أن المنصور بات خلال هذه الفترة ميالاً للتفاهم مع الإنجليز دون أن يقطع الجسور بينه وبين الإسبان. وكان على اطلاع على توتر العلاقات الإنجليزية الإسبانية، وظهور بوادر تشير إلى قرب صدام كبير بينهما. وكان يأمل أن يستفيد من هذا الصراع باستعادة الممتلكات البرتغالية في المغرب دون جهد. أظهر المنصور خلال هذه الفترة حنكة بالغة، فقد لوح للإنجليز بإمكان مساعدة الدون أنطونيو لاستعادة عرشه في البرتغال، واكتفى بتهديد سبته. ومقابل ذلك حصل من فيليب الثاني على ميناء أصيلا سنة ١٥٨٩ كثمن لحياده. لجأ المنصور بعد حصوله على أصيلا إلى مماطلة الإنجليز متذرعاً بحجة انشغاله بحملة السودان ١٥٩١-١٥٩٣.

وفي سنة ١٥٩٥ حدث تبدل عنيف بالموقف فقد دفع الإسبان الناصر إلى الذهاب إلى المغرب وقدموا له المساعدة للثورة على المنصور. وقد شكلت هذه الثورة تهديداً خطيراً للمنصور، وبذل جهداً كبيراً حتى تمكن من القضاء على ثورة الناصر، وعدّ انتصاره على الناصر انتصاراً على إسبانيا وكان واثقاً من تحريضها الناصر وتقديم المساعدة له، ولهذا أمر بإلقاء القبض على السفير الإسباني في مراكش وأمر بملاحقة الإسبان الموجودين في المغرب[1] . وحين تم له القضاء على الناصر كاتب بعض الشخصيات البارزة في العالم الإسلامي[2] . جاء في إحداها «... إن عدو الدين طاغية فشتالة الذي هو اليوم العدو الأكبر للإسلام وعميد ملل التثليث وعبدة الأصنام لما أنس من تلقاء جنابنا العالي نار العزم تلتهب التهاباً وبحر الاحتفال تضطرب أمواجه الزاخرة بكل عدد وعدة اضطراباً وهممنا الشريفة قد همت بتجديد الأسطول والاستكثار من المراكب المتكلفة للجهاد.. وعلم أن

---

(١) د. كريم : المصدر السابق ص ١٩٨.

(٢) منهم قاضي قضاة المالكية في مصر الشيخ بدر الدين القرافي والشيخ زين العابدين بن الشيخ القدوة محمد بن أبي الحسن البكري الصديقي الفشتالي. ص١٨٨.

الحديث إليه يساق وإلى أرضه بالخسف والتدبير بحول ا لله بهفو كل لواء خفاق رام خذله ا لله مكافأتنا على ذلك.. فرمى بمخذول من أبناء أخينـا عبد ا لله كـان ربـي لديه منذ ثمانية عشر عاماً إلى مليله... وقدمنا إليكم التعريـف لتمدونـا إن شـاء ا لله بأدعيتكم الصالحة أوقات الإجابة ومعونة أسباب فتح الأندلس وتجديد رسوم الإيمان بها...»[1] .

وزاد في سخط المنصور على فيليب الثاني تخطيطه لاحتلال جزيـرة أرجويـن والشاطئ الصحـراوي المواجـه لها لتحويـل ذهـب السـودان إليهـا، دفـع هـذا كلـه المنصور إلى السعي لعقد حلف مع ملكة إنجلترا إليزابيث وملك فرنسا هـنري الرابـع مع احتمال انضمام هولندا، وتردد الحديـث حـول مشـاريع مشـتركة ضـد إسـبانيا واقتسام ممتلكاتها. إلا أن الأمور وقفت عند هذا الحد فقد جـدت ظـروف شـغلت المسؤولين في المغرب والدول الأوربية المعنية في ميادين أخرى.

٢ – علاقات المنصور مع إنجلترا :

يوافق عهد المنصور عهد ملكة إنجلترا إليزابيث وهو العهد الـذي بـدأت منـه إنجلترا نشاطها التجاري والبحري والاستعماري علـى نطـاق واسـع، ودخلـت فيـه السياسة العالميـة كقـوة لها وزنهـا. كـانت إلـيزابيث تـتزعم المعسـكر البروتسـتانتي المعادي للمعسكر الكاثوليكي الذي يتزعمه فيليـب الثـاني. وقـد اشـتد الصـراع في الثمانينات وأخذ طابعاً مصيريـاً وظهـرت في كـل مـن المعسـكرين اتجاهـات لحسـم الصراع. فقد هيأ فيليب الثاني قـوات ضخمـة لغـزو إنجلـترا سنة ١٥٨٨ وبالمقـابل كانت إنجلترا تسعى لتحرير البرتغال من إسـبانيا وتنصيـب أمـير مـوالٍ لهـا كخطـوة أولى نحو ضرب إسبانيا في عقر دارها. وكان المغرب مهمـاً للطرفـين ولذلـك سـعى كل منهما لكسب المغرب إلى صفه أو على الأقل لإبعاده عن الطرف الآخر.

كـان اهتمـام إلـيزابيث بـالمغرب يشـمل المصـالح التجاريـة والسياسـية في آن واحـد. فمنـذ أن تسـلم المنصـور السـلطة في المغـرب كتبـت إليـه إلـيزابيث تسـأله

---

(١) الفشتالي: ص ٩٠.

الاستمرار في معاملة التجار الإنجليز معاملة حسنة. وقد تجاوب المنصور معها فأكد لها أن تجارها سوف يلقون الاستقبال الودي نفسه الذي كانوا يلقونه من قبل[1].
وكان المنصور في سعيه لتطوير اسطوله بحاجة إلى أصناف جيدة من الأخشاب المتوفرة في انجلترا. ورغم أن اليزابيت كانت حريصة على الاحتفاظ بهذه الأصناف من الأخشاب لبناء أسطولها فإنها تجاوبت مع طلب المنصور ووافقت على تصدير كمية كبيرة من هذه الأخشاب مقابل نترات البوتاسيوم المغربية الممتازة التي كان المنصور يقيد تصديرها. وفي تلك الفترة تشكلت في إنجلترا «شركة بلاد البربر» لاحتكار تجارة المغرب لمدة اثني عشر سنة ١٥٨٥ ، وكان كبار تجار لندن قد تقدموا مرتين من قبل ١٥٦٧ و ١٥٧٤ بطلب تأسيس هذه الشركة ولكن إليزابيت لم توافق على طلبهم. كان أول قرارات هذه الشركة إرسال وكيل لها إلى المغرب «هنري روبرنس». رحب المنصور بهذا الوكيل الذي كان يقوم ، إضافة إلى عمله كممثل لهذه الشركة، بدور الوسيط بين العاهلين الإنجليزي والمغربي[2].

والتقت مصلحة الطرفين السياسية في تحرير البرتغال وتنصيب أمير موال لإنجلترا «الدون أنطونيو» الذي لجأ إلى إنجلترا وتبنت إليزابيث قضيته. وتمثل محاولات إليزابيث جر المنصور لتقديم عون مادي وعسكري للدون أنطونيو، ومراوغات المنصور محور العلاقات التي دارت بين الطرفين حتى وفاة الدون أنطونيو سنة ١٥٩٥. كما شغلت قضية العرائش جزءاً مهماً من هذه العلاقات، فقد كانت إنجلترا شديدة الاهتمام بالحصول على ميناء مغربي أو تسهيلات في أحد موانئ المغرب لاستخدامه في صراعها مع الإسبان. وكان اهتمام إنجلترا في بادئ الأمر منصباً على ميناء العرائش ليس فقط بسبب موقعه المهم وصلاحيته، بل لتحبط المشروع الإسباني. ونظراً لحساسية مسألة العرائش تخلت أنجلترا عنها وتحولت أنظارها نحو موغادور – الصويره –. وقد كتب روجر بودنهام في مذكراته ١٥٧٩

---

(١) ب. ج. روجرز: ص ٤٥.

(٢) ب. ج. روجرز : ص ٤٨.

«بوساطة موغادور نستطيع ضرب أسطول إسبانيا الأمريكي والسفن التجارية وزوارق الصيد الإسبانية دون الخوف من سفنها الحربية ومن إرهاب ملك إسبانيا»[1]. شجعت انجلترا المنصور على رفض الطلب الإسباني وأغرقته بالسلاح وساعدته في تحصين العرائش ونجحت في إحباط محاولة فيليب الثاني .

حاولت إنجلترا جر المنصور لتقديم العون للدون أنطونيو. وقد امتلأت المراسلات بين المنصور واليزابيث بوعود المعونة من كل طرف للطرف الآخر أو للدون أنطونيو غير أن هذه الوعود لم تنفذ نتيجة للضغوط التي مارسها فيليب الثاني على كل من إليزابيث والمنصور من خلال مناوراته تجاههما[2] .

كان المنصور يتمنى تحرير البرتغال والقضاء على فيليب الثاني ومع ذلك فإنه تعامل مع هذه القضية بمنتهى الحذر لأن فيليب الثاني كان يمسك في تلك العملية الدبلوماسية المعقدة بسلاح خطر وهو الناصر شقيق المتوكل. وربما كان رفض فيليب الثاني تسليم المنصور الناصر أحد أسباب رفض المنصور التنازل عن العرائش، ودفعه أكثر فأكثر نحو إليزابيث. كما شجعت هزيمة الأرمادا الاسبانية – التي كانت نهاية التفوق البحري الإسباني وبداية التفوق البحري الإنجليزي – المنصور على إرسال مبعوث مغربي «مرزوق ريس» إلى إنجلترا حمل معه مقترحات سرية لعقد محالفة إنجليزية مغربية ضد إسبانيا تهدف إلى إعادة دون أنطونيو إلى العرش البرتغالي. وقد بين المبعوث المغربي أن السلطان على استعداد لتقديم الرجال والسلاح إذا ما تقدم أسطول إنجليزي إلى جبل طارق وشن هجوماً على إسبانيا. وقدم مرزوق عدداً من المطالب:

١ً – إذا اشتبك السلطان في حرب مع أي من الدول المجاورة غير المسيحية يصرح له بتأجير سفن إنجليزية واستخدام بحارة إنجليز.

---

(١) Caissac De Chavrebière: P. 336

(٢) ب. ج. روجرز : ص ٤٩.

٢ً - التصريح للمغرب بشراء مجازيف لسفنه الشراعية الكبيرة والسماح له باستخدام عدد من بناة السفن الإنجليز لبناء سفن له.

٣ً - تصريح بشراء حاجات المغرب من السلع.

لجأت إليزابيث إلى المراوغة في ردها. فقد أجابت أنها ستبذل جهدها لتلبية طلب المتصور في إطار قوانين وعادات بلادها وفي إطار ما يتفق مع شرف مملكتها وسلامتها. وأشارت في نهاية ردها أنها واثقة أن أسطولها الذي يستعد للقتال ضد إسبانيا سوف يحصل على سائر احتياجاته من الموانئ المغربية، وأنه سوف يتم استقبال الإنجليز استقبالاً ودياً في المغرب[1] .

ووضعت خطة أثناء وجود مرزوق ريس سنة ١٥٨٩ يقوم بمقتضاها أسطول إنجليزي بمعاونة السلطان بغزو البرتغال وتنصيب الدون أنطونيو على عرشها. هاجم الأسطول الإنجليزي البرتغال سنة ١٥٨٩ وأنزل قوات فشلت في احتلال لشبونة وتعرضت لهزيمة قاسية وانسحب من بقي منها. اتهمت إليزابيث المنصور أنه لم يف بوعده، وكان المنصور قد اكتفى بتهديد سبته و لم يقدم للدون أنطونيو المال الموعود. وفي سنة ١٥٩٠ أرسلت إليزابيث إدوارد برين إلى مراكش ليفاوض المنصور على شروط محددة للتحالف ضد إسبانيا. انتظر برين وقتاً طويلاً في مراكش دون أن يحصل على غير الكلمات المعسولة. وقد عزا برين تردد المنصور إلى خوفه من إسبانيا، في حين أن المنصور تعلل في رسالة إلى إليزابيث بالاستعدادات الجارية في المغرب لحملة السودان، ووعد بالاهتمام بمسألة الدون أنطونيو بعد الانتهاء من الحملة. وفي مراسلات سنة ١٥٩١ جدد المنصور استعداده لتقديم العون لقضية الدون أنطونيو. ولكنه كان يجد دوماً المسوغات لعدم تنفيذ وعوده. وانتهت هذه المشكلة بموت الدون أنطونيو، سنة ١٥٩٥[2] . ولكن ثورة الناصر سنة ١٥٩٥ بتشجيع ودعم الإسبان واتخاذ فيليب الثاني جزيرة أرجوين قاعدة

---

(١) ب. ج. روجرز : ص ٥٠.

(٢) ب. ج. روجرز : ص ٥١-٥٢.

لتحويل تجارة إفريقيا نحوها وإبعادها عن المغرب دفعتا المنصور لتعزيز تعاونه مع إنجلترا. قدم المنصور مساعدة للأسطولين الإنجليزي والهولندي اللذين كانا يحاصران قادش، وأرسل رسالة إلى الدون كريستوفر في قادش يعرب فيها عن استعداده التام لإمداده بالقوات المسلحة وبكل ما يطلبه. وهاجمت السفن المغربية جزر كناري، وفتح مواني المغرب أمام السفن الإنجليزية والهولندية التي كانت تهاجم السفن الإسبانية القادمة من أميركا.

وفي مذكرة بعث بها المقيم البرتغالي في المغرب بدرو فيريرا بتاريخ كانون الثاني سنة ١٥٩٧ يذكر فيها أن المنصور تحدث معه غداة احتلال الإنجليز لقادس، وأعرب له عن رغبته في أن يقوم الإنجليز باحتلال جزر آصور لما لها من أهمية استراتيجية على طريق مواصلات إسبانيا مع العالم الجديد. كما ابدى ترحيبه بقيام تعاون عسكري مغربي إنجليزي ضد إسبانيا ، وأبدى استعداده لخوض غمار الحرب إلى جانب إنجلترا وأنه يضع ثروته الطائلة تحت تصرف إليزابيث.

أبدت إنجلترا تجاوباً مع المنصور فطلبت منه تخريب المناطق الزراعية الموجودة حول مراكز الاحتلال الإسباني بالمغرب وأن يفرض عليها حصاراً اقتصادياً شديداً[1] . ولكن الأمور وقفت عند هذا الحد فقد توفى فيليب الثاني سنة ١٥٩٨ وعقد الصلح بين إسبانيا وفرنسا في العام نفسه، وشغلت إنجلترا بثورة إيرلندا وتردى الوضع في المغرب بسبب انتشار الطاعون والسنوات السبع العجاف، وبوفاة العاهلين المنصور وإليزابيث ١٦٠٣ انتهت هذه المشاريع التي ظلت حبراً على ورق.

وإذا كانت المشاريع السياسية - العسكرية قد فشلت، فإن نشاط التجارة قد ازداد بسبب التسهيلات الكبيرة التي منحها لها المنصور. غير أن الإنجليز لم يستطيعوا أن ينظموا نشاطهم التجاري، فقد فشلت الشركة البربرية ويعود هذا الفشل إلى منافسة التجار الأحرار، الذين كانوا يهربون البضائع ويبيعونها بأسعار رخيصة، كما أن مركز الشركة اهتز في إنجلترا لأنها استغلت حقها في الاحتكار وفي رفع

(١) د. كريم: ص ٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧-٢٠٨-٢٠٩.

أسعار السكر، ولأنها على العموم كانت تسيء استغلال وضعها المتميز، كما واجهت الشركة منافسة جادة من الأقمشة الفرنسية في السوق المغربي. ولم تجدد الملكة إليزابيث امتياز الشركة بعد انتهاء مدة الامتياز القديم سنة ١٥٩٧.

علاقات المنصور مع فرنسا :

كانت فرنسا تعاني آنذاك من الحروب الدينية، ومن التدخل الإسباني في شؤونها، ولم يكن بإمكانها أن تباشر صلات سياسية نشطة خارج القارة. ولكن الحكومة الفرنسية كانت على اطلاع على أحوال المغرب وعلاقاته الخارجية. وكان أول قناصلها في المغرب الطبيب غليوم بيرار مقرباً من عبد الملك وأخيه المنصور وكان قد تعرف على عبد الملك في استنبول وتوثقت صلته به إثر سهره على علاج عبد الملك حين مرض في استنبول. وحين تولى عبد الملك انتقل بيرار إلى المغرب، وحين توفي عبد الملك كان بيرار في فرنسا فعاد إلى المغرب مكلفاً بتهنئة المنصور باسم ملك فرنسا والسعي لاستمرار العلاقات الطيبة التي كانت قائمة أيام عبد الملك، والحصول على تسهيلات للسفن الفرنسية في موانئ المغرب وتحرير الأسرى. كما كلف بيرار بالسعي لإرسال كميات من البضائع المغربية كالنحاس والبارود وقرض مالي. وعمل بيرار على إطلاع حكومته على المفاوضات المغربية الإسبانية والمغربية الإنجليزية، ولكن تمزق فرنسا الداخلي لم يكن يسمح لها بالاهتمام بالشؤون المغربية السياسية.

ولدى مجيء هنري الرابع الذي أنهى الحروب الدينية وأمن الاستقرار في فرنسا بدأ يهتم بالمغرب. وكان للعداء الفرنسي الإسباني أثره في تفكير هنري الرابع بعقد تحالف مع المغرب وتنشيط العلاقات التجارية.

نهاية المنصور :

كانت السنوات الأخيرة من حكم المنصور كئيبة فقد انتشر الطاعون، واستمر يعصف بالبلاد سبع سنوات فأهلك الكثير من السكان، وأقفرت المدن

والريف، ولجأ الكثير من المغاربة إلى الجبال، وتعطلت الزراعة. رافق الطاعون قحط استمر ثلاث سنوات، وجفت الأنهار ونضبت الينابيع، وتلا ذلك مجاعة مخيفة. وكان أكثر ما حز في قلب المنصور عصيان ابنه وولي عهده المأمون. توفى المنصور سنة ١٦٠٣ تاركاً البلاد لمصير مظلم.

انحطاط السعديين :

وصل المغرب في عهد المنصور إلى أوج قوته وازدهاره فقد امتد إلى السودان، ونجح في الحصول على الذهب، وفي احتكار التجارة الصحراوية وخاصة على الطريق الرئيسة مراكش - حسية البيضاء - تمبكتو. وأصبحت إبليغ وناررودانت مراكز كبرى على هذا الطريق الذي أصبح أهم الطرق. وكانت التجارة الصحراوية تنتهي في موانئ الأطلسي المغربية. حيث كان التجار الأوربيون ينقلون منها الذهب والنحاس والجلود والسكر. ولم يمض بضع سنوات على وفاة المنصور حتى تدهور مركز المغرب الاقتصادي بسبب الحرب الأهلية من جهة وبسبب المنافسة الأجنبية وتحول طرق التجارة الصحراوية الإفريقية.

قل تدفق الذهب، ولوحظ أنه قبل سنة ١٦٠٣ كان هناك قافلة سنوية تجلب إلى مراكش ضرائب السودان. وبعد وفاة المنصور، وبسبب الحرب الأهلية من جهة واضطراب الوضع في السودان بسبب فساد الجند ومقاومة السودان، لم يعد يصل إلى المغرب إلا قافلة واحدة كل ثلاث سنوات، ومع ذلك لم يكن مؤكداً وصولها. ففي سنة ١٦٠٧ ثار الحرس الذي أرسله مولاي زيدان لحماية القافلة وحرمت مراكش من أربعة أطنان من الذهب. ويبدو أن مناجم الذهب لم تكن تحت إشراف المغاربة وظل قسم كبير من ذهب السودان يتوجه باتجاه مصر والنيابات العثمانية في تونس والجزائر بعد أن عجز أولاد المنصور عن تأمين سيطرتهم على توات. وظهر منافسون خطرون للمغرب من الأوربيين. فقد بدأ قسم منهم يهجر الشواطئ المغربية حيث اضطربت أحوال التجارة بتدهور الوضع الداخلي إلى الشواطئ الإفريقية حيث أقام الفرنسيون مراكز في جزر الرأس الأخضر والسنغال سنة

١٦٣٣ وشيدت سانت لويس سنة ١٦٤١ . وحاول التجار صعود النهر ليصلوا إلى مناجم الذهب والعبيد والعنبر والنحاس والعاج.

وأصيبت صناعة السكر ، التي رعاها المنصور ونماها، بضربة قاسية ليس فقط بسبب الاضطرابات وإهمال زراعة السكر، بل بسبب المنافسة الشديدة لسكر البرازيل وجزر الأنتيل وماديرا وساوتوما الخ...

نهاية الأسرة السعدية :

إن تاريخ الأسرة السعدية منذ وفاة المنصور ١٦٠٣ وحتى مقتل آخر سلطان سعدي ١٦٥٩ هو تاريخ المنازعات بين أولاد المنصور وأحفاده، وانقسام المغرب إلى سلطتين سعديتين إحداهما في فاس والأخرى في مراكش. وهو فوق ذلك كله تاريخ الإمارات المغربية المستقلة التي أنشأها زعماء مرابطون سيطروا على القسم الأعظم من المغرب ومنازعات هذه الإمارات مع السعديين من جهة ومنازعاتها فيما بينها من جهة أخرى.

الصراع بين أولاد المنصور :

كان المنصور قد وزع في حياته عمالات المغرب على أولاده، فاستعمل ولي عهده المأمون على فاس واستعمل زيدان على تادلا وأعمالها، واستعمل لدى نهوضه إلى فاس لمعاقبة ابنه المأمون الذي تمرد عليه، ابنه أبا فارس. بايعت فاس بعد وفاة المنصور ابنه زيدان، انشق عليه قسم من الجيش وحرر المأمون من السجن ونقلوه إلى مراكش لدى أخيه أبي فارس الذي بايعه أهل مراكش. أرسل أبو فارس أخاه المأمون على رأس جيش إلى فاس. انتصر المأمون على زيدان ودخل فاس حيث بايعه أهلها سنة ١٦٠٥. أرسل المأمون جيشاً بقيادة ابنه عبد الله إلى مراكش تغلب على أبي فارس ودخل مراكش وأباحها لجيشه وعامل أهلها بقسوة شديدة. التف المراكشيون حول زيدان الذي كان قد سيطر على الجنوب. وبعد معارك قاسية

استقر الأمر بقيام مملكتين سعديتين إحداهما في فاس على رأسها المأمون والثانية في مراكش على رأسها زيدان الذي كان في نظر الأوربيين وقسم كبير من المغاربة هو السلطان الشرعي لأنه سيد عاصمة السعديين مراكش.

استعان المأمون خلال صراعه على السلطة بالإسبان مقابل تسليمهم العرائش. أثار تسليم العرائش مشاعر المغاربة وغضبهم ولهذا لم يطل عمر مملكة فاس فقد انتهت سنة ١٦٢٦.

أما مملكة مراكش فقد واجهت مصاعب عديدة مع القوى الصوفية التي سيطرت على الجنوب، كما نشب الصراع بين أولاد زيدان الذين قتل بعضهم بعضهم الآخر. وانتهت سنة ١٦٥٩ بسيطرة عرب الشبانات على مراكش بعد أن قتلوا آخر السلاطين السعديين أبا العباس أحمد.

الإمارات المحلية :

كانت فترة المنازعات بين الأمراء السعديين عقب وفاة المنصور من أحلك فترات الفوضى التي عرفها المغرب. وخلال هذه الفترة احتل الإسبان العرائش سنة ١٦١١ سلمها لهم المأمون السعدي، وبنى الإسبان قلعة على مصب نهر السبو سنة ١٦١٤ كان يعمل في موقعها قراصنة إنجليز بالتعاون مع قراصنة سلا. أثار عمل الإسبان هذا غضب المغاربة مثلما أثار غضبهم صراع الأمراء السعديين وتساهلهم مع الإسبان.

مرابطو الجنوب :

أقيمت الزوايا الصحراوية عند ملتقى طرق التجارة الإفريقية عبر الصحراء واستفاد القائمون عليها من التجارة الصراوية فأصبحوا قوة اقتصادية ثم قوة سياسية.

تعاقب على الجنوب ثلاثة مرابطين أولهم أبو العباس أحمد بن عبد الله السجلماسي المعروف بأبي محلى، زعم أنه ينتسب إلى العباس بن عبد المطلب[1] .

---

(١) اليفرني : ص ٢٠٠.

تتلمذ على المرابط الشاذلي الكبير ابن مبارك وادعى أنه المهدي المنتظر[1] . وذكر اليوسي في محاضراته أنه كان يشيع أنه الفاطمي[2] . استغل أبو محلى الفوضى الناجمة عن صراع الأمراء السعديين ، وبدأ العمل إثر احتلال الإسبان العرائش. استولى على الجنوب ودخل مراكش وطرد السلطان زيدان. استعان زيدان بمرابط آخر يحيى بن عبد الله الحاحي الذي نجح في القضاء على أبي محلى وحل محله بالسيطرة على الجنوب والتدخل في شؤون زيدان. لكنه تعرض لمنافسة مرابط آخر هو أبو حسون السملالي: الذي تمكن من السيطرة على واحات الجنوب سجلماسه تارودانت ودرعه وملاحة تيجازا والسودان ومن ثم على التجارة الصحراوية وأصبح الوسيط الذي لا غنى عنه بين التجار الأوربيين في أغادير وماساو بين إفريقيا السوداء. ولكن أمره بدأ بالتراجع لدى ظهور الأشراف العلويين[3] ، توفي سنة ١٦٥٩.

مرابطو الولاء :

أصلهم من قبيلة مجاط أحد فروع صنهاجة، رفع بعضهم نسب الدلائيين إلى أبي بكر الصديق[4] . انتقلوا إلى الأطلس الأوسط من ضفاف الملوية. انصرفوا إلى العلم، ولقوا احترام المرينيين والوطاسيين والسعديين. تأسست زاويتهم في الأطلس الأوسط سنة ١٥٦٦ شرقي خنيفرة. قوي نفوذها بين بربر الأطلس الأوسط والملوية بفضل الخدمات الدينية والثقافية والاجتماعية وكرم الضيافة، اقتصر اهتمام مؤسسيها الأوائل على النواحي الدينية والعلمية. نجح الدلائيون في حماية الأطلس الأوسط من الفوضى التي عمت إثر وفاة المنصور، قدموا المساعدة للمجاهد العياشي في جهاده ضد المحتلين وفي صراعه ضد مثيري الفتن والفوضى. وتدخلوا في

---

(١) اليفرني : ص ٢٠٤.

(٢) اليفرني : ص ٢٠٥.

(٣) اليفرني : ص ٢٨٦.

(٤) محمد حجي : الزاوية الدلائية ص ٢٩.

تافللت ضد تعسف أبي حسون السملالي. وفي سنة ١٦٣٦ رغبوا في الاستفادة من الفوضى لحسابهم بعد أن توفرت لديهم قوة بشرية واقتصادية ومعنوية، وضعف أمر القوى الأخرى في المغرب. نجحوا في السيطرة على شمال المغرب ووسطه وحاولوا التدخل في تافللت فاصطدموا بالأشراف العلويين وأحرزوا نجاحاً أولياً وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من إنشاء سلالة حاكمة جديدة ولكن ظهور الأشراف العلويين قطع الطريق عليهم وكانت نهايتهم على يدهم.

الأندلسيون :

هاجروا من الأندلس إثر ثورتهم الفاشلة سنة ١٥٦٨، وإثر مراسيم الطرد سنة ١٦٠٩ وسنة ١٦١٤.

استقروا في تطوان وسلا والرباط وشكلوا في هاتين المدينتين اللتين يفصل بينهما نهر بوالرقرق ما يعرف بجمهورية بوالرقرق[1] . لقي الأندلسيون في بادئ الأمر ترحيباً من زعيم الجهاد في الشمال العياشي ومن سلطان مراكش زيدان. كان الأول يأمل أن يجد فيهم سنداً على الجهاد، وكان الثاني يأمل أن يحصل منهم على مجندين وعلى مساعدة مالية مما كانت تدره عليهم مغانم القرصنة التي انصرفوا إلى ممارستها ضد السفن الإسبانية بخاصة والسفن الأوربية بعامة. تعاونوا في بادئ الأمر مع الطرفين ثم اختلفوا معهما هاجمهم العياشس واستولى على سلا والرباط. استنجدوا بالدلائيين الذين طردوا العياشي وأخضعوا الأندلسيين لسلطتهم.

جعل الأندلسيون سلا معقلاً للقرصنة التي نشطت في مطلع القرن السابع عشر وتأثر هذا التوسع بعدة عوامل موقع سلا الجغرافي لأنها كانت تقع على مقربة من جبل طارق مما يسمح بمهاجمة السفن الإسبانية القادمة والرائحة إلى أمريكا. وقد ازداد نشاط القرصنة إثر تسليم العرائش إلى الإسبان، وتدفق الأندلسيين على سلا والرباط. تعاون قراصنة سلا مع قراصنة الجزائر ومع مغامرين إنجليز في المعمورة،

(١) H. Terrass : P. 221.

وامتد نشاطهم إلى بحر المانش، وإلى مياه العالم الجديد، وبلغ أوج نشاطهم إبان حرب الثلاثين عاماً.

المجاهد العياشي :

محمد بن أحمد الزياني المعروف بالعياشي. بدأ يدرس الفقه على يد مرابط شاذلي في سلا. كان في الواقع رجل حرب أكثر منه رجل علم وعبادة. جاهد ضد البرتغاليين في مازغان، عينه السلطان زيدان قائداً لأزمور. نجح البرتغاليون في إيغار صدر زيدان عليه، انتقل العياشي إثر ذلك إلى منطقة الغرب حيث لقي تأييدا من قبائل المنطقة في جهاده ضد الإسبان في العرائش والمعمورة.

تعاون مع الأندلسيين ثم اختلف معهم واستولى على معقلهم في سلا والرباط. تدخل الدلائيون وطردوه من سلا والرباط. لجأ إلى أعراب الخلط وكانوا من أنصار الدلائيين فقتلوه سنة ١٦٤١.

الفصل الثالث

دولة الأشراف العلويين

يشبه تاريخ الأشراف العلويين في بدايته تاريخ الأشراف السعديين: الأصل الحجازي والشريفي، الانتقال إلى المغرب في الوقت نفسه تقريباً، الخلاف بين الأخوين المؤسسين: محمد الشريف والرشيد خلال النضال من أجل السيطرة على المغرب، الصراع المبكر مع الأتراك.

غير أن السعديين برزوا كزعماء جهاد ضد الغزاة الأجانب واعتمدوا على دعم القوى الصوفية، في حين أن الأشراف العلويين برزوا كقوة إقليمية بدأت نضالها ضد القوى الصوفية المحيطة بها: أبي حسون السملالي من الغرب والزاوية الدلائية من الشمال. ومما ساعد الأشراف العلويين على الانتصار عدم وجود خطر أجنبي يتهددهم ويتهدد المغرب، وضعف أتراك الجزائر الذين غرقوا وأغرقوا الجزائر معهم في الفوضى، وملل المغاربة من الفوضى وتطلعهم إلى قوة موحدة قادرة على إنقاذ البلاد بعد أن تبين أن الزعامات القائمة في المغرب ليست سوى زعامات إقليمية لا تملك القدرة ولا الرغبة في توحيد المغرب وإنقاذه من الفوضى فضلاً عن أن هذه القوى قد استنفدت قوتها في صراعات عبثية، وقد أدركها الوهن، وفقدت الزخم الذي كان لها في بداية أمرها.وإذا كانت الشكوك قد أحاطت صحة نسب السعديين الشريفي، فإنه لم يكن هناك أي شك في صحة نسب العلويين بقول اليفرني: «وبالجملة فإن شرف السادات السجلماسيين مما لا نزاع في صراحته ولا خلاف في صحته عند أهل المغرب قاطبة». ونقل عن الشيخ أبي علي اليوسي «أن

شرفهم مقطوع فهو بصحته كالشمس الضاحية...»[1]. ويقول الناصري: «اعلم أن نسب هذه الدولة الشريفة العلوية من أصرح الأنساب وسببها المتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم من أمتن الأسباب..»[2].

وأصل الأشراف العلويين من ينبع النخل من أرض الحجاز، وأول من دخل منهم المغرب الحسن بن قاسم في أوائل عهد الدولة المرينية. أسهم الأشراف العلويون في العهد المريني في الجهاد في الأندلس، يذكر اليفرني أن الشريف علياً جد مؤسسي هذه الأسرة، وكان رجلاً صالحاً مجاب الدعوة كثير الأوقاف والصدقات حاجاً مجاهداً .. رحل إلى عدوة جزيرة الأندلس برسم الجهاد مراراً، وأقام بها مدة طويلة ثم رحل إلى سجلماسة فكاتبه أهل الأندلس يطلبون منه الرجوع إليهم ويحضونه على الاعتناء بأمور الجهاد ويظهرون له ضعف الجزيرة وأنها شاغرة ممن تجتمع عليه القلوب. وقد كانوا يراودونه وهو مقيم عندهم في أن يملكوه عليهم ويبايعوه والتزموا له الطاعة والنصرة..»[3] .

ولكن نشاط الأشراف العلويين ظل مقتصراً على واحة تافللت حتى عصر الفوضى الذي تلا وفاة المنصور. وفي هذه الفترة كانت واحة تافللت مطمع الدلائيين وأبي حسون السملالي. ولمواجهة هذه الأخطار التف أهل سجلماسة (عاصمة تافللت) حول مولاي الشريف علي مؤسس الأسرة العلوية.

تعاون مولاي الشريف مع أبي حسون في بادئ الأمر ولكن أبا حسون انقلب عليه وتمكن من القبض عليه غدراً. التف أهل سجلماسة حول ابنه محمد الشريف لأن أصحاب أبي حسون أساؤوا السيرة بسجلماسة «وضربوا الخراج على كل شيء حتى على من يجدونه الشمس زمان الشتاء أو في الظل زمان الصيف وضيقوا على الناس»[4] . نجح مولاي محمد في طرد أبي حسون من سجلماسة

---

(١) اليفرني ، ص ٢٩١.

(٢) الناصري ، ج٧ ص ٣.

(٣) اليفرني ، ص ٢٩٣.

(٤) اليفرني ، ص ٣٠٠.

واستولى على درعه التي كانت تابعة لأبي حسون، وأصبح بذلك يسيطر على إحدى طرق التجارة الإفريقية المهمة. ولكن كان بحاجة إلى منفذ لهذه التجارة على البحر يبادلها بما يحتاجه من بضائع وأهمها السلاح. و لم يكن أمامه سبيل إلى موانئ الأطلس فقد كانت قوة السملالي والدلائيين تحول دونه. فحاول السيطرة على محور سجلماسة فاس, ولكن الدلائيين شعروا بخطره فحاولوا القضاء عليه والسيطرة على تافللت. ورغم انتصار الدلائيين على مولاي محمد فإنهم عمدوا إلى المهادنة، ربما كان ذلك بسبب مشكلات كانت تعترضهم في الشمال.

اتفق الطرفان على أن ما بين الصحراء وجبل عباس للمولى محمد، وما دون ذلك إلى ناحية الغرب للدلائيين. واحتفظ الدلائيون بخمس قواعد لهم في منطقة مولاي محمد لمراقبة تافللت والتحكم بالطرق الرئيسة نحو داخل المغرب وذلك للتضييق على مولاي محمد وحصر خطره ونشاطه. ولكن مولاي محمد نجح بالتخلص من هذه المراكز واكتفى الدلائيون بالاحتجاج[1]. و لم يكتف مولاي محمد بذلك بل سارع إلى تلبية نداء أهل فاس لإنقاذهم من الدلائيين الذين كانوا يسيطرون عليهم. نجح مولاي محمد بدخول مدينة فاس بمساعدة أهلها الثائرين على الدلائيين، وبايعه هؤلاء، لكن الدلائيين نجحوا في طرده من فاس واضطر إلى العودة إلى سجلماسة. ولما أغلق الدلائيون منافذ فاس والشمال توجهت أنظار مولاي محمد نحو الشرق أملاً في الوصول إلى منفذ على البحر عن طريق تلمسان.

كان الأتراك يعانون من متاعب في تلك المنطقة، وكان عرب هذه المنطقة على صلة بمولاي محمد الذي نجح بمساعدتهم بالاستيلاء على وجدة وندرومه وتلمسان سنة ١٦٥٠. سارع الأتراك إلى إرسال قوة نجحت في إبعاد مولاي محمد من منطقة تلمسان وعقدوا معه صلحاً عدَّ وادي تافنه حداً بين أملاك الطرفين.

مولاي الرشيد :

في سنة ١٦٥٩ توفي مولاي الشريف ، وحدث خلاف بين مولاي الرشيد

---

(١) الناصري الاستقصا ج٧ ص ١٦-١٧-١٨.

وأخيه مولاي محمد الذي جدد أهل سجلماسة بيعته. غادر الرشيد سجلماسة مخافة أخيه. أتيح لمولاي الرشيد خلال تنقله في أنحاء المغرب بدءاً من الجنوب فالأطلس الأوسط فمنطقة فاس فشرق المغرب أن يتعرف على أحوال المغرب وأن يدرس نقاط القوة والضعف فيها مما سيخدم مشروعه للوصول إلى السلطة.

غادر مولاي الرشيد سجلماسة وأقام مدة في تدغة ثم سار إلى دمنات ثم انتقل إلى زاوية أهل الدلاء ويبدو أنه لم تطب له الإقامة هناك فقد كان موضع شك من مسؤولي الدلاء، أو أنه لم يجد لدى الدلائيين الرغبة أو القدرة على مساعدته في تحقيق مطامحه. وكان الدلائيون يعانون من متاعب خطيرة فقد شاخ زعيمهم محمد الحاج، وأنهكتهم هجمات الثائر غيلان، وخرجت فاس من أيديهم إذ تسلط عليها أبو عبد الله الدريدي، واستقل الريف بزعامة الشيخ أعراس، وأدت أعمال القرصنة في سلا والرباط ضد السفن الأوربية إلى توقف إمداد الدلائيين بالأسلحة والذخائر، وتحولت هذه الإمدادات إلى خصومهم في الشمال وفي الشرق. ولكن إقامة مولاي الرشيد القصيرة في زاوية الدلاء كانت مفيدة إذ تعرف خلالها على نقاط الضعف فيها.

انتقل مولاي الرشيد إلى جبل آصرو حيث أقام برهة جمع حوله عصبة من المغامرين، وانتقل منه إلى الشرق ماراً بفاس حيث نجح الدريدي بإبعاده بالحسنى[1]. استقر مولاي الرشيد في أحواز تازا لدي الشيخ أبي عبد الله اللواني وكان كما يقول القادري في «نشر المثاني» «متفقراً يعظم نسبة الشرف»[2].

ساعد اللواني مولاي الرشيد على قتل اليهودي ابن مشعل «كانت له على المسلمين صولة واستهزاء بالدين وأهله..»[3] ، واستولى على ثروته الضخمة التي كانت معيناً له في كسب الأنصار من عرب المغرب الشرقي. ولما شعر محمد

---

(١) محمد بن الطيب القادري: نشر المتاني لأهل القرب الحادي عشر والثاني ج٢ ص ١٠٣.

(٢) محمد بن الطيب القادري: ج٢ ص ١٠٣.

(٣) اليفرني : ص ٣٠١.

الشريف بتزايد قوة أخيه قرر مهاجمته. ونشبت معركة بين الأخوين في سهل الأنجاد قتل فيها محمد الشريف[1] ، وانضم جيشه إلى الرشيد. توجه الرشيد نحو تازا فاستولى عليها عنوة. شعر الفاسيون بالخطر فجمعوا صفوفهم بقيادة أميرهم أبو عبد الله الدريدي[2] ، واتفقوا مع جيرانهم على مقاومة الرشيد، وأمر رؤساء فاس الناس بشراء الخيل والسلاح وفرضوا على كل بيت بندقية تحت طائلة العقاب.

أدرك الرشيد أن قوته لا تسمح له بمهاجمة فاس المستعدة فتوجه نحو سجلماسة ودخلها بعد حصار تسعة أشهر فر منها بعد ذلك ابن أخيه محمد الصغير، وعاد الرشيد مسرعاً إلى تازا سنة ١٦٦٥. سارع أهل فاس وحلفاؤهم إلى مهاجمة الرشيد في تازا سنة ١٦٦٥ ولكن كلمتهم تفرقت حين اقترب الجيشان، وطاردهم الرشيد إلى أبواب فاس ولكنه فشل في دخول المدينة.

توجه الرشيد إلى الريف للتخلص من الشيخ أعراس، ويبدو أنه كان يبغي الوصول إلى ميناء على البحر ليحصل بواسطته على السلاح والذخيرة. نجح الرشيد في التغلب على الشيخ أعراس وأسره ثم عفا عنه وضمه إلى جانبه. وبسيطرته على الريف سيطر تماماً على محور التجارة شمال - جنوب عبر سهول المغرب الشرقي وصارت منتجات السودان تصل إلى شواطئ الريف وتبادل بالأسلحة والذخائر

---

(١) يذكر القادري أن محمد توفي وأنه لم يقع قتال بين الجيشين. ص ١٠٣. أما اليفرني فيذكر أنه «لما التقى الجمعان كانت أول رصاصة في نحر مولاي محمد رحمه الله فوافته منيته، ولما قتل انحشرت جموعه برمتها لأخيه مولانا الرشيد ودخلوا في طاعته أجمعين» ص ٣٠٢.

(٢) أبو عبد الله من بني دريد الهلاليين كانوا في ديوان السعديين ولما بايع أهل فاس محمد الحاج الدلائي كان الدريدي في عسكره فلما فشلت ريح أهل الدلاء بالمغرب نزع عنهم واستبد بفاس الجديد وحالف أهل فاس القديم على حرب الدلائيين وكان هناك صراع بين الأندلسيين وزعيمهم أحمد بن صالح واللمتيين بزعامة ابن الصغير وكان بينهما صراع طويل. (الناصري ج٧ ص ٣٤).

إضافة إلى الأرباح. وفي الحسيمة اتصل بـه تـاجر فرنسـي رولانـد فريجـوس. وكـان رولاند وأخوه ميشيل يفكـران في إقامـة مؤسسـة تجاريـة في الحسيمة علـى سـاحل الريف، وكانا يلقيان تشجيعاً من كولبير الذي منحهم امتيازات خاصة.

توجه الرشيد إلى فاس سنة ١٦٦٦ واقتحمها عنوة، وقتل زعماءها الدريـدي وزعيمي اللميتين والأندلسيين. عـامل الرشـيد أهـل فـاس معاملـة حسـنة فكسـب قلوبهم وبايعوه. توجه الرشيد للقضاء على غيلان الذي كـان يسـيطر علـى تطـوان وسلا والذي تحالف مع الإنجليز الذين امتلكوا طنجة. ويبـدو أن هـذا التحـالف قـد نفر الناس من غيلان مما سهل للرشيد التغلب عليـه وأجـبره علـى الهـرب إلى أصيـلا حيث نقل على سفينة إنجليزية إلى طنجة ثم انتقل إلى الجزائر.

سعى الإنجليز للاتصال بمـولاي الرشـيد وعقـد معـاهدة سـلام وتجـارة. وقـد توجهت سفارة برئاسة هنري هيوارد تحمل رسـالة مـن الملـك شـارل الثـاني، كمـا تحمل هدايا ثمينة تضمنت بعض الأسرى المغاربـة وعشـرة مدافـع ولكـن هيـوارد لم يكن على مستوى المهمة فبحجة الخوف على حياته طلب قبـل مثولـه أمـام الرشـيد تسليمه عدد من كبار المغاربة كرهائن في طنجة طول مدة رحلته وإلى حـين عودتـه سالماً مما أدى إلى فشل السفارة وقطع المفاوضات[1] .

توجـه الرشـيد إلى القضـاء علـى الدلائيـين سنة ١٦٦٨ وانتصـر عليهـم ودخـل عاصمتهم. وبالرغم من أنه عفا عن أهلها فإنه أمـر بنقـل زعيمهـا محمـد الحـاج وأولاده وأقاربه إلى فاس، ثم ابعدهم إلى تلمسان، وأمر بهدم الزاوية وطمس معالمها.

أصبح طريق مراكش مفتوحاً فتوجه إليها سنة ١٦٦٩ واستولى عليها وفتـك بالشبانات الذين كانوا متسلطين عليها. ولم يبـق أمامـه سـوى السـوس، تـوفي أبـو حسون السملالي سنة ١٦٧٠ وخلفه ابنه أبو عبد الله محمد، هاجم مولاي الرشـيد السوس سنة ١٦٧١ واستولى على تارودانت وإيليغ معقل آل أبـي حسـون وقضـى نهائياً على نفوذهم ودان له السوس كله.

---

(١) ب. ج. روجرز: ص ٨٦-٨٧.

انصرف الرشيد لتوطيد أركان دولته واهتم بصورة خاصة بتكوين جيش خاص يسند حكمه وحكم أسرته إذ إن العلويين كالسعديين لم يكن لهم سند قبلي خاص. وكان من الطبيعي أن يعتمد الرشيد على قبائل شرق المغرب التي ساندته منذ البداية. آلف الرشيد بين عرب الشرق وبربرهم وجعلهم قبيلة واحدة وألف منهم جيش الشراقة[1]، وأنزلهم في أحواز فاس. ولكن هؤلاء البدو أزعجوا بتصرفاتهم الخشنة أهل فاس فنقلهم إلى ما بين النهرين (ورغه والسبو) وأقطعهم أرضاً هناك، وبنى لهم قصبة خاصة. اتجه مولاي الرشيد إلى تنشيط الحياة الاقتصادية فأمر بضرب سكة جديدة «السكة الرشيدية» وأقرض تجار فاس وغيرها مبلغاً كبيراً ولكنه لم يتمتع بانتصاراته فقد توفى سنة ١٦٧٢ في مراكش.

مولاي إسماعيل (١٦٧٢-١٧٢٧):

إذا كان مولاي الرشيد مؤسس الدولة فإن توطيدها وترسيخ دعائمها وفرض هيبتها يعود إلى المولى إسماعيل. فخلال نصف قرن ونيف شعر المغرب أنه أمام طراز فريد من الحكام. ولعله لأول مرة وآخر مرة قبل الحماية، أحس كل مغربي في الجبل أو في السهل، على ساحل البحر أو في قلب الصحارى، بوجود سلطة مركزية قوية ينبغي أن يحسب حسابها. وإذا أخذنا بأقوال المؤرخين المغاربة كاليفرني والزياني والناصري وغيرهم فإن بلاد السيبه اختفت في عهده، أو على الأقل تقلصت إلى حد لم يشعر بوجودها. يقول الزياني «وكمل له فتح المغرب ولم يبق به من ينبض له عرق أو ينطق ببنت شفه» وأنه «كان يخرج الذمي والمرأة من وجده إلى وادي نون ولا يجدان من يسألهما من أين وإلى أين»[2].

---

(١) يقول الناصري أن لفظ شراقة في الأصل لقب لعرب بادية تلمسان ومن انضاف إليهم وسموا بذلك لأنهم في جهة الشرق عن المغرب الأقصى، فأهل تلمسان مثلاً يسمون أهل المغرب الأقصى مغاربة، وأهل المغرب الأقصى يسمون أهل تلمسان مشارقة، إلا أن العامة يلحنون في هذه النسبة فيقولون شراقة.

(٢) الزياني أبو القاسم: الترجمان المعرب في دول المشرق والمغرب، ص ٢٨.

كان المولى إسماعيل قوي الإرادة لا تهزه الهزيمة ولا تقف أمامه عقبة، دائب الحركة يقود بنفسه قواته لقمع الثورات التي واجهها في شتى أنحاء المغرب. يقول الزياني «إنه أقام في تمهيد المغرب وحروب الثوار والخوارج على الدولة اربعاً وعشرين سنة لم ينم في داره سنة واحدة»[1] . وقال أحد الأسرى الفرنسيين الذي أمضى في الأسر إحدى عشرة سنة «كان المولى إسماعيل دوماً في المقدمة يضرب المثل بنفسه للآخرين سواء أكان ذلك في الحرب أم في السلم، وأنه في بناء مكناسة كان يعمل بنفسه كباقي العمال»[2] . وهناك أمر يلفت النظر بوجه خاص، فمنذ أيام المولى إسماعيل وحتى مطلع القرن العشرين، وبالرغم من الثورات العديدة هنا وهناك، وبالرغم من أن بعض هذه الثورات بلغ حداً كبيراً من الخطورة إلى درجة أن أحد السلاطين العلويين سقط أسيراً مرتين بيد الثوار[3] ، فإن أحداً من زعماء الثورات لم يرفع شعار إسقاط الأسرة العلوية. ولعل هذا لا يعود فقط إلى انتماء هذه الأسرة إلى آل البيت فحسب، بل إلى الأثر الذي تركه حكم مولاي إسماعيل الطويل وهيبته التي فرضها في كل مكان باضعافه القوى الإقليمية، وبتحريره قسماً مهماً من الأراضي المحتلة.

عاصر المولى إسماعيل عصر الحكم المطلق في أوجه في أوربا وكان أبرز ممثليه لويس الرابع عشر، والحق أن المولى إسماعيل يعدّ واحداً من أبرز ممثلي هذا الطراز من الحكم، وعدّه بعضهم لويس الرابع عشر المغرب. وإذا كان لويس الرابع عشر يقول «الدولة أنا» فإنه كان بإمكان المولى إسماعيل أن يقول مثل ذلك. كان المولى إسماعيل معجباً بلويس الرابع عشر لما كان يراه من أوجه الشبه العديدة بينهما كتب إليه «إنه ليسرنا التفاوض معكم لأنكم السيد المطلق المشيئة والإرادة، وإن كل شيء يتعلق برأيكم ولهذا فأنتم جديرون أن تكونوا إمبراطوراً على الأمم

---

(١) الزياني أبو القاسم: الترجمان المعرب في دول المشرق والمغرب، ص ٢٥.

(٢) Brignon. P. 240.

(٣) انظر: مولاي سليمان.

الأوربية»[1] . وكان المولى إسماعيل مطلعاً على أحوال أوربا وملوكها ويشعر أنه أقرب إلى لويس من غيره من الملوك. وكان يقارن بين لويس الذي يحكم بنفسه حكماً مطلقاً وبين ملك إسبانيا الطفل الذي تسيره النساء والأعيان وبين ملك إنجلترا الذي يقيد البرلمان إرادته وقال «ليس هناك إلا ملك فرنسا وأنا»[2] . وكما كان للويس الرابع عشر فرساي العظيمة أراد المولى إسماعيل أن يجعل من مكناسة فرساي المغرب. جلب المولى إسماعيل إليها الصناع والعمال من جميع حواضر المغرب، ولما لم يكفه ذلك فرض على كل قبائل المغرب عدداً معلوماً من الرجال والحيوانات كل شهر. وفرض على أهل المدن الصناع والنجارين، واستخدم أكثر من خمسة وعشرين أسيراً أوربياً. وتتألف هذه المدينة من عدة مساجد وقصور وأسوار وأبراج وخزانات للتموين، واسطبل عظيم يضم اثنى عشر ألف فرساً، مع كل منها سائس من المسلمين وخادم من أسرى الأوربيين.. وتضم هذه المدينة بحيرة عظيمة تسير فيها السفن والزوارق المتخذة للنزهة ومنها حدائق وبساتين فيها أشجار الزيتون وأشجار الفواكه من كل نوع. وقد بالغ المؤرخون المغاربة في وصفها والإشادة بها. قال عنها الزياني في الترجمان المعرب في دول المشرق والمغرب «هذا شيء لم يبن في دولة عربية ولا عجمية في الجاهلية ولا في الإسلام»[3] .

وقال في البستان الظريف «... وقد شاهدنا آثار الأقدمين بالمشرق والمغرب وبلاد الترك والروم فما رأينا مثل ذلك في دولهم ولا شاهدناه في آثارهم، بل لو اجتمعت آثار دول ملوك الإسلام لرجح بها ما بناه السلطان الأعظم المولى إسماعيل رحمه الله في قلعة مكناسة دار ملكه. ولم تزل تلك البناءات على طول الدهر قائمة كالجبال لم تخلفها عواصف الرياح ولا كثرة الأمطار والثلوج ولا آفات الزلازل

---

(١) Cossac De Chavrebière. P. 387.

(٢) Cossac De Chavrebière. P. 392 .

(٣) أبو القاسم الزياني: الترجمان المعرب في دول المشرق والمغرب، ص ١٥.

التي تخرب المباني العظام والهياكل الجسام.. ومن يوم مات المولى إسماعيل والملوك من بنيه وحفدته يخربون تلك القصور على قدر وسعهم وبحسب طاقتهم، ويبنون بأنقاضها من خشب وزليج ورخام ولبن وقرمود ومعدن وغير ذلك إلى وقتنا هذا، وبنيت من أنقاضها مساجد ومدارس ورياطات بكل بلد من بلدان المغرب وما أتوا على نصفها هذه مدة من مائة سنة. وأما الجدران فما زالت ماثلة كالجبال الشوامخ. وكل من شاهد تلك الآثار من سفراء الترك والروم يعجب من عظمته ويقول ليس هذا من عمل بني آدم ولا يقوم به مال»[1] .

❑ توحيد المغرب :

واجه المولى إسماعيل خلال ربع قرن ثورات في مختلف أنحاء المغرب كانت على نوعين :

١ - **ثورات تزعمها أفراد من أسرته** أخطرها ثورة ابن أخيه أحمد بن محرز الذي تحالف مع الحران أخي المولى إسماعيل وقد لقيا دعماً من الأتراك وسببا له المتاعب خلال أربعة عشر عاماً. كان ابن محرز ينتقل من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب يحصل تارة على بيعة أهل مركش وتارة أخرى على بيعة فاس. وركز جهده أخيراً على الجنوب حيث اعتصم في تارودانت وسيطر على واحات الجنوب وجزء من السودان وملاحة تيجازا، ويرى برينيون وزملاؤه إن ثورة ابن محرز وتأييد الجنوب له يعكس الروح الإقليمية السائدة في الجنوب ويعكس رغبة الجنوب بالاستمرار بالسيطرة لحسابه على تجارة الذهب[2] .

تلا ثورة ابن محرز ثورة بعض أخوة السلطان ثم أولاده. وكان المولى إسماعيل قد ارتكب غلطة المنصور نفسها في توزيع عمالات المغرب على أولاده فأثار لديهم غريزة الطموح، كما أثار لدى إخوتهم الذين لم ينالوا حظهم الغيرة والحسد والطمع. وقد قمع المولى إسماعيل هذه الثورات بقسوة ولم تأخذه رحمة حتى بأولاده.

---

(١) الناصري : ج٧ ص ٥٥-٥٦ نقلاً عن الزياني في «البستان..».

(٢) Brignon. P. 241.

وجابه في الشمال غيلان وأسرة النقسيس وكلاهما لقيا تشجيع الأتراك وعونهم وتعاون هؤلاء مع فاس الثائرة التي بايعت ابن محرز. ولكن المولى إسماعيل قضى على غيلان وأسرة النقسيس واستولى عنوة على فاس ولكنه سامح أهلها وخطب ود الأسر الشريفة الإدريسية فيها فدانت له فاس. ولعل إعراضه عن اتخاذ فاس أو مراكش عاصمة له واختيار مكناسة كان بسبب مواقف هاتين العاصمتين التقليديتين.

٢ – **ثورات القبائل**: إلى جانب ثورَات أقاربه عانى مولاي إسماعيل من ثورات القبائل، التي شاركت في ثورات أقاربه وبزعامات قبلية ودينية. ولهذه الثورات اسباب عديدة فقد كانت البلاد قد اعتادت حياة الفوضى والاستقلال عن أي سلطة مركزية وكان المولى إسماعيل قد أرهق البلاد بالضرائب والسخرة ليسد حاجات جيشه من الرجال والمال ونفقات إنشاء مدينته الملكية في مكناسة، وكان قواد المخزن من جهتهم يضاعفون الجباية لحسابهم الخاص. وقد جاء في رسالة للعالم المغربي الكبير «اليوسي» : «... إن على السلطان حقوقاً كثيرة لا تفي بها البطاقة ولنقتصر منها على ثلاثة هي أمهاتها الأول: جمع المال من حق وتفريقه في حق. الثاني: إقامة الجهاد لإعلاء كلمة الله وفي معناه تعمير الثغور بما تحتاج إليه من عدد وعدة. الثالث: الانتصاف من الظالم للمظلوم. وفي معناه كف اليد العادية عليهم منهم ومن غيرهم. وهذه الثلاثة كلها قد اختلت في دولة سيدنا فوجب علينا تنبيهه.. فلينظر سيدنا فإن جباة مملكته قد جروا ذيول الظلم على الرعية فأكلوا اللحم وشربوا الدم وامتشوا العظم وامتصوا المخ ولم يتركوا للناس ديناً ولا دنيا، أما الدنيا فقد أخذوها وأما الدين فقد فتنوهم عنه، وهذا شيء شهدناه لا شيء ظننناه، ثم إن أرباب الحقوق قد ضاعوا ولم تصل إليهم حقوقهم فعلى السلطان أن يتفقد الجباة ويكف أيديهم عن الظلم ولا يغتر بكل من يزين له الوقت فإن كثيراً من الدائرين من طلاب الدنيا... أما الأمر الثاني فقد ضاع... وقد حضرت بمدينة تطاوين أيام مولانا الرشيد رحمه الله فكانوا إذا سمعوا الصريخ تهتز الأرض خيلاً

ورماة، وقد بلغني اليوم أنهم سمعوا صريخاً من جانب البحر ذات يوم فخرجوا يسعون على أرجلهم بأيديهم العصي والمقاليع... وإنما جاءهم الضعف من المغارم الثقيلة...

أما الأمر الثالث فقد اختل أيضاً لأن المشعبين للإنصاف بين الناس في البلدان، وهم العمال وخدامهم هم المشتغلون بظلم الناس فكيف يزيل الظلم من يفعله؟ ومن ذهب يشتكي سبقوه إلى الباب فزادوا عليه فلا يقدر أحد أن يشتكي...»[1].

وكانت ثورات بربر الأطلس الأوسط وجبل فازار آيت عطا في الجنوب أخطر الثورات. قمع المولى إسماعيل هذه الثورات بشدة وقسوة واعتمد على وسائل سبق للمنصور استخدامها على نطاق محدود نسبياً، فاستخدمها المولى إسماعيل على نطاق واسع وابرز هذه الوسائل :

١ً - **إيجاد جيش قوي** : كان المولى إسماعيل يدرك أن عليه أن يفتح المغرب بحد السيف بعد أن اعتاد الناس حياة الفوضى والاضطراب. كما كان يدرك أن اسرته الحديثة العهد والتي ليس لها سند قبلي بحاجة إلى قوة خاصة تدين لها بالطاعة والولاء. اعتمد المولى إسماعيل في بادئ الأمر على الأسلوب التقليدي أي على قبائل الجيش أو قبائل المخزن كالشراقة التي اعتمد عليها المولى الرشيد، وأضاف إليها عرب زرارة والشبانات نقلهم من الحوز في الجنوب إلى وجده ثغر المغرب في الشرق وكلفهم بالتضييق على بني يزناسن إذ كانوا منحرفين عن الدولة متمسكين بدعوة الترك. كما أنشأ فرقة من قبيلة الودايا من عرب معقل نقلهم من الجنوب إلى مكناسة وفاس وكانوا أخوال المولى إسماعيل جمعهم بعد استيلائه على مراكش ودعمهم بعناصر أخرى من عرب السوس والمغافره أصهاره. ولكن هذه القبائل سببت له مشكلات أيام السلم بسبب طابعها وطبعها البدويين، وظهر ضعفها لدى أول صدام مع قوة نظامية حديثة كالأتراك. لهذا اتجهت أفكار المولى إسماعيل إلى

(١) الناصري : ج٧ ص ٨٣-٨٤-٨٥.

تشكيل جيش نظامي حقيقي يدين بـالولاء لـه شخصياً. اعتمـد المـولى إسمـاعيل في تشكيل هذا الجيش على العبيد، وكان المنصور قد فعـل ذلـك علـى نطـاق محـدود. يذكر الأستاذ محمد الفاسي أن المولى إسمـاعيل كـان يفكـر بهـذا الحـل عندمـا نظـم جيش الوادبا، وكان بمراكش أحد كتاب الدولة يسمى محمد بن قاسم عليليش[1]. قال للمولى إسماعيل أن والده كـان كاتباً للسلطان المنصور السـعدي وكـان لهـذا السلطان جيش من العبيد وعندي السجل الذي كـان والـدي يرسمهـم بـه واطلعـه عليه وأخبره أنه لا يزال الكثير من أولئك العبيـد بناحيـة مراكـش وأحوازهـا. فـأمر المولى إسماعيل بجمعهم وكتب إلى قواد القبائل يأمرهم بمسـاعدته وجمـع عليليـش في سنة واحدة ثلاثة آلاف فيهم العبد المملوك أو الحر أو الحرطاني (العتيق)[2].

يذكر الناصري أن عليليش لم يترك بتلك القبائل كلها أسود «واتسع الخـرق وعسر الرتق»[3] . وكان بين هؤلاء المتزوج والأعزب، فأمر المـولى إسمـاعيل بشـراء الأماء للعزاب وبدفع أثمان المماليك منهم إلى ملاكهم وجمعهم في معسكر خاص في مشرع الرملة من أعمال سلا. وتابع المولى إسماعيل عمليـة تجميـع العبيـد مـن جميـع أنحاء المغرب حتى تجمع له أربعة عشر ألفاً وكـي يربـط هـؤلاء العبيـد بـه شـخصياً

---

(١) يذكر الناصري: ج٧ ص ٥٦ أن اسم الكاتب أبو حفص عمر بن قاسم المراكشي المدعـو عليليش ولكن الأستاذ محمد الفاسي يصحح هذا الاسم بكتاب لديـه للوزير اليحمـدي، وقعه محمد بن قاسم، كما سماه كذلك المولى إسماعيل في رسالة لشيخ الإسـلام محمـد بـن عبد القادر الفاسي وكذلك الضعيف الرباطي. مجلة تطوان، عدد خاص بمناسبة الذكـرى المئوية الثالثة لجلوس المولى إسماعيل على العرش المغربي ص ١٣.

(٢) الناصري: ج٧ ص ٥٦.

(٣) يذكر الأستاذ الفاسي أن المقصود بهذا القول «إجمال بوصف الحالة التي كان عليهـا أهـل المغرب من الخوف في الوقوع في الرقية لمن كان لون جلدهم أسود أو قريبـاً مـن السـواد هم أو أحد أقاربهم. وقد ضج الـرأي العـام مـن هـذا التدبـير وخصوصـاً وسـط العلمـاء المحافظين على الشريعة المحمدية التي لا تبيح تمليك الأحرار. وهذه المسألة طال الجدال فيها بين الملك وعلماء فاس» مجلة تطوان ص ١٤.

جمعهم وقال لهم: «أنا وأنتم عبيد لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرعه المجموع في هذا الكتاب[1] فكل ما أمر به نفعله وكل ما ينهي عنه نتركه وعليه نقاتل». فعاهدوه على ذلك وأمر بالاحتفاظ بتلك النسخة وأمرهم أن يحملوها حال ركوبهم ويقدموها أمام حروبهم كتابوت بني إسرائيل[2].

وما لبث عدد العبيد أن تضخم لكثرة تناسلهم، فأمر المولى إسماعيل باستدعاء البنين والبنات من عشر سنين فما فوق، وفرق البنات على عريفات داره لتربيتهم وتأديبهن، وفرق الأولاد على البنائين والنجارين وسائر أهل الحرف للعمل والخدمة، وسوق الحمير والتدريب على ركوبها. وفي كل عام كان ينقلهم إلى مهنة وعمل جديدين ثم ينقلهم إلى التدريب على الجندية حتى يكتمل تدريبهم خلال سنتين ينتقلون أخيراً إلى الخدمة العسكرية الفعلية، ويزوجهم من البنات اللواتي اكتمل تهذيبهن. وقيل إن عدد جيش العبيد قد بلغ لدى وفاة المولى إسماعيل (١٥٠) ألفاً كان أكثر من نصفهم موزعاً في القلاع الحربية التي بناها مولاي إسماعيل. لم يتعرض هذا الجيش لخوض معركة حقيقية خارجية، ولكن الحروب المحدودة التي خاضها ضد الحاميات التركية أثبتت ضعف إمكاناته الحربية، أما في الداخل فقد ساعد هذا الجيش مع بقية الفرق العربية في إرهاب القبائل المغربية الثائرة بفضل تفوقه في العدد والسلاح. إلا أن هذا لا يعادل الخطر الذي نجم عنه عقب وفاة المولى إسماعيل، فقد لعب في حياة البلاد السياسية الدور نفسه الذي لعبه أتراك المعتصم مع خلفائه.

٢ً - استخدم المولى إسماعيل أسلوباً جديداً ولكنه تعسفي في إخضاع القبائل الثائرة وتصفية بلاد السيبه، بدأ بالقبائل التي تقطن السهول والبوادي فأخضعها وظل يضغط على القبائل الجبلية ويلاحقها حتى يحاصرها في المناطق الجبلية، ثم يطوقها ويهاجمها من جميع الجهات مستخدماً في ذلك المدفعية الثقيلة

(١) صحيح البخاري .

(٢) الناصري : ج٧ ص ٥٦-٥٧-٥٨ .

وكان كل ما أخضع قبيلة يجردها من وسائل الحرب «الخيل والسلاح» وعمد بعض قواده إلى تجريدها من المال فلما أنكر عليهم المولى إسماعيل ذلك أجابه أحدهم: «يا مولانا إن كان غرضك في صلاحهم وفلاحهم فهو الذي فعلت لك ولهم. وإن سرت معهم بغير هذا أتعبوك وأتعبوا أنفسهم وإنما طهرتهم من الحرام ليشتغلوا باكتساب الحلال فإنه ينمو ويزكو»[1] .

وعلى قول المؤرخين المغاربة جرد السلطان إسماعيل قبائل المغرب كلها - باشتثناء قبائل الجيش ومجاهدي الريف الذين كانوا يحاربون المراكز الإسبانية - من الخيل والسلاح. وينطبق هذا على كل المناطق باستثناء مناطق الأطلس العظمى حيث كان نجاحه محدوداً بالرغم من جهود عماله في مراكش. ولكن بقاء هذه المناطق في حالة سيبه لم يكن فيه أي خطر فقد كانت مطوقة.

٣ً - وليتأكد المولى إسماعيل من خضوع هذه القبائل كان يقيم القلاع في مناطقها حتى بلغ عدد هذه القلاع (٧٦) قلعة عدا القلاع القديمة التي قام بترميمها وإصلاحها. وقد وزعت هذه القلاع على النحو التالي:

١ - قلاع تراقب مناطق التمرد التقليدية (الأطلس الأوسط، جبال بني يزناس، الملوية ... الخ).
٢ - قلاع تهيمن على طرق المواصلات الرئيسة (طرق تازا ووجدة وفاس وتافللت ومراكش وغيرها).
٣ - قلاع تراقب المدن المهمة.

أخضعت هذه الإجراءات القاسية القبائل العاصية ولكنها لم تقض على روح التمرد لديها. و لم يضع السلطان علاجاً ناجعاً لحالة الفوضى المزمنة، فقد عادت هذه القبائل إلى التمرد عقب وفاته مستغلة الفوضى التي خلقها محاولات جيش العبيد وقبائل الجيش التسلط على أولاد المولى إسماعيل ودفعهم إلى الصراع مع

---

(١) الناصري : ج٧ ص ٧٠.

بعضهم. وكان بإمكن المولى إسماعيل أن ينقذ المغرب من هذه الفوضى المزمنة وأن يحدث إنقلاباً اجتماعياً واقتصادياً لو أنه عمم تجربة فريدة ناجحة طبقها على إحدى القبائل البربرية «آيت إيدارسن» فبعد أن جردها من الخيل والسلاح عوضها بالغنم وألزمها برعايتها وحفظها، وأسقط عنها الوظائف، فصلحت أحوالها، وصارت كل عام تدفع له صوفها وسمنها فيزيدها من الغنم فقلت شوكتها وضعف بأسها[1] . ولوحظ أن هذه القبيلة حافظت على ولائها للمخزن ولم تشارك في تحالف البربر الكبير ضد المولى سليمان.

❑ تحرير الأراضي المحتلة:

كان تحرير الموانئ التي يحتلها الأجانب في مقدمة اهتمامات المولى إسماعيل وقد تأثرت بذلك سياسته الخارجية. ولم تتأثر حركة التحرير بالصراع الداخلي الذي كان المولى إسماعيل يخوضه من أجل توحيد المغرب. قال اليفرني المعاصر للمولى إسماعيل: «من محاسن الدولة الإسماعيلية تنقية المغرب من نجاسة الكفر ورد كيد العدو الكافر»[2].

احتل الإسبان المعمورة سنة ١٦١٤ وتعرضوا دوماً لهجمات أهل سلا والريف وفي سنة ١٦٨١ شدد المجاهدون الريفيون الحصار على المعمورة وأصبحت بحكم المفتوحة وقيل إنهم توقفوا منتظرين حضور المولى إسماعيل الذي سارع لحضور الفتح واستسلمت حاميتها وترك المولى إسماعيل الغنائم لمجاهدي الفحص والريف الذين كانوا مرابطين عليها[3].

احتل البرتغاليون طنجة سنة ١٤٧١ وكانت دوماً عرضة لهجمات المجاهدين

---

(١) الناصري : ج٧ ص ٦٧.

(٢) اليفرني : ص ٣٠٦.

(٣) الناصري ج ٧ ص ٣٤. نقلاً عن الزياني في البستان.

المغاربة وخاصة المجاهد غيلان الذي شدد ضغطه على المدينة، ولم يعد في وسع البرتغاليين تحمل هذه الهجمات فعرضوا على فرنسا تسليمهم طنجة مقابل مساعدتهم ضد الإسبان ولكن مازران رفض هذا العرض. وفي سنة ١٦٥٧ جدد هذه العرض وتكرر رفض الفرنسيين فتحولت البرتغال نحو إنجلترا حيث سلمتها طنجة كدوطة لزواج ابنة ملك البرتغال من ملك إنجلترا[١] . وتسلم الإنجليز طنجة سنة ١٦٦١، وعمل الإنجليز على تحصين طنجة وأقاموا أربع قلاع لإحاطة طنجة بحزام حماية يكفل للمدينة دفاعاً معقولاً. ولكن طنجة بدأت تتعرض لهجمات غيلان منذ ١٦٦٣. ولكن اصطدام غيلان مع المولى الرشيد أضعف موقفه فسعى للتقرب من الإنجليز في طنجة، ثم لجأ إلى طنجة سنة ١٦٦٨ وانتقل منها إلى الجزائر.

وفشلت محاولة الإنجليز التفاهم مع مولاي الرشيد، ومنذ أن تسلم المولى إسماعيل السلطة شدد المغاربة الضغط على طنجة وقد نجح المجاهدون في تدمير قلعتين من حزام الدفاع عن طنجة سنة ١٦٧٨ واستولو سنة ١٦٧٩ على عدد من القلاع. وفي سنة ١٦٨٠ كتب نائب حاكم طنجة إلى الوزير الأول لشارل الثاني «ينبغي أن أعترف بأني لم أرَ مكاناً مدمراً مثل هذا فلا يوجد به شيء واحد في حالة قادرة على الصمود...»[٢] .

وحاولت إنجلترا التفاهم مع المولى إسماعيل بسنة ١٦٨١ وتبادل الطرفان السفارات فزار سفير أنجليزي المولى إسماعيل وزار سفير مغربي «محمد بن حدو العطار» إنجلترا ولكن لم يتم التوصل إلى اتفاق. فكرت بريطانيا لحماية طنجة بتوسيع ممتلكاتها حولها واحتلال المعمورة وسلا، ولكنها صرفت النظر عن هذا المشروع وحلت محله فكرة التخلي عن طنجة نفسها. وقد حاول شارل الثاني بيع طنجة للويس الرابع عشر ولكن المفاوضات لم تنجح، وأخيراً اضطرت أنجلترا إثر اشتداد الحصار، وسوء مركز الحامية البريطانية، وبسبب الخلاف بين البرلمان

G . Hardi : Histoire des colonies française. P. 75-76. (١)

(٢) ب. ج. روجرز : ص ٨٩.

والملك[1] إلى إخلاء طنجة سنة ١٦٨٤ بعد تدمير اللسان الممتد في البحر الذي أقامه الإنجليز والتحصينات. واكتفى المولى إسماعيل بمراقبة عملية الجلاء دون أن يتعرض للإنجليز المنسحبين وتبين من رسالة أرسلها إلى ملك إنجلترا أن المولى إسماعيل كان يراقب عملية الجلاء وكان قد بلغه أن الفرنسيين أبدوا رغبتهم في شراء طنجة ولذلك كان مستعداً لمنع هذا التسليم[2].

وفي سنة ١٦٨٩ نجح المولى إسماعيل بتحرير العرائش وكان الإسبان قد حصلوا عليها من محمد الشيخ السعدي مقابل مساعدته في الصراع مع إخوته زيدان وأبي فارس وقد أثار هذا العمل الشنيع غضب المغاربة الشديد وحزنهم العميق ولبسوا الأحذية السوداء حداداً على فقد العرائش. فلما حرر المولى إسماعيل العرائش أمر بلبس النعال الصفراء والتخلي عن لبس السوداء[3]. وفي سنة ١٦٩١ حرر أصيلا، وأمر بتشديد الحصار على سبته ولم ينجح في فتحها لأنه كان من السهل إيصال المؤن والمدد عن طريق البحر.

علاقات المولى إسماعيل مع الأتراك:

كانت العلاقات عدائية تخللها عدد من المصادمات ولكن هذه المصادمات لم تكن تهدف إلى غرض محدد. فلم يكن لدى مولاي إسماعيل الوسائل اللازمة ليندفع إلى فتح الجزائر. وكان جل اهتمامه منصرفاً إلى استرجاع الأراضي المغربية التي يسيطر عليها الأوربيون، وإلى فرض السلطة المركزية على قبائل السيبة. ولم يكن الأتراك من جانبهم يرغبون في أن يتورطوا في متاعب مع جارهم القوي كانوا في غنى عنها بسبب الأوضاع المضطربة في الجزائر. ولكن هذا لم يمنعهم من تحريض خصوم مولاي إسماعيل و (ابن محرز وغيلان والدلائي) ومساعدتهم ليخلقوا له متاعب تصرف أنظاره عنهم.

---

(١) ذلك أن البرلمان منذ أن تحول دوق يورك إلى الكاثوليكية كان خائفاً من عودة الكاثوليك إلى السلطة وكانوا يخافون من أي تقوية للجيش. وكانت طنجة مركز تجمع واستعدادات عسكرية لصالح الملك. Cossac De Chavrebière. P. 393

(٢) ب. ج. روجرز ص ١٠٠.

(٣) الناصري : ج٧. ص ٧٧.

بدأ الصدام على الحدود الجزائرية المغربيــة الـتي لم تكـن واضحـة وذلـك مـن خلال عملياته التأديبية ضد قبائل المغرب الشرقي. تلقـى المـولى إسمـاعيل صدمـة في أول صدام مع الأتراك سنة ١٦٧٩ حيث تفرقت قبـائل الجيـش العربيـة أمـام هديـر المدفعية التركية. و لم يحاول الأتـراك اسـتثمار هـذا النصـر و لم يكـن لديهـم الوسـيلة لذلك. ولهذا كاتبوا المولى إسماعيل مطالبين بالكف عن التعـرض لبلادهـم والتوقـف عند الحدود التي أقرها أسلافه من العلويين والسعديين. ولكـن الأتـراك لم يطمئنـوا فسعوا إلى تحريض خصومه واتفقوا مع منافسه ابن محـرز، واغتنمـوا فرصـة انشـغال المولى إسماعيل في الداخل فاستولوا على بلاد بني يزناسن سـنة ١٦٨٢ ولكـن المـولى إسماعيل تصدى لهم وردهم حتى تلمسان ولكنه لم يستطع المكـوث داخـل المغـرب الأوسـط. حـاول المـولى إسمـاعيل بالاتفـاق مـع بـاي تونـس مهاجمـة الأتـراك ولكن الحليفين لم يستطيعا تنسيق حركاتهما فهزم الواحد تلو الآخـر سـنة ١٦٩٢ ووافق المولى إسماعيل على طلب السلطان العثماني الذي حثه على عقد الصلـح مـع الجزائر.

وفي سنة ١٧٠١ قام ابنه المولى زيدان حاكم تازا بعدة غارات على الأراضـي الجزائرية ولكنه لم يستطع استثمار نجاحه، توجه المولى إسماعيل بنفسه ليشرف علـى العمليات ضد الأتراك في المغرب الشرقي ولكنه هزم سنة ١٧٠١ وجـرح وكـاد أن يقع في قبضة الأتراك. و لم تثنه هذه الهزيمة وتحـول إلى مهاجمـة الجزائـر مـن الجنـوب ونجح قواده في الوصول إلى منطقة عين مهدي غربي الأغواط. وكان موقف الأتراك ضعيفاً في هذه المنطقة، كما أضعفتهم ثورة القبـائل وثـورات الجنـد. كذلـك شـغل المولى إسماعيل بثورات أولاده.

◻ العلاقات مع أوربا :

كانت أوربا في عصر مولاي إسماعيل في أواخر القرن السابع عشر غارقـة في مشكلات وحروب أثارتها مطامع لويس الرابع عشر. وكان مولاي إسماعيل مطلعـاً

على سير الأمور في أوربا متتبعاً لها[1]. فحاول أن يستفيد من متاعب الدول الأوربية وخلافاتها.

وكانت هذه العلاقات تجري لأغراض عديدة:

١ = لأسباب تجارية وكان المولى إسماعيل مهتماً بالتجارة يفضلها على القرصنة. وكانت التجارة تؤمن له رسوماً منتظمة ١٠٪ على الواردات و ٢٥٪ على بعض الصادرات كالشمع المطلوب بكثرة. ولهذا كان يولي شكاوي التجار اهتماماً ويؤمن حمايتهم[2]. وقد زادت واردات سلا وتطوان عشرة أضعاف وكان هذان الميناءان أنشط موانئ المغرب. كان في تطوان سبعة بيوت تجارية منها ثلاثة فرنسية والباقي إنجليزية وهولندية وأرمنية ويونانية. وكان في سلا مجموعة من التجار الفرنسيين والإنجليز والجنوبيين والبنادقة والفلاماندين، أما موانئ آسفي وأغادير فقد كانت أقل أهمية.

٢ - علاقات حربية ناجمة عن الاحتلال الأوربي لعدد من الموانئ من جهة ولهجمات القراصنة المغاربة والأوربيين من جهة أخرى. ويركز المؤرخون الغربيون على القرصنة المغربية في حين أن القرصنة الأوربية كانت لا تقل نشاطاً وكما كان في المغرب أسرى أوربيون كان في عدد من الدول الأوربية أسرى مغاربة وكانت القرصنة المغربية تعمل لحساب المولى إسماعيل الذي سعى لاحتكارها واصبح يملك نصف سفن القرصنة[3]. ولم يكتف بالعشر. وكان وزراؤه يراقبون غنائم القرصنة ويفرضون عليها الرسوم. ففي سنة ١٧٠١ احتفظ السلطان بـ ٧٠٪ من قيمة البضائع المستولى عليها[4]، ولكن الأفراد الذين لم يعودوا يجنون أرباحاً كبيرة تخلوا عن القرصنة وهبط عدد العاملين في القرصنة. وهناك عوامل أخرى سببت تراجع القرصنة من أهمها نمو البحريات الأوربية وعمليات القمع القاسية ولهذا فضل المولى إسماعيل الحد من نشاط القرصنة.

---

(1) Cossac De Chavrebière. P. 389-390.
(2) Brignon : P. 248.
(3) Brignon : P. 247. .
(4) Brignon : P. 247.

٣ - مسائل افتكاك الأسرى أو تبادلهم. كانت هذه المشكلات معقدة، وكانت الحكومات الأوربية تجد في هذه المسألة حرجاً لأنها نوع من الإذلال. ولهذا تركتها في الغالب للمؤسسات الدينية. وكانت من جهة أخرى ترفض تحرير الأسرى المسلمين المجبرين على العمل القاسي في السفن الأوربية، وكان المولى إسماعيل يهتم بالأسرى الأوربيين لفائدتهم في بناء قصوره أولاً ولاستخدامهم كفنيين في الأسلحة الحديثة. وقد كثر حديث الأوربيين قناصل وسفراء ورجال دين يعملون في افتكاك الأسرى وأسرى محررين عن قسوة المغاربة في معاملتهم ولكننا لا نجد سوى القليل والنادر عن قسوة للأوربيين في معاملة الأسرى المغاربة.

• العلاقات مع فرنسا :

بدأت فرنسا لويس الرابع عشر تفكر في إيجاد مركز فرنسي في المغرب وفي سنة ١٦٤٤ ظهرت فكرة احتلال طنجة. ذلك أن البرتغال التي انفصلت عن إسبانيا سنة ١٦٤٠ وانفصلت معها مستعمراتها السابقة في المغرب مازاغان وطنجة. ولكن طنجة ظلت معرضة لخطر الأسطول الإسباني الذي كان يجوب مضيق جبل طارق ويوقف وصول التموين إلى طنجة. وفي الوقت نفسه كانت طنجة معرضة لهجمات المغاربة. فكر البرتغاليون في تسليم طنجة إلى لويس الرابع عشر مقابل نجدة فعالة. وقد نصح القنصل الفرنسي في لشبونه مازران بشدة لقبول هذا العرض المفيد، وبدأ الأميرال دوكسني يستطلع المكان. لكن مازران رأى أن طنجة تحتاج إلى مال ورجال هناك حاجة إليهم في مكان آخر[١] . وقد تجدد العرض غداة وفاة جان الرابع ملك البرتغال فقد مالت ملكة البرتغال دونا لويزا إلى التحالف مع فرنسا وتسليم طنجة كدوطة لزواج لويس الرابع عشر من ابنتها كاترين دوبراجانس ولكن فرنسا لم تكن متحمسة للمشروع وحينئذٍ تحولت البرتغال نحو إنجلترا وسلمتها طنجة، وحينئذٍ ظهرت قيمتها الحقيقية لدى فرنسا[٢].

وفي أوائل عهد مولاي الرشيد وقبل أن يستتب الأمر في المغرب ظهرت مبادرة الإخوة ميشيل ورولاند فريجوس اللذين أسسا شركة لاستغلال المراكز

---

(1) G . Hanotaux et A. Mortineau : Histoire des colonies française. P. 75.

(2) G . Hanotaux et A. Mortineau : Histoire des colonies française. P. 75-76.

الفرنسية في الجزائر وتونس وصمموا على إنشاء مركز فرنسي مماثل في المغرب على ساحل المتوسط إلى جانب المراكز الإنجليزية والإسبانية واختاروا الحسيمه ولقيوا تشجيعاً من كولبير. توجه فريجوس إلى تازا لمقابلة مولاي الرشيد سنة ١٦٦٥ ولقي لديه ترحيباً واستعداداً لتلبية مطالبه مقابل الحصول على أسلحة كان بحاجة إليها. ولكن عندما عاد فريجوس إلى المغرب سنة ١٦٧٠ كان الموقف قد تغير فقد نجح مولاي الرشيد في السيطرة على المغرب وبدا متصلباً مع الأجانب. ولعله لم يرغب أن يورط نفسه في علاقات مع الأوربيين تؤثر في نظرة المغاربة إليه. كما أنه شك في موقف فريجوس الذي لم يلتزم الحذر في موضوع الحصن. واعتقل مولاي الرشيد فريجوس[1].

تغير الموقف في عهد مولاي إسماعيل، فقد أبدى استعداداً طيباً لإقامة علاقات وثيقة مع فرنسا، ومنحها امتيازات تجارية وملاحية واسعة. وكان مقابل ذلك يأمل بالحصول على مساعدتها ضد عدوتيه إسبانيا وإنجلترا، مستغلاً العلاقات العدائية بين فرنسا وهاتين الدولتين. وعد مولاي إسماعيل الفرنسيين بأن القراصنة المغاربة سيحترمون السفن الفرنسية، ووعد بمنحهم حق إخراج كل البضائع المغربية وحتى تلك التي كان مولاي الرشيد قد حظر خروجها كما وعد بتسهيل شراء الأسرى. وبالرغم أن السفن الفرنسية قامت بعمليات قصف لبعض الموانئ المغربية فإن الاتصالات ظلت مستمرة بواسطة القائد المغربي ابن حدو في الشمال وفي سنة ١٦٨١ وقعت مشروع معاهدة تنص على شبه تحالف وذلك في المعمورة. لكن لويس الرابع عشر رفض تصديق المعاهدة واستمرت مطاردة السفن الفرنسية للسفن المغربية.

وفي أواخر سنة ١٦٨٦ قرر مولاي إسماعيل إرسال سفارة إلى باريس على رأسها الحاج محمد تومين حاكم تطوان. كان استقبال السفير حسناً في البلاط وخارج البلاط فقد زار الأوبرا واللوفر والمكتبة والصوربون وأقيم له استقبال في نوتردام واختلط بعدد من الأوساط الاجتماعية والأدبية. وعقد مشروع معاهدة

(1) G . Hanotaux et A. Mortineau : Histoire des colonies française. P. 78.

تضمن للفرنسيين حرية الملاحة والتجارة وتبادل الأسرى أو افتكاكهم، وتسمح بوجود عدد من القناصل الفرنسيين و لم تتضمن أي إشارة إلى تحالف بين البلدين.

كان السلطان مستعداً لتوقيع المعاهدة لولا أن وصلت سفارة فرنسية برئاسة البارون دوسانت آمان تحمل مقترحات بإجراء تعديلات في شروط المعاهدة: عدم زيارة المغاربة للسفن الفرنسية، تعديل مدة المعاهدة من ست سنوات إلى معاهدة دائمة أو على الأقل مدة لا تقل عن عشرين عاماً. ورفض فرنسا تسليم الأسرى المغاربة العاملين مجدفين في السفن الفرنسية. وقد أحيطت هذه السفارة بجو من التعالي قصد ملك فرنسا أن يقلل من قيمة السلطان وألا يعامله معاملة الند للند وستكون هذه السياسة التي سماها جوليان «دبلوماسية الغطرسة Diblomatic de prestege »[1] سبب خراب التجارة الفرنسية.

- **سبب خراب التجارة الفرنسية في المغرب:**

صدق السلطان المعاهدة ولكنه رفض التعديلات الخاصة بالأسرى التي ظلت قضيتهم معلقة. واعتبر هاردي أن السفارة أحرزت نصف نجاح[2]. استأنف مولاي إسماعيل المفاوضات بالنسبة لموضوع الأسرى وأرسل سفارة ثانية برئاسة محمد تومين ولكنها لم تصل إلى باريس بسبب عراقيل وضعتها السلطات الفرنسية في طولون. وتابع الفرنسيون هجماتهم على السفن المغربية ومظاهراتهم البحرية أمام موانئ المغرب مستفزين مشاعر المغاربة. ولكن سياسة الاستفزاز هذه لم تثمر. وفي سنة ١٦٨٨ تبين للملك أن هذه السياسة لا يمكن أن تستمر فقد شغلت فرنسا بالحرب في أوربا. وأرسلت فرنسا مبعوثاً إلى المغرب بهدف تجديد معاهدة سنة ١٦٨٢ ولكنه فشل في مهمته بسبب موضوع الأسرى. كان المولى إسماعيل على إطلاع على مجريات الأحداث في أوربا، فرغب أن يستغل مصاعب فرنسا للحصول على تنازلات. واقتصر الأمر على هدنة ريثما يتم الوصول إلى سلام بين الطرفين.

(1) Ch. A. Yulien : Histoire D'Afrique du nord. P. 501.
(2) G. Hardi : P. 85.

وفي سنة ١٦٩٠ استءنفت المفاوضات في الوقت الذي حققت فرنسا فيه نجاحاً في أوربا. كلف لويس الرابع عشر قنصل فرنسا في سلا التفاوض مع السلطان لإعادة السلام بين الطرفين. ويقول هاردي لقد تبين بوضوح بهذه المناسبة أن ما يبعد بين هذين العاهلين أمر آخر غير عدم اتفاق المصالح وأن المسألة مسألة غرور وعجرفة فقد كان لويس يعامل المولى إسماعيل بتعالٍ وكأنه أدنى مرتبة من الملك ولم يكن المولى إسماعيل أقل اعتداداً وغروراً بعظمته وعظمة بلاده. ولهذا رفض القائد علي بن عبد الله التفاوض مع قنصل سلا الذي كان في نظره مجرد تاجر بسيط وليس من رجال الدولة الكبار وطالب بحضور سفير جدير بهذه المهمة[1]. واضطر لويس إلى إرسال سفير من حاشيته بيدودوسانت أولون في مطلع سنة ١٦٩٣ الذي وصل في وقت أحرز الفرنسيون فيه نصراً بريا باستيلائهم على تامور وأصيبوا بكارثة بحرية. وكان المولى إسماعيل مطلعاً على هذه الأمور فبدا متشدداً وفشلت المفاوضات. وتأثرت التجارة الفرنسية بهذا الفشل. ساعدت انتصارات لويس الرابع عشر في أوربا على استئناف المفاوضات وأرسل مولاي إسماعيل سفارة برئاسة ابن عائشة أمير البحر المغربي لقيت استقبالات حافلة منذ نزولها في برست سنة ١٦٩٨ حتى وصولها إلى باريس تخلل الرحلة زيارة إلى موقع معركة بواتييه حيث صلى بن عائشة على أرواح الشهداء[2]. ولقي ترحيباً كبيراً في باريس زار خلال إقامته التي امتدت أربعة أشهر الأماكن المهمة في باريس. ولكن مقابلة الملك كانت أقل حرارة من شعبه وظل حريصاً على المحافظة على مسلك التعالي. وفشلت المفاوضات أيضاً مما أثار غضب المولى إسماعيل الذي كتب إلى لويس: «.. لقد كان على ابن عائشة أن يعود.. ذلك لأننا لسنا بحاجة إلى شيء من عندكم... إن عَنابرنا المشمولة برعاية الله مليئة بالخيرات.. إن السلم أو الحرب معكم لا يهمنا أبداً»[3].

---

(1) G. Hardi : P. 87.

(2) Hardi : P. 89.

(3) Yulien : P. 501 et Hardi : P. 91.

غير أن المولى إسماعيل لم يقطع المفاوضات بل كان يـأمل أن يوثـق العلاقـات بين البلدين برباط المصاهرة كما كان يجري بين الدول الأوربية فعرض الـزواج مـن الأميرة كونتي ابنة لويس مـن عشيقته، مـع احتفاظهـا بديانتهـا. أثـار هـذا العـرض سخرية الكثير في فرنسا. وكان الرد وقحـاً إذ طلـب مـن المـولى إسمـاعيل أن يعتنـق المسيحية هو وشعبه.. ومنذ ذلك الوقـت بـدأ موقـف الفرنسـيين بـالتدهور، سـاعد على ذلـك تطـورات مهمـة. فقـد انتقلـت التجـارة الفرنسـية في المغـرب إلى أيـدي الهجنوت الذين هربوا من فرنسا بعد إلغـاء مرسـوم نـانت، وبسـاعد هـؤلاء هولنـدا وأنجلترا على حساب فرنسا. كما أن التطورات التي رافقت حرب الوراثة الإسـبانية (١٧٠١ - ١٧١٣) أسهمت في انقطاع العلاقات الفرنسية المغربية. ذلك أن اعتلاء فيليب الخامس (حفيد لويس الرابع عشر) عرش إسبانيا أدى إلى تغير سياسة فرنسـا الإسبانية. كما أن احتلال الإنجليز لجبل طارق وموقفهم العدائي مـن إسـبانيا حـوَّل مولاي إسماعيل نحوهـم. ونتيجة لهذا كله لم يعد للقناصل الفرنسيين عمـل، فغـادروا المغرب بين سنة ١٧١٠-١٧١٢ وظلـت فرنسـا خـلال (٤٠) سـنة بـدون ممثلـين، وتعطلت تجارتها مع المغرب وهكذا كما قال جوليان: «إن خراب التجارة الفرنسية كان فداء لمجد الملك»[١] .

العلاقات المغربية الإنجليزية :

تاثرت العلاقات المغربية الإنجليزية في بدايـة حكـم المـولى إسمـاعيل بموضـوع الاحتلال الإنجليزي لطنجة. لكـن إخـلاء الإنجلـيز طنجـة كـان بـادرة جيـدة لقيـام علاقات طيبية بين البلديـن. انعكـس رضـاء المـولى إسمـاعيل عـن القـرار الإنجلـيزي بالجلاء عن طنجة في قراره إطلاق سراح عدد من الإنجلـيز والبرتغـاليين ممـن طـالت فترة أسرهم وحصل مقابل ذلك على كمية من البارود[٢]. ولكن بقي عدد الأسرى

(١) Julien : P. 502.

(٢) ب. ج. روجرز : ص ١٠١.

الإنجليز قدر عددهم بأربعمائة، بقيت مسألة تحريرهم تعكر صفو العلاقات الإنجليزية المغربية لعدة سنوات.

توقفت العلاقات الدبلوماسية بين الطرفين في عهد جيمس الثاني (١٦٨٦-١٦٨٨) الذي أطيح به بالثورة البيضاء سنة ١٦٨٨ واعتلى وليم أورنج الهولندي عرش إنجلترا.

رحب المولى إسماعيل بمجيء وليم أورانج (وليم الثالث)، واستؤنفت الاتصالات الدبلوماسية سنة ١٦٨٩ وكان الموضوع الأساسي تحرير من تبقى من الأسرى الإنجليز وعدد من البروتستنته الفرنسيين. فشلت المفاوضات بحجة أن السلطان طلب مبلغاً كبيراً مقابل تحرير الأسرى. أدى هذا الفشل إلى قيام المولى إسماعيل بمحاولة غريبة، فقد اتصل بالملك الإنجليزي المخلوع جيمس الثاني الذي كان يعيش في فرنسا لدى لويس الرابع عشر. دعا المولى إسماعيل جيمس الثاني سنة ١٦٩٨ إلى اعتناق الإسلام، أو التخلي عن الكاثوليكية واتباع الكنيسة الإنجليزية حتى يمكنه استعادة ولاء رعاياه. عرض المولى إسماعيل على جيمس الثاني مساعدته لاستعادة عرشه، ونصحه بالانتقال إلى البرتغال ليكون قريباً من المغرب مما يسهل المباحثات مع السلطان في مسألة الغزو المقترح[1]. لكن المفاوضات التي استؤنفت بين المغرب وإنجلترا بين ١٦٩٩ - ١٧٠١ نجحت، وتم الاتفاق أن يقدم الجانب الإنجليزي مائة من أزندة البنادق، وستمائة وزنة من البارود عن كل أسير، وأن يسلم الإنجليز أسيراً مغربياً مقابل كل أسير منهم وأن يدفعوا عشرة آلاف ريال، وأن يكون للسلطان الحرية في إنفاق هذا المبلغ في إنجلترا على المشتريات التي يريدها.

ولكن العلاقات ساءت من جديد قبل أن ينفذ الاتفاق بسبب سبته، ذلك أن السلطان قرر تحرير سبته وفرض عليها حصاراً. كان وليم الثالث يسعى آنذاك لضم

---

(١) ب. ج. روجرز: ص ١٠٥ كان هناك ود خاص بين المولى إسماعيل وجيمس الثاني، ذلك أن جيمس حين كان قائداً أعلى للأسطول الإنجليزي أسرت إحدى السفن أبرز القادة البحريين المغاربة عبد الله بن عائشة فتوسط جيمس لإطلاق سراحه دون فدية.

إسبانيا إلى سياسته المناهضة لفرنسا في أوربـا، واقـترح التوسـط في موضـوع سـبته، ونصح السلطان بإنهاء الحصار كخطوة مبدئية. ومع ذلك نفذ الاتفاق السابق حول الأسرى بعد أن نفذ كل طرف ما يترتب عليه.

وفي سنة ١٧٠٢ نشبت حرب الوراثة الإسبانية، وتوفي وليم الثـالث وخلفتـه الملكة آن. تزعمت إنجلترا في هذه الحـرب تحالفـاً ضـد فرنسـا. وأثنـاء هـذه الحـرب استولى الإنجليز على جبل طارق سنة ١٧٠٤ مما سيكون له تأثير على العلاقات مـع المغرب[١] ، وتم تحرير باقي الأسرى الإنجليز، وفي الوقت نفسه تدهـورت العلاقـات المغربية الفرنسية.

كان المـولى إسمـاعيل يرغـب في استغلال الصـراع الأوربـي للحصـول علـى مساعدة الإنجليز في تحرير سبته وأرسل مبعوثاً إلى لندن لهذا الغـرض. ولكـن الملكـة آن اعتذرت بلباقة وعللت الملكـة أنـه بعـد عـودة شـارل الثـالث إلى عـرش إسـبانيا ستبذل مساعيها لتشجيع حسن العلاقات الإسـبانية المغربيـة. اسـتمرت الاتصـالات بين الطرفين تخللها عدد من المشكلات الناجمة عن عدم تقيـد الطرفـين بالاتفاقـات. وانتهى الأمر سنة ١٧٢١ بعقد معاهدة سلام وتجارة نصـت علـى إنشـاء قنصليـات وتوسيع التجارة ، وحرية تجوال السفن الإنجليزية في الموانئ المغربيـة، وتقـدم إنجلـترا الأسلحة والبارود والأقمشـة والسـلفات Sulfates وأصبحـت التجـارة البحريـة مـع المغرب حكـراً إنجليزيـاً[٢] ، واحتلـت إنجلـترا المركـز الأول في التجـارة مـع المغـرب وستحافظ على هـذا المركـز حتـى قيـام الحمايـة الفرنسـية سـنة ١٩١٢ وأصبحـت الصداقة الإنجليزية المغربية عنصراً مهماً في السياسة المغربية الأوربية.

١ - فوضى الثلاثين عاماً (١٧٢٧-١٧٥٧) :

مـا أن تـوفي المولى إسـماعيل سنة ١٧٢٧ حتـى غرقـت البـلاد في فوضـى

---

(١) ساعد المغرب إنجلترا على الإستيلاء على جبل طارق وعلى الاحتفاظ به. انظر:
Coissac De Chavrebière. P. 390.

(٢) Brignon: P. 253.

سريعة، وعرف المغرب أخطر أزمة في تاريخه، تحكم الجند العبيد والودايا في مكناسة وفاس وفي مقدرات البلاد السياسية والاقتصادية، و لم يكن السلاطين الذين تعاقبوا في هذه الفترة وكلهم من أولاد المولى إسماعيل إلا لعبة في أيدي الجند ولا سيما العبيد(١) ، يعينونهم ويعزلونهم حسب هواهم بانتظار المكافآت لدى مجيء كل سلطان(٢)، حتى إنهم عينوا وعزلوا عشرين سلطاناً حكم واحد منهم مولاي عبد الله بين ١٧٢٩-١٧٥٧ وعزل ست مرات. وكان كل هؤلاء السلاطين ضعفاء الشخصية فاسدي السيرة عمدوا لشراء رضى الجند إلى نهب الناس والفتك بالبارزين والموسرين منهم(٣) ، و لم يكن أي واحد منهم يتمتع بشيء من الجدارة والقوة والهيبة التي كانت لأبيه. وقد حاول بعضهم التخلص من تسلط العبيد

(١) يقول الناصري: «كان أول من عين من أولاد المولى إسماعيل مولاي أحمد المعروف بالذهبي وبايعوه بإشارة من العبيد الشبيهة بالجبر و لم يكن ذلك عن عهد من أبيه افتتح أعماله بقتل عمال أبيه.. يشير عليه العبيد فيفعل وما قتل من قتل من رؤساء الدولة إلا بإشارتهم» الناصري : ج٧ ص ١١٤-١١٥.

(٢) عزل الجند أحمد الذهبي وعينوا عبد الملك سنة ١٧٢٨ «أمسك يده عن العطاء.. فكان ذلك من أكبر الأسباب في اختلاف أمره وتفسخ دولته فطلب منه العسكر البخاري جائزة البيعة فبعث إليهم بأربعة آلاف مثقال، وكان راتبهم على عهد السلطان المولى إسماعيل رحمه الله مئة ألف مثقال ولما بويع المولى أحمد زادهم في الراتب خمسين ألف مثقال». الناصري : ج٧ ص ١٢٠. «أعاد العبيد المولى أحمد وفرق الأموال والكساء في العسكر والأشراف وبالغ في ذلك...» الناصري ج٧ ص.١٢٢. «وخلع الجند مولاي عبد الله وبويع محمد بن إسماعيل المعروف بابن عربية الذي فرق المال على العبيد فلم يقتنعوا ما استزادوه، فأطلق عفا الله عنه أيدي النهب في أموال المسلمين في فاس ومكناسة.. هذا والناس في محنة عظيمة من المجاعة والفتنة ونهب الدور بالليل.. وصار جل الناس لصوصاً» ج٧ ص ١٤٥.

(٣) نال أهل مكناسة من مولاي عبد الله الكثير من عسفه: أعطى دار أحد القضاة إلى أحد العبيد، وقال للعبيد من أراد منكم داراً بمكناسة فليأخذها فامتدت أيدي العبيد في الناس حتى صاروا يقفون بالأبواب ويقول العبيد لصاحب الدار «إن سيدي أعطاني دارك أو أعطاني ابنتك» فيفتدى منه بالمال. الناصري ج٧ ص ١٥٢.

اللجوء إلى قبائل الجيش الأخرى ولا سيما الودايا أو قبائل البربر ولكنهم كانوا يستبدلون سيداً بسيد. ولكن مما يسترعي الانتباه أنه بالرغم مما تعرضت له السلطة من إذلال وعبث، وبالرغم من الفوضى وتعاقب هذه السلسلة من السلاطين الضعفاء ظلت البلاد مخلصة للأسرة العلوية و لم تقم أي محاولة للقضاء عليها، ولعل هذا أهم نتائج عمل مولاي إسماعيل.

كان العبيد يسيطرون على مكناسة التي أصبحت منذ عهد مولاي إسماعيل عاصمة المغرب، وكان العبيد قد وصلوا في أواخر عهد مولاي إسماعيل إلى درجة كبيرة من القوة. تضخم عددهم وقوي نفوذهم في المخزن والجيش وكانوا متمركزين في مكناسة ومشرع الرملة وفي القلاع التي أنشأها المولى إسماعيل. كان كل همهم أن يعثروا على سلطان يدفع لهم أجوراً أكثر وأن يستمر في إرضاء مطالبهم التي لا تتوقف عند حد. وكانوا على الدوام مستعدين للانقلاب على السلطان الذي يعجز عن تلبية مطالبهم. كما أهملوا المسائل العسكرية وفقدوا روح الانضباط وتحولوا إلى عصابة عسكرية لا هم لها إلا السلب والنهب والاعتداء على الآمنين العزل. وفقدوا كل ميزاتهم العسكرية وأصبحوا موضع كره ونقمة المغاربة، واحتقرتهم القبائل حتى بلغ الأمر أن هذه القبائل كانت تهزم العبيد فتكتفي بتجريدهم من السلاح وتعيدهم أذلاء. واضطر عبيد مشرع الرملة إلى مغادرتها بعد أن كثرت غارات القبائل عليها ونهبها. وهجر جند القلاع مراكزهم وهرعوا إلى مكناسة ليشاركوا في لعبة تغيير السلاطين والنهب. وأدى تجمع العبيد في مكناسة إلى خراب المدينة وإفقار الناس وأعمال القتل والنهب وانتشرت المجاعة وأصبح جل الناس لصوصاً» كما يقول الناصري.

وكان الودايا يقيمون في ضواحي فاس، وكانوا القوة الثانية بعد العبيد، وقد عملوا في فاس مثلما عمل العبيد في مكناسة و لم يكونوا بعيدين عن لعبة تغيير السلاطين. واستغلت القبائل ولا سيما قبائل البربر موت المولى إسماعيل وبدءوا يشاركون في الفوضى، فحصلوا على الخيل والسلاح واستعادوا استقلالهم، وبدءوا يشاركون في الفوضى والصراع بين الإخوة. وزاد في استياء البربر والعبيد ما سمعوه من المولى عبد الله «أردت أن أقابل هذا التيس الأسود (يعني العبيد) بهذا التيس

الأبيض (يعني البربر) وأستريح من غصة من هلك منهما وأتمسك بالآخر». فقالوا «لم يبق لنا شك في أن هذا الرجل لا غرض له إلا في هلاكنا فانظروا لأنفسكم أو دعوا»[1] . وقد أدى هذا إلى ثورة البربر وثورة العبيد.

وبين ١٧٥٠-١٧٥٧ عاد الهدوء ببطء فقد مل الناس الفوضى وأضعفت الصراعات القوى المتصارعة وانزوى مولاي عبد الله، وكانت أيامه ولا سيما في أخرياتها كأيام الفترة التي ليس فيها سلطان. وصار السلطان الحقيقي مولاي محمد الذي استطاع السيطرة على الجنوب وصار بإمكانه استئناف التجارة الصحراوية والبحرية عن طريق موانئ الجنوب مما وفر له المال والقوة.

مولاي محمد بن عبد الله (١٧٥٧-١٧٩٠):

يقول الناصري «لما توفى المولى عبد الله كان الناس قد سئموا الهرج والفتن وأعياهم التفاقم والاضطراب، وملوا الحرب وملتهم، وكانت أيامه ولا سيما في أخرياتها كأيام الفترة التي ليس فيها سلطان.. فكان ذلك من أقوى الأسباب التي صرفت وجوه أهل المغرب كله إلى بيعة السلطان سيدي محمد رحمه الله»[2] .

برز مولاي محمد بوصفه خليفة لوالده في مراكش، وكانت الحالة في الجنوب سيئة بسبب فوضى القبائل، وكانت مراكش يومئذ خراباً «ليس فيها إلا آثار السعديين والموحدين قبلهم ، وقد أخنى عليها الدهر وعشش بها الصدا والبوم»[3]

لقي مولاي محمد في بادئ الأمر مقاومة قبيلة الرحامنة القوية، واضطر إلى مغادرة مراكش واللجوء إلى آسفي، وانصرف فور وصوله إليها إلى تنشيط التجارة فيها. وسرعان ما جذب إليه أهل تلك المنطقة، والتفت حوله قبائل عبده وأحمر. شجع مولاي محمد التجار الأجانب على المجيء إلى آسفي، فقصدها هؤلاء بالبضائع يبيعون بها ويشترون «وكثرت الخيرات وتمت البركات..» وما لبثت الرحامنة أن

---

(١) الناصري : ج٧ ص ١٧٥.

(٢) الناصري : ج٨ ص ٣.

(٣) الناصري : ج٧ ص ١٩٣-١٩٤.

أظهروا ندمهم لمولاي محمد ودعوه إلى العودة إلى مراكش. استطاع مولاي محمد أن يعيد الأمن والسلام إلى الجنوب بفضل قوة ألفها ممن لجأ إليه من العبيد وقبائل الحوز وعبده وأحمر والرحامنه، في الوقت الذي ضعف أمر والده وانزوى في فاس مهملاً، وصارت البلاد وكأن لا سلطان فيها. وبدا حينئذٍ أن مولاي محمد هو السلطان الفعلي، إذ لم يكتف بتوطيد سلطته في الجنوب بل تدخل في مناطق الغرب والشمال فغزا بلاد الشاوية ودخل الرباط وتطوان وطنجه. وبلغ الأمر أن بايعه العبيد المتمردون على والده مرتين ولكنه رفض بيعتهم وأعادهم بالحسنى لطاعة والده[1].

كان مولاي محمد الرجل المناسب في الوقت المناسب. كان قوياً حسن السياسة متأثراً بجده العظيم في حزمه مع القبائل التي حاولت أن تعود إلى بلاد السيبه، ومن ميله إلى الجهاد وتحرير البلاد من الاحتلال الأجنبي، ومن ميله إلى العمران. وبالرغم من أنه لم يكن يتمتع بمثل وسائل جده المولى إسماعيل، إلا أنه استفاد من نفور الناس من الفوضى من جهة، وأن القبائل لم تكن قد أفاقت تماماً من الضربة التي وجهها لها المولى إسماعيل. وكان مولاي محمد سلفياً كان يقول: «إنه مالكي مذهباً حنبلي اعتقاداً»[2] . وبالرغم من احترامه الصوفية فإنه لم يكن يتساهل مع المرابطين المنحرفين أو المشعوذين الذين كانوا يستغلون سذاجة القبائل.

اهتم مولاي محمد بإصلاح الجيش والقضاء على روح الفوضى في صفوفه والتي أدت إلى ضعفه وإضعاف البلاد. اعتمد في بادئ الأمر على قوة من العبيد الذين لجؤوا إليه في مراكش ومن جنود من قبائل الجنوب. ثم حاول أن يكسب ولاء الودايا والعبيد بالحسنى والعطاء، ساعده على ذلك المال الذي توفر لديه من تنشيط التجارة في الجنوب، وما وجده من مال وفير في مقر والده في دار الدبيبغ، ومن المكوس التي فرضها على الأسواق، وضرائب على العديد من المنتجات

---

(١) الناصري : ج٧ ص ١٨١-١٨٢-١٨٩.

(٢) الناصري : ج٨ ص ٦٨.

القبائل فيهم وأحل لهم اقتسامهم «وكل واحد منكم يأخذ عبداً وأمة وأولادها، فالعبد يحرث والأمة تطحن، والولد يرعى الماشية. خذوهم وتقلدوا سلاحهم واركبوا خيولهم والبسوا كساهم بارك الله فيكم فأنتم عسكري دونهم. فوثبت القبائل على العبيد واقتسموهم في أسرع من لحس الكلب أنفه، وتوزعوهم شذر مذر وصيروهم عبرة لمن اعتبر»[1] . وبعد بضع سنين أمر بإرجاعهم إلى الجندية فنفعهم هذا التأديب وأصلح أحوالهم، ولكنه كان يكثر من تنقلهم. وليعوض ضعف قبائل الجيش اعتمد مولاي محمد على قبائلَ الحوز.

التفت مولاي محمد لتأديب القبائل التي رفعت رأسها من جديد، فاستعمل أقسى أنواع الشدة نرى نموذجاً لذلك فيما أنزله بقبيلة آيت ايمور البربرية[2] . وطبق مثل هذا الأسلوب مع غيرها من القبائل الثائرة واستعان بخبرة المؤرخ أبو القاسم الزياني في بلاد البربر في إخضاع بربر الأطلس الأوسط وتافيللت[3] . فدانت له القبائل وكسر بذلك شوكتها.

اهتم مولاي محمد بإنشاء أسطول مغربي. يذكر الناصري أن مولاي محمد كتب إلى تجار النصارى بآسفي يأمرهم أن يشتروا «إقامة المراكب القرصانية من صواري ونطاقات وقمن ومخاطيف وحبال وقلوع وغير ذلك فتنافسوا على

---

(١) الناصري : ج٨ ص ٤٧-٤٨.

(٢) بلغ مولاي محمد فساد آيت ايمور بتادلا فمكر بهم وأرسل إليهم يستنفرهم خيلاً ورجلاً وأراهم أنه يريد أن يذهب بهم في سرية هيأها لآيت أومالو.. فلما مثلوا بين يديه أمر أهل رحاه أن يرموهم بالرصاص على زناد واحد، فأطلقوا عليهم شؤبوباً منه تساقط عدد كثير وكان قد تقدم إلى العساكر المستدبرة بهم أن ينفحوهم بالرصاص كلما قصدوا جهة من جهاتهم... وأمر العساكر ينهب حللهم فانتسفوها وسيقت مواشيهم وخيامهم وأثاثهم... ثم نقل من بقي منهم إلى جبل سلفات من أحواز فاس. الناصري : ج٨ ص ٢٧.

(٣) الناصري : ج٨ ص ٤١-٤٢-٤٣ وص ٥٢.

القبائل فيهم وأحل لهم اقتسامهم «وكل واحد منكم يأخذ عبداً وأمة وأولادها، فالعبد يحرث والأمة تطحن، والولد يرعى الماشية. خذوهم وتقلدوا سلاحهم واركبوا خيولهم والبسوا كساهم بارك الله فيكم فأنتم عسكري دونهم. فوثبت القبائل على العبيد واقتسموهم في أسرع من لحس الكلب أنفه، وتوزعوهم شذر مذر وصيروهم عبرة لمن اعتبر»[1]. وبعد بضع سنين أمر بإرجاعهم إلى الجندية فنفعهم هذا التأديب وأصلح أحوالهم، ولكنه كان يكثر من تنقلهم. وليعوض ضعف قبائل الجيش اعتمد مولاي محمد على قبائلَ الحوز.

التفت مولاي محمد لتأديب القبائل التي رفعت رأسها من جديد، فاستعمل أقسى أنواع الشدة نرى نموذجاً لذلك فيما أنزله بقبيلة آيت ايمور البربرية[2]. وطبق مثل هذا الأسلوب مع غيرها من القبائل الثائرة واستعان بخبرة المؤرخ أبو القاسم الزياني في بلاد البربر في إخضاع بربر الأطلس الأوسط وتافيللت[3]. فدانت له القبائل وكسر بذلك شوكتها.

اهتم مولاي محمد بإنشاء أسطول مغربي. يذكر الناصري أن مولاي محمد كتب إلى تجار النصارى بآسفي يأمرهم أن يشتروا «إقامة المراكب القرصانية من صواري ونطاقات وقمن ومخاطيف وحبال وقلوع وغير ذلك فتنافسوا على

---

(١) الناصري : ج٨ ص ٤٧-٤٨.

(٢) بلغ مولاي محمد فساد آيت ايمور بتادلا فمكر بهم وأرسل إليهم يستنفرهم خيلاً ورجلاً وأراهم أنه يريد أن يذهب بهم في سرية هيأها لآيت أومالو.. فلما مثلوا بين يديه أمر أهل رحاه أن يرموهم بالرصاص على زناد واحد، فأطلقوا عليهم شؤبوباً منه تساقط عدد كثير وكان قد تقدم إلى العساكر المستدبرة بهم أن ينفحوهم بالرصاص كلما قصدوا جهة من جهاتهم... وأمر العساكر ينهب حللهم فانتسفوها وسيقت مواشيهم وخيامهم وأثاثهم... ثم نقل من بقي منهم إلى جبل سلفات من أحواز فاس. الناصري : ج٨ ص ٢٧.

(٣) الناصري : ج٨ ص ٤١-٤٢-٤٣ وص ٥٢.

الشراء»[1] وأرسل لهذا الغرض سفراء إلى السويد وانجلترا وفرنسا وتركيا لجلب ما يلزم الأسطول[2] . فأرسل سنة ١٧٦٣-١٧٦٤ الريس الحاج تهامي الرباطي إلى السويد لجلب البارود ومستلزمات السفن. ومنذ سنة ١٧٥٦ وقبل أن يعتلي عرش المغرب وإن كان آنذاك الحاكم الفعلي طالب مبعوثاً إنجليزياً بإمداده بحبال السفن والأشرعة والسلاسل والبارود ليستخدمها القراصنة الموالون في الرباط. وكانت العلاقات مع إنجلترا في توتر فرفض المبعوث الاستجابة للطلب . وفي سنة ١٧٦٢ أرسل السلطان سفيراً إلى إنجلترا هو الحاج عبد القادر عديل هدفه الأساسي شراء الأسلحة والذخائر ومعدات الأسطول، وتم فعلاً إرسال الأسلحة والذخائر والمعدات البحرية إلى المغرب[3] . وفي سنة ١٧٦٦ ارسل السلطان بعثة أخرى إلى إنجلترا برئاسة الحاج العربي المستيري حاكم سلا القديمة وقائد أسطول السلطان سافر على سفينة مغربية «النمر». كان أحد أغراض البعثة إصلاح السفينة النمر وتجديدها تجديداً شاملاً. وكان يسعى في مفاوضاته مع الإنجليز الذين كانوا بحاجة إلى المغرب لتموين جبل طارق إلى السماح بإصلاح سفنه وصيانتها في جبل طارق ولم يكن التجاوب البريطاني مثلما يرغب. وفي سنة ١٧٦١ أرسل الحاج عديل الخياط والطاهر بناني الرباطي سفيرين إلى تركيا وفي سنة ١٧٦٥ أرسل بعثة ثانية إلى تركيا حصلت من السلطان مصطفى على مركب يحمل مدافع ومهاريس وبارود ومستلزمات السفن. وفي سنة ١٧٦٦ أرسل السلطان محمد بعثة أخرى إلى استانبول عادت بمركب يحمل المدافع والمهاريس النحاسية ومستلزمات السفن وفيها ثلاثون من مهرة المعلمين الذين لهم معرفة بصب المدافع وصناعة المراكب القرصانية[4] .

ويرى تراس أن هذه الجهود لم تحقق الغاية المرجوة فالوثائق الأوربية كما يقول لا تشير إلى إحياء حقيقي للبحرية المغربية، وكان أكثر ما تفتقر إليه البحرية

---

(١) الناصري : ج٨ ص ١٢.

(٢) الناصري : ج٨ ص ١٢.

(٣) ب. ج. روجرز: ص ١٤٧.

(٤) الناصري : ج٨ ص ٢٥ و ٣٢ و ٣٢ و Cossac De Chavrebière. P. 407.

الكوادر ورغم جهود السلطان فإن القرصنة كانت في انحطاط[1] . في الوقت الذي قويت به البحريات الأوربية وبهذا مال إلى الاهتمام بالتجارة فاهتم بموانئ الأطلسي وإنشاء موانئ جديدة. ففي سنة ١٧٦٠ عمل على إعمار مدينة أنفا التي أصبحت خالية بعد زلزال ١٧٥٥ فوضع بطارية مدافع قرب الميناء، ورغم الأمواج العالية استخدم المواعين لنقل البضائع من السفن التي تبقى بعرض البحر إلى الميناء. وبنى مسجداً في المدينة وحمامات ومدارس وأحاطها بأسوار وجلب إليها عناصر بشرية من الجنوب ومن دكالا والشاويه. وفي سنة ١٧٦٦ بنى الصويرة (موغادور) مستعيناً بالفرنسي كورنو والإنجليزي الذي اعتنق الإسلام وصار اسمه أحمد الإنجليزي. ويذكر الكاتب الغزال في رحلته «أن السبب في بناء مدينة الصويره هو أن السلطان محمد بن عبد الله كان له ولوع بالجهاد في البحر واتخذ لذلك قراصين حربية تكون في غالب الوقت بمرسى العدوتين ومرسى العرائش وكان سفرها في البحر مقصوراً على شهرين في السنة زمن الشتاء لأن المراسي متصلة بالأودية. وفي غير أيام الشتاء يقل الماء ويعلو الرمل بأفواه المراسي فيمنع من اجتياز القراصين بها، ويتعذر السفر فكر السلطان في حيلة يتأتى بها سفر قراصينه سائر أيام السنة فبنى ثغر الصويرة واعتنى به لسلامة مرساه»[2] . وربما كان هناك سبب آخر وهو منافسة أغادير التي كانت تتعامل مع الثوار والمهربين الأجانب وكان يريد أن يجذب إليها تجارة القوافل من السودان ويسمح لها أن تصبح ميناء تمبكتو[3] . وجلب إليها التجار الأجانب لتنشيط تجارة الميناء الجديد واسقط عنهم الرسوم ترغيباً لهم فهرعوا إليها من كل صوب وازدهرت المدينة واستمر الإعفاء من الرسوم بضع سنين ثم أعاد فرضها كما كان الحال عليه في باقي الموانئ[4] .

---

(١) H. Terrass : tome 2 P. 294.

(٢) الناصري : ج٨ ص ٢٠.

(٣) Brignon : P. 263.

(٤) الناصري : ج٨ ص ٢٠.

واهتم مولاي محمد بحرب التحرير ولكن نجاحه اقتصر على طرد البرتغاليين من مازاغان بعد أن نسفوا معظم المدينة فأعاد بناءها وسميت الجديدة. وفشل مولاي محمد في تحرير سبتة ومليلا التي يحتلها الإسبان في شمال المغرب. واهتم مولاي محمد بتحصين الثغور وتعزيز حامياتها وكان يزيد هذه الحاميات من العطاء.

• علاقات مولاي محمد الخارجية :

أقام مولاي محمد علاقات وثيقة مع المشرق الإسلامي فقد زوج ابنته من شريف مكة، وكان يرسل الهدايا والأموال في مواسم الحج وتخلى عن سياسة أسلافه في التحرش بالأتراك ومعاداتهم. فتبادل السفراء مع السلطان مصطفى الثاني (١٧٥٧-١٧٧٤) وحصل من الدولة العثمانية على أسلحة وذخائر ومستلزمات السفن التي كان بحاجة إليها. كما تبادل مع السلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٤-١٧٨٩) الذي كان يخوض حرباً مع روسيا السفارات وفي هذه المرة جاء العون من مولاي محمد فقد أرسل عدة سفارات تحمل الأموال والأسلحة والسفن إلى الدولة العثمانية. كما أسهم مولاي محمد بتحرير عدد من الأسرى الأتراك وكان يطلب من السلطان العثماني التدخل حين ينشب الخلاف بين المغرب والجزائر[١] .

• العلاقات المغربية الإسبانية :

بالرغم من أن مولاي محمد كان يرغب في تحرير المراكز التي يحتلها الإسبان، إلا أنه لم يكن متعجلاً ولم يبذل جهداً كبيراً لهذا الغرض. ولعله كان متأثراً بضعف إمكانياته العسكرية، وقوة تحصين المراكز الإسبانية[٢] . ورغبته في أن ينشط التجارة

---

(١) انظر إبراهيم شحاته : ص ٤٤٧-٤٤٨.

(٢) يذكر الناصري أن مولاي محمد مر بسبته ونظر إلى حصانتها ومناعتها وتحقق ألا مطمع فيها إلا بالحد وأمر العسكر الذين حوله بإخراج دفعة من البارود.. وأجابهم النصارى بمثل ذلك بالمدافع والكور حتى تزلزلت الجبال... فلما تبين له حالها أرجأ أمرها إلى يوم ما. ج٨ ص ١١ وانظر بالنسبة لمليلا ص ٤٠.

المغربية، ولهذا أبدى استعداداً كبيراً للتفاهم مع إسبانيا. ولم تكن أوضاع إسبانيا الداخلية والعسكرية بأفضل من حالة المغرب، فقد بدا وضع المراكز الإسبانية في المغرب يائساً. فبالرغم من متانة التحصينات الإسبانية، وإمكان تموينها من البحر، وقربها من إسبانيا، فإن هذه المراكز كانت أشبه بقلاع محاصرة تكلف إسبانيا نفقات كبيرة دون أن يكون لها مردود اقتصادي، لأن عداء القبائل المجاورة لهذه المراكز، واستمرار هجماتها كان يحول دون قيام علاقات سلمية ولهذا ظهرت في الأوساط الإسبانية الحاكمة ميول إلى التخلص من الأعباء الثقيلة في شمال أفريقيا، وذلك بالتخلي عن هذه المراكز مع الاحتفاظ فقط بوهران في المغرب الأوسط وبسبته في المغرب. وعندما بدأت الاتصالات بين الدولتين حول موضوع تحرير الأسرى أظهر الطرفان استعدادات طيبة. وحسب ما ذكره الناصري جاءت المبادرة من مولاي محمد الذي كان شديد الاهتمام بقضية الأسرى المغاربة في إسبانيا لما وصله من أخبارهم، والضيق الذي يعانون منه. كتب مولاي محمد إلى ملك إسبانيا «إنه لا يسعنا في ديننا إهمال الأسارى وتركهم في قيد الأسر، ولا حجة في التغافل عنهم لمن ولاه الله الأمر: وفيما نعلم أنه لا يسعكم ذلك في دينكم أيضاً»[1]. تلقى ملك إسبانيا شارل الثالث هذه المبادرة بمزيد من السرور فأمر بإطلاق الأسرى المغاربة، ورد مولاي محمد بإطلاق الأسرى الإسبان وغيرهم من الأوروبيين «لتكون للطاغية بذلك مزية على سائر الأجناس»[2] . ورد عليه ملك إسبانيا بهدايا ثمينة.

ووسط ملك إسبانيا مولاي محمد لدى باشا الجزائر لإطلاق سراح الأسرى الإسبان مقابل تحرير الأسرى الجزائريين، وكان عدد الأسرى الإسبان يزيد على أسرى الجزائر بكثير، وقام مولاي محمد بالوساطة ونجح في ذلك[3].

أرسل مولاي محمد سفارة مغربية برئاسة الكاتب أبو العباس أحمد الغزال نجحت في عقد معاهدة سنة ١٧٦٧. نصت المعاهدة على قيام الصلح، وعلى حرية

---

(١) الناصري : ج٨ ص ٢٣.

(٢) الناصري : ج٨ ص ٢٤.

(٣) الناصري : ج٨ ص ٣٨.

الملاحة والتجارة، وإقامة قنصل إسباني عام ونائب قنصل في الموانـئ المغربيـة، على أن يكون للقنصل حق التشريع المدني والتجـاري والجزائـي علـى الرعايـا الإسـبان. كما حصل الاسبان على حق احتكار الصيـد مـن أغـادير حتـى شمـال المغـرب[1] .

ويبدو أنه كان هناك التباس في موضوع الصلح، إذ إن مـولاي محمـد بعـد أن حـرر مازغان من البرتغال سنة ١٧٦٩ عزم على استعادة سبته ومليلا فهـاجم مليـلا سـنة ١٧٧٦. احتج الإسبان وذكروا مولاي محمد أن هذا العمل خرق لمعـاهدة الصلـح. رد مولاي محمد أن الصلح يتعلق بأمور البحر فقط، وأنـه لا يوجـد في المعاهدة مـا يسمح للإسبان بممارسة سيادتهم على أي جزؤ من الأرض المغربية «فأما المدن الـتي في إيالتنا فلا مهادنة فيها، ولو كانت فيهـا مهادنـة لخرجتـم إلينـا ودخلنـا إليكـم». بعث ملك إسبانيا نص المعاهدة بخط الغزال فإذا هـي عامـة في الـبر والبحـر. ويتهـم المغاربة الإسبان بالتزوير فقد ذكر الناصري نقلاً عن بعض الفقهاء أن الغزال كتـب أن «المهادنة بيننا وبينكم بحراً لا براً، وأن الإسبان محو كلمة «لا» »[2] . وعلـى أي حـال تم قبـول التفسـير الإسـباني لأن الهجـوم علـى مليـلا فشـل، ونجـح الأسـطول الإسـباني في منـع الانجليز مـن إيصـال الذخـيرة والسـلاح إلى المغاربـة. وفي سـنة ١٧٨٠وقعت الدولتان اتفاقاً إضافياً منـح الإسـبان امتيـازات تجاريـة علـى حسـاب الإنجليز الذين كانوا آنـذاك في حالـة حـرب مـع إسـبانيا خـلال حـرب الاسـتقلال الأميركية. كما منح الإسبان حق إقامة وامتـلاك ونقـل عقـارات في المغـرب مقـابل إجازة سنوية لتاجرين من فاس بالمجيء إلى قادس ليبادلا الذهـب بالفضـة وأن يدفعـا الرسوم الممنوحة للأمة الأكثر رعاية[3] . وقدم مولاي محمد للإسبان مساعدة مهمة خلال حصارهم جبل طارق ١٧٧٩-١٧٨٣ إذ طرد السلطان خلال هذا الحصـار القنصل الإنجليزي و ١٠٨ من الرعايا البريطانيين الذين كانوا يزودون حاميـة جبـل طارق بالمعلومات من طنجة وتطوان[4] .

---

(١) Maura : La question du Mauroc du point du vue Espagnol. P. 7.

(٢) الناصري : ج٨ ص ٤٠.

(٣) Maura : P. 8.

(٤) M. Barbour A. Survey of North Africa. P. 141-142.

العلاقات الفرنسية المغربية :

شغلت فرنسا خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر بسلسلة حروب قارية طاحنة : حرب الوراثة الإسبانية ١٧٠١-١٧١٣، حرب الوراثة البولونية ١٧٣٣-١٧٣٥، حرب الوراثة النمساوية ١٧٤٠-١٧٤٨ ، وحرب السنوات السبع ١٧٥٦-١٧٦٣. وكانت العلاقات المغربية الفرنسية قد انقطعت منذ ١٧١٢، وقد شغلت هذه الحروب فرنسا عن الاهتمام بشمال إفريقيا والعالم الإسلامي. ولكن هزيمتها في حرب السنوات السبع وخسارتها إمبراطوريتها الإستعمارية في الهند وأمريكا كان بدايةً اهتمام جديد بالبحر الأبيض المتوسط.

بدأت الصلات بين مولاي محمد بن عبد الله وفرنسا في أواخر سني والده، وكان مولاي محمد آنذاك الحاكم الفعلي للمغرب. وقد لعب التاجر المرسيلي جوزيف اتيين راي دور الوسيط، وكان مولاي محمد آنذاك عدواً للإنجليز الذين قدموا مساعدات لأعداء والده[1]. فشلت محاولة راي الأولى في عقد معاهدة بين المغرب وفرنسا. ولكنه لم يتراجع. وفي سنة ١٧٥٦ جدد راي مسعاه لعقد معاهدة بوصفه وسيطاً، ولقي تجاوباً ذلك أن المرسيلي بيير أوغسطين غيس أرسل إلى الوزير المسؤول مذكرة حول المغرب أثارت اهتمامه ووضع ملاحظة «حان الوقت لعمل تسوية ما مع المغرب»[2]. بدأت المحاولة ولكن نشوب حرب السنوات السبع سنة ١٧٥٦ أرجأت المعاهدة مع المغرب مرة أخرى.

وحين انتهت الحرب تكررت المحاولة ولعب راي دور الوسيط أيضاً. ولكن الدوق شوازول الذي كان مهتماً بتقوية البحرية الفرنسية لم يكن يعتقد بجدوى معاهدة سلام مع المغرب، أو على الأقل، كما يقول هاردي، كان يستعد لفرضها بالقوة.

تقدم راي بمشروع معاهدة عرضها على السلطان، تضمنت شروطاً غير مقبولة: افتكاك الأسرى الفرنسيين بسعر منخفض، تخفيض كبير لرسوم الدخول

---

(١) Hardi : P. 102.

(٢) Hardi : P. 103.

بالنسبة للتجارة الفرنسية، منح الفرنسيين مركزاً في المغرب شبيهاً بمركز القال في الجزائر. وقد رفض السلطان بغضب. وقد نشطت البحرية المغربية في هذه الأثناء وأسرت سفينة فرنسية نقلتها إلى العرائش. أرسلت فرنسا أسطولاً قوياً لإرهاب البحرية المغربية واستعادة السفينة، وكانت تأمل من هذه المظاهرة الحصول على تنازلات كبيرة.

قصف الأسطول الفرنسي سلا دون تحقيق نتيجة مهمة ثم هاجم العرائش حيث أصيب الأسطول الفرنسي بنكسة كبيرة فقد فشلت محاولة إنزال قوات في العرائش وتعرضت هذه القوات التي قدر الناصر عددها بخمسة عشر قارباً يحمل ألف جندي[1] لكارثة وخسرت (٤٥٠) رجلاً.

وفي سنة ١٧٦٧ أرسلت فرنسا سفارة برئاسة الكونت دو برونيون نجحت في عقد معاهدة في ٢٨ أيار سنة ١٧٦٧.حوت المعاهدة كل شروط المعاهدات

---

(١) يروي الناصري الواقعة : اقتحم الفرنسيون المرسى بخمسة عشر قارباً عليها نحو ألفاً من الجند «وصعدوا مع الوادي إلى مراكب السلطان التي كانت هناك فحرقوا سفينة منها وهي التي غنمها المسلمون منهم، وعمدوا إلى أخرى فكسروها بالمعاول والفؤوس. ثم تكاثر المسلمون عليهم وردوهم على أعقابهم، ولما رجعوا إلى مراكبهم وجدوا عرب المغرب مع قائدهم حبيب المالكي قد أخذوا بمخنقهم على فم المرسى، وابتثوا لهم على الحجر الذي هنالك. وبعث الله ريحاً من جهة البحر عظمت بها أمواجه ومنعتهم من الخروج فكانوا إذا توسطوا الوادي ليخرجوا ردتهم الريح، وإذا انحازوا إلى أحد الشطين رماهم المسلمون بالرصاص حتى استأصلوا جمهورهم، ثم سبحوا إليهم حتى خالطوهم في قواربهم فاستاقوا أحد عشر قارباً ونجا أربعة، وتقسمهم المسلمون بين قتيل واسير، وتفرقوا في الأعراب والبادية أيدي سبأ ثم أمر السلطان بجمعهم وأعطى كل من أتى باسير منهم مالاً وكسوه فاجتمع منهم نحو الخمسين فبقوا في الأسر إلى أن توسط في فدائهم طاغية الاستنبول». الناصري: ج٨ ص ٢٢. يقدر القادري في نشر المثاني ج٤ العدد بخمسمائة بين قتيل وأسير وقد وصل من الأسرى إلى مولاي محمد نحو الستين ص ١٧٠.

السابقة ولكنها حصلت فيها على امتيازات جديدة كانت منطلقاً للامتيازات المهمة التي ستحصل عليها في القرن التاسع عشر. أعطيت فرنسا حق الأمة الأكثر رعاية، وضمنت حياد المغرب في حال نزاع فرنسا مع النيابات العثمانية في شمال إفريقيا. ويستطيع التجار الفرنسيون أن يخرجوا من المغرب دون رسوم البضائع التي جلبوها ولم يجدوا لها مشترياً في المغرب. وأهم مواد هذه المعاهدة المادة «٨» تنص أن أولئك الذين يعملون في خدمة القناصل من سكرتارية وتراجمة وغيرهم لا يمنعون من القيام بوظائفهم ويعفى من كان منهم من أهل البلاد من أي ضريبة أو تكاليف شخصية، وهذه المادة هي أساس مبدأ الحماية الذي سينظم فيما بعد في معاهدات القرن التاسع عشر. وقد منحت المادة ١١ القناصل الفرنسيين أفضلية على القناصل الآخرين. وأقيمت إثر ذلك قنصلية فرنسية في آسفي ثم انتقلت إلى سلا.

• العلاقات المغربية الإنجليزية :

منذ أن كان مولاي محمد نائباً لوالده في الجنوب كانت علاقاته سيئة بالإنجليز لأنهم كانوا يساعدون أعداء والده. كما أن الإنجليز أسروا سفينة فرنسية سنة ١٧٥٥ في مرسى آسفي مما دعاه إلى إعلان الحرب على إنجلترا، وأصدر أوامره للتجار الإنجليز بمغادرة أغادير، وأصدر مرسوماً يقضي بالاستيلاء على السفن الإنجليزية التي تصل الموانئ المغربية. وفي سنة ١٧٥٦ جرت محاولة للتفاهم فشلت في تسوية المشكلات المعلقة وبخاصة إطلاق سراح الأسرى الإنجليز، واكتفى مولاي محمد بإنهاء حالة الحرب مع التهديد بإعادتها مرة أخرى إذا استمر الإنجليز في تموين عمه المستضيء الثائر في أصيلا[1]. وصرح مولاي محمد في سنة ١٧٥٦ «لقد ثبت لنا أن جوار جبل طارق لنا مصدر أذى دائم... إن الإنجليز الذين يزعمون أنهم أصدقاؤنا صنعوا لنا من الشر أكثر من الإسبان والبرتغاليين[2]».

---

(١) ب. ج. روجرز : ص ١٣٩-١٤٠.

(٢) ب. ج. روجرز : ص ١٤٢.

وحين اعتلى مولاي محمد عرش السلطنة ١٧٥٧ ظلت العلاقات المغربية الإنجليزية في مد وجزر. كان السلطان بحاجة إلى التفاهم مع إنجلترا لحاجته للأسلحة ومعدات السفن، وللسماح بإصلاح سفنه وصيانتها في جبل طارق. وكانت إنجلترا بحاجة إلى المغرب لتموين حامية جبل طارق وسفن الأسطول البريطاني في الموانئ المغربية ، وبخاصة وأن إنجلترا كانت تخوض حرب السنوات السبع ١٧٥٦-١٧٦٣ حين اعتلى مولاي محمد العرش، ثم خاضت حرب الاستقلال الأميركية التي شاركت فيها فرنسا وإسبانيا ضدها إلى جانب الأميركيين. و لم تكن الحكومة البريطانية رغم هذا تلبي دوماً حاجات السلطان للأسلحة، كما أن سلطات جبل طارق كانت ترفض إصلاح السفن المغربية متذرعة بأعذار واهية. وكان رد السلطان دوماً وقف تموين جبل طارق كلياً أو جزئياً، وإغلاق الموانئ المغربية في وجه السفن الإنجليزية، والانفتاح على أعداء بريطانيا فرنسا وإسبانيا. حدث التوتر حين اعتلى مولاي محمد العرش سنة ١٧٥٧ فقد دمرت سفينة إنجليزية سفينة مغربية عند رأس سياتل. وكرد فعل على هذا الحادث احتجز السلطان القنصل الإنجليزي ومرافقيه، وابلغهم أنه لن يتم إطلاق سراحهم قبل الحصول على سفينة بدلاً من سفينته الغارقة[١] . وكإجراء انتقامي أعلن السلطان أنه سيوقف تموين جبل طارق لمدة ثلاثة اشهر. لكن مولاي محمد تراجع حين علم بانتحار القنصل البريطاني السجين، فأطلق سراح مرافقيه، وأعلن تمديد معاهدة السلام لمدة عام تنتهي في شباط سنة ١٧٥٩. وخوفاً من أعمال انتقامية بريطانية ارسل مولاي محمد سفيراً إلى لندن لشرح ملابسات الحادث. كانت إنجلترا تخوض آنذاك حرب السنوات السبع، ولهذا كانت بحاجة إلى إقامة علاقات ودية مع المغرب تعزيزاً للمجهود الحربي البريطاني فتخلت عن التفكير برد فعل انتقامي وسعت لتذليل كل العقبات مع المغرب أرسلت بريطانيا سفارة إلى المغرب نجحت في تحرير معظم الأسرى الإنجليز، وتوقيع معاهدة تجارة وسلام في فاس سنة ١٧٦٠ على الأسس

---

(١) Bignon : P. 277.

نفسها التي قامت عليها المعاهدات السابقة. كان الجانب البريطاني أكثر استفادة بسبب ما حصل عليه من تموين المغرب لحامية جبل طارق وسفن الأسطول البريطاني مما كان يشكل لإنجلترا أهمية بالغة في الحرب والسلم[1]. وتحسنت العلاقات في الستينات، ويبدو أن انتصار بريطانيا في حرب السنوات السبع كان له تأثير في ذلك. ولكن العلاقات عادت إلى التوتر في السبعينات، وسعت إسبانيا لإبعاد مولاي محمد عن إنجلترا ونجحت خلال حرب الاستقلال الأميركية في ذلك. فقد وقف السلطان إلى جانب إسبانيا ووضع تحت تصرف الأسطول الإسباني ميناءي العرائش وطنجه لمدة سنى تنتهي سنة ١٧٨١. وطرد السلطان القنصل الإنجليزي وعدد من رعايا بريطانيا من طنجه دون إنذار[2].

وفي سنة ١٨٧١ أعاد فتح ميناءي العرائش وطنجه لجميع الدول بما فيها إنجلترا. ونجحت سفارة بريطانية سنة ١٧٨٣ في إعادة العلاقات الحسنة وتجديد معاهدة سنة ١٧٦٠ مع إضافة مواد جديدة لصالح إنجلترا. ولكن الجو ظل ملبداً بسبب امتناع سلطات جبل طارق عن الوفاء بالوعد بإصلاح سفن المغرب الحربية، ولأن السلطان أراد سنة ١٧٨٧ إهداء سفينتين حربيتين إلى السلطان العثماني الذي كان يخوض حرباً مع الروس فطلب اقتراض عدد من البحارة الإنجليز للإبحار في السفينتين إلى تركيا حيث تخوف من قيام الروس أو فرسان مالطه بالاستيلاء على السفينتين، ولكن بريطانيا رفضت طلب السلطان تجنباً لاستفزاز الروس[3].

مولاي يزيد (١٧٩٠-١٧٩٢):

كان مولاي يزيد ابناً عاقاً فقد ثار أكثر من مرة على والده بمساعدة بربر كروان تارة ومساعدة العبيد تارى أخرى[4]. وكان مولاي محمد يصفح عنه في كل

---

(١) ب. ج. روجرز : ص ١٤٢.

(٢) ب. ج. روجرز : ص ١٤٦.

(٣) ب. ج. روجرز : ص ١٥٨.

(٤) الناصري : ج٨ ص ٤٥-٤٦ وص ٧٣.

مرة، كما أنه اعتدى على الأموال التي أرسلها والده في موسم الحج لأشراف مكة والمدينة وسائر الحجاز واليمن، مما دعا السلطان محمد إلى إعلان براءته من ابنه، وكتب البراءة في مناشير بعث بها إلى الآفاق وعلق أحدها في الكعبة وآخر في الحجرة النبوية وغيرها في بيت المقدس(1) . وكتب إلى السلطان عبد الحميد كي لا يقبله إذا أوى إليه. استمر مولاي يزيد في المشرق فترة ثم عاد إلى المغرب ولجأ إلى ضريح عبد السلام بن مشيش وظل هناك حتى توفى والده(2) .

أفسد مولاي يزيد في عامين كل ما بناه والده خلال ثلاثة وثلاثين عاماً من توطيد الأمن وتحسين العلاقات مع الدول. كما أنه أعاد الودايا إلى فاس، وأعاد العبيد من الثغور إلى مكناسه، وأفسد عليه قلوب أهل الجنوب الذين كانوا خير عون لوالده، فتمردوا عليه وبايعوا أخاه هشاماً. وأفسد مولاي يزيد العلاقات الودية االتي أقامها والده مع إسبانيا بالرغم من أن إسبانيا حاولت تأكيد هذه العلاقات. فقد عمد إلى من كان بمراسيه من الإسبان من تجار ورجال دين وقبض عليهم وقيدهم بالسلاسل وحبسهم في طنجه، وهاجم طنجه وشدد عليها الحصار دون جدوى(3) . واصيب مولاي يزيد أثناء قتاله مع أخيه هشام وتوفى سنة ١٧٩٢.

٢ - مولاي سليمان (١٧٩٢-١٨٢٢):

انقسمت البلاد بعد مقتل يزيد وبايعت ثلاثة سلاطين: بايع أهل الحوز ومراكش مولاي هاشم، وبايعت بلاد الهبط والجبل في الشمال مولاي مسلمة، وبايعت فاس ومكناسة وقبائل الغرب وسلا والرباط مولاي سليمان. استمر الصراع بين الإخوة أربع سنوات حتى استتب الأمر لمولاي سليمان سنة ١٧٩٦م.

---

(١) الناصري : ج٨ ص ٥٧-٥٨.

(٢) الناصري : ج٨ ص ٥٨ و ٦٤-٦٥.

(٣) الناصري : ج٨ ص ٨١-٨٢.

كان مولاي سليمان أقرب إلى قلب أبيه مولاي محمد من كل إخوته «لسعيه فيما يرضي الله ورسوله، واشتغاله بالعلم والعكوف على سجلماسة وغيرها. ولم يلتفت إلى شيء، مما كان يتعاطاه إخوته الكبار والصغار من أمور اللهو كالصيد والسماع ومعاقرة الندمان ومايزري بالمروءة»[1]. كانت بداية مولاي سليمان قوية على عكس نهايته فقد نجح في التغلب على خصومه، وتوطيد سلطته في كل أنحاء المغرب، وامتدت سلطته إلى الواحات في أقصى الصحراء، وجبي الضرائب من قبائل الريف التي كانت ممتنعة عن دفع الضرائب، وحرر وجده والمغرب الشرقي من الأتراك سلماً.

وسجلت السنوات ١٨٠٥-١٨١٠ أوج حكمه[2]. ولكن الانهيار بدأ منذ سنة ١٨١١ فقد مني صراعه مع بربر الأوسط من ١٨١١-١٨١٨ ثم صراعه مع الشراردة في الجنوب بعد ذلك، بهزائم ثقيلة أسر فيها مرتين فأفقده ذلك كل هيبة، فعمت الفوضى في البلاد وعاد العبيد في مكناسة والوادايا في فاس إلى عصر الفوضى واتسع نطاق السيبه.

• **سياسته الدينية :**

لعل سياسة المولى سليمان الدينية أحد ألأسباب المهمة في ثورتي البرر والشراردة اللتين سببتا إنهيار حكمه.

كان مولاي سليمان كوالده مولاي محمد سلفي النزعة ينفر من انحراف الطرق الصوفية المتفرعة عن الطرق الصوفية الكبرى كالشاذلية، كما كان ينفر من انتشار الدجل بين عدد من المرابطين الذين كانوا يستغلون سذاجة القبائل وجهلها. ويبدو أن بعض هذه الطرق والمرابطين الدجالين كانوا يسهمون في حركات

---

(١) الناصري : ج٨ ص ٨٦.

(٢) يقول الناصري: «وأنفق له في أواسط دولته من السعادة والأمن والعافية ورخاء الأسعار وابتهاج الزمات وتبلج أنوار السعد والإقبال ما جعله الناس تاريخاً وتحدثوا به دهراً طويلاً حتى صارت أيام المولى سليمان مثلاً في السنة العامة». الناصري : ج٨ ص ١١٢.

الفوضى والعصيان وتقوية الروح الإقليمية الانفصالية ولعل أبرز مثال على ذلك الدجال أبو بكر مهاوش الذي شجع ثورة البربر الكبرى[1] . وفي هذه الفترة قوي أمر الوهابيين في الجزيرة العربية وسيطروا على الحجاز وصاروا يعملون على نشر أفكارهم بين حجاج الأمصار. تلقى مولاي سليمان كتاباً من عبد الله بن سعود يدعوه إلى دعوته. وفي سنة ١٨١٢ وجه مولاي سليمان ابنه إبراهيم على رأس وفد من علماء المغرب برسالة جوابية. وقد تأثر الوفد المغربي بمسلك الوهابيين وعدوا أن ما رأوه منهم لا يخالف الشريعة، وأنهم في غاية الاستقامة، وتبين لعلماء المغرب من مناقشاتهم مع الوهابيين اتفاق وجهات النظر. ويبدو أن مولاي سليمان وجد في الأفكار الوهابية وسيلة للقضاء على البدع المخالفة للدين، وضرب نفوذ الطرائق والزوايا في حياة البلاد السياسية. وقد وجه رسالة إلى المغاربة هاجم فيها بعنف البدع والدجل جاء فيها: «... ونغار من استيلاء الشيطان بالبدع على أنواعكم وأجناسكم، فألقوا لأمر الله آذانكم، وأيقظوا من نوم الغفلة أجفانكم، وطهروا من دنس البدع إيمانكم... واتركوا عنكم بدع المواسم التي أنتم بها متلبسون، التي يزينها أهل الأهواء ويلبسون، وافترقوا أوزاعاً، وانتزعوا الأديان والأموال انتزاعاً .. وتسموا فقراء، وأحدثوا في دين الله ما استوجبوا سقراً... وكل ذلك بدعة شنيعة وفعلة فظيعة، وسنة مخالفة لأحكام الشريعة، وتلبيس وضلال، وتدليس شيطاني وخبال، زينه الشيطان لأوليائه فوقتوا له أوقاتاً، وأنفقوا في سبيل الطاغوت دراهم وأقواتاً، وتصدى له أهل البدع من «عساوة وجلالة» وغيرهم من ذوي البدع والضلالة والحماقة والجهالة...»[2] .وتليت هذه الرسالة في كل مساجد المدن بأمر

---

(١) انظر عن آل مهاوش. الناصري: ج٨ ص ١٣٨-١٣٩ «ظهر محمد أو ناصر مهاوش أيام مولاي محمد الذي طارده حتى فر إلى رؤوس الجبال ثم كان له صلة بمولاي يزيد.. ولما هلك محمد ترك عدة أولاد أكبرهم أبو بكر ومحمد والحسن إلا أنهم اتبعوا مسيرة أبيهم في مجرد التدجيل والتمويه على جهلة البربر وتثبيطهم على طاعة السلطان...».

(٢) أبو القاسم الزياني : الترجمانه الكبرى، ص ٤٦٧.

السلطان، وعدّها المرابطون بمثابة إعلان حرب، ولعلها أسهمت في حدة المشكلات التي واجهها مولاي سليمان.

ولكن مولاي سليمان كان يحترم رجال الدين وزعماء الطرائق الذين عرف فيهم الصلاح. قرب إليه زعيم التيجانية وهي طريقة سلفية تنادي بالعودة إلى الإسلام كما كان في عصوره الأولى وتحارب زيارة قبور الأولياء والمواسم وكان زعيم هذه الطريقة الشيخ أبو العباس أحمد التيجاني قد لجأ إلى المغرب هرباً من اضطهاد الأتراك. ويرى تراس أن السلطان كان يفكر بهذه المناسبة النضال ضد الطرائق القديمة بمواجهتها بمنافس[١] .

وكمسلم مثقف وتقي زاهد ألغى مولاي سليمان المكوس على الأبواب والأسواق التي كان العلماء المغاربة يعدونها غير شرعية، واعتمد في نظامه المالي على الضرائب الشرعية، ويرى تيراس أن هذه المحاولة في استخدام الإسلام السنى لم تحقق له حتى طاعة المدن[٢] .

• **ثورة البربر :**

بدأ الصراع مع البربر سنة ١٨١١ وتعود أسباب هذا الصراع إلى تمسك السلطان بقائد فرضه على البربر دون إرادتهم وهو محمد أو عزيز، وخلاف بين قبائل البربر بدأ بين آيت إيدراسن وحليفتها كروان، وبين أعدائهم آيت أو مالو أهل جبل قازاز. غدرت جروان بحليفتها وانضمت إلى المعسكر المعادي وتعرضت آيت إيدراسن للهزيمة. التمست آيت إيدراسن معونة السلطان فناصرها لأنها «رعيته وشيعة والده»[٣] . وتكتلت قبائل بربر الأطلس الأوسط بقيادة أبو بكر مهاوش وهو دجال تظاهر بالصوفية. وهزم تكتل البربر عدة جيوش مخزنيه وامتد نشاطهم إلى ضواحي فاس ومكناسة. وفي سنة ١٨١٨ جهز مولاي سليمان جيشاً

---

(١) H. Terrasse : 312.

(٢) H. Terrasse : 312.

(٣) الناصري : ج٨ ص ١١٥.

كبيراً اشتركت فيه كل القبائل الموالية للمخزن. إلا أن مولاي سليمان اختار وقتاً غير مناسب، فقد كان الطاعون منتشراً في البلاد أرهق أهلها، ولهذا كان أغلب أفراد هذا الجيش كارهين للقتال. ولما بدأ القتال انحازت بعض قبائل البربر في جيش السلطان إلى الثوار، مما أدى إلى هزيمة كبيرة. وتعرض معسكر السلطان إلى هجوم البربر، ونجا السلطان بوساطة بربري قاده إلى دوار حيث استقبل بمزيد من الاحترام. وظهر أن القوة المعنوية لدى السلطان أقوى بكثير من القوة المادية، فلم يمس السلطان أذى. ولما عرف الناس وجوده بينهم «أقبلت نساء الحي من كل جهة بفرحن ويضربن بالدفوف يم جعلن يتمسحن بأطرافه تبركاً به، وينظرون إليه إعجاباً حتى أضجرنه. ولما جاء رجال الحي أعظموا إحلاله بين أظهرهم وأجلوه وسعوا فيما يرضيه ويلائمه من وطاء ومطعم ومشرب بكل ما قدروا عليه...». وتنصل البربر له مما شجر بينهم وبينه وأظهروا له غاية الخضوع والاستكانة حتى إنهم كتفوا نساءهم وقدموهن إليه مستشفعين بهن على عادتهم في ذلك»[1]. وبعد أن أمضى ثلاثة أيام بينهم وهي مدة الضيافة فيما يبدو أركبوه وأوصلوه إلى قصبة أكراي بالقرب من مكناسة.

ويقول أكنسوس صاحب «الجيش العرمرم الخماسي...» وهو معاصر لمولاي سليمان وأحد أعوانه «كانت هذه الموقعة الفادحة سبب سقوط هيبة السلطان المولى سليمان من قلوب الرعية فلم يمتثل له بعدها أمر من عصاتها»[2].

وانطلق البربر يعيثون فساداً في أطراف مكناسة، وما لبث عملهم هذا وعجز السلطان أن جرأ غيرهم من القبائل وامتد إلى الجند أنفسهم «واختلط الحابل بالنابل» كما يقول الناصري، وعاثت الوداية في فاس، وعاث العبيد في مكناسة وسيطر البربر على كل المناطق المحيطة بالعاصمتين المغربيتين. وامتنعت القبائل حتى في بلاد المخزن عن دفع الضرائب وخرج الأمر من يد السلطان فقرر التوجه نحو مراكش والإقامة فيها، ووصل به الأمر إلى التفكير بالتخلي عن الحكم.

---

(١) الناصري : ج٨ ص ١٣٦.

(٢) الناصري : ج٨ ص ١٣٧.

ظل السلطان قابعاً في مراكش تاركاً الفوضى تضرب أطنابها في الشمال. وحدث أن كاتب أهل فاس السلطان يلتمسون عونه ضد الودايا الذين أعملوا النهب والاعتداء في فاس، فأجابهم ينصحهم بالتحالف مع قبائل البربر والاعتماد عليهم في حراسة بلادهم وسائر مرافقهم كما كانوا يفعلون في فوضى الثلاثين عاماً[1]. انتشرت شائعة في فاس أن السلطان قد تخلى عن الحكم، فاتفق أهل فاس مع زعماء البربر على مبايعة مولاي إبراهيم بن يزيد الذي أصبح آلة في أيديهم وحين مات بايعوا أخاه مولاي سعيد. ظلت قبائل الغرب وأهل الثغور مخلصين لمولاي سليمان الذي تشجع بتأييد قبائل الغرب والجنوب وتازاله، وملل الناس من الفوضى فسارع إلى استعادة فاس وهزم ابن أخيه سعيداً.

• ثورة الشراردة :

لاحت لمولاي سليمان بارقة أمل في أن يوطد الأمر من جديد بعد أن تفرقت كلمة البربر وملوا القتال، ولكنه ما لبث أن أصيب بكارثة جديدة في صراعه مع الشراردة.

كان الشراردة من عرب زرارة الشبانات، وكانوا قد انتقلوا في عهد مولاي محمد بن عبد الله إلى غربي مراكش والتفوا حول زاوية أسسها أبو القاسم الشرادي وكان من أهل الصلاح. ولكن أمر الزاوية تغير على يد حفيده المهدي الذي انحرف عن طريق أبيه ومال إلى الدجل والشعوذة، وسعى لإفساد قلوب الشراردة على السلطان الذي كان يشن حملة ضد أصحاب البدع والدجالين. هاجم السلطان الشراردة ولكنهم هزموه ونهبوا معسكره وأسروه وحملوه إلى زاوينهم. عامل الشراردة السلطان باحترام وأعادوه إلى مقربة من مراكش. كانت هذه الهزيمة إذلالاً جديداً أثر في نفسية السلطان فسئم الحياة ومل العيش وأراد أن يترك أمر الناس لابن أخيه المولى عبد الرحمن ويتخلى هو لعبادة ربه. وفي أثناء هذه

---

(١) الناصري : ج٨ ص ١٤٨.

المدة وقعت غدره ذوي بلال في انتهابهم الصاكة من مرسى الصويرة «وكان فيها من الذخائر النفيسة والأموال الثقيلة شيء كثير». ويقول الناصري أن هذه الوقعة هي التي هدت أركان السلطان المولى سليمان فاعتراه مرضه الذي كان سبب وفاته[1] .

☐ سياسة مولاي سليمان الخارجية:

كان مولاي سليمان يعرف ضعف إمكانياته العسكرية ولهذا نهج في علاقاته الخارجية نهجاً سلمياً، وتجنب أن يزج نفسه في خصومات خارجية.

العلاقات المغربية التركية :

كان مولاي سليمان حريصاً على إبقاء الصلات الودية مع جيرانه الأتراك، وقد نجح بإبعادهم عن وجده، وكانوا قد احتلوها في أوائل عهده مستغلين حالة الفوضى في المغرب من جهة، ولمتابعة القبائل العربية في المغرب الشرقي التي كانت تزعج تلمسان ووهران. وقد توصل مولاي سليمان إلى إجلاء الأتراك بصورة سلمية بعد مراسلات مع حاكم الجزائر وباي وهران. ولما نشب الصراع بين القبائل العربية وأنصار الطريقة الدرقاوية من جهة وبين باي وهران الذي كان يشتد في معاملة الصوفية، بسبب مقتل جماعة من أنصار الدرقاوية، لجأ مقدم الطريقة الدرقاوية إلى المغرب. وكان شيخ الطريقة الدرقاوية مقيماً في المغرب، فلجأ الباي إلى طلب وساطة مولاي سليمان وطلب منه إرسال شيخ الدرقاوية لتهدئة الوضع، لبى المولى سليمان طلب الباي، ولما وصل شيخ الدرقاوية شكا إليه الثوار جور الترك وعسفهم، ويبدو أنه صدر عن الشيخ استنكار لسلوك الأتراك مما عدّه الثوار تشجيعاً لهم، فاتهم الباي السلطان أنه هو الذي يغري الثوار ويشجعهم. اتفق الثوار على خلع طاعة الترك ومبايعة السلطان سليمان وهاجموا مدينة تلمسان وحاصروا القولوغلي في المشور. لكن مولاي سليمان رفض البيعة وتوسط لإنهاء الثورة وأجرى المصالحة بين الأتراك والثوار.

---

(١) الناصري : ج٨ ص ١٦٥.

ولما عم القحط ببلكية وهران جلا أهل تلنسمان إلى بلاد المغرب «وكذا عربها وأهل جبالها كلهم جلوا عن أوطانهم حتى لم يبق لباشا الترك مع من يتكلم فضلاً عن أن يتأمر، فجعل يكتب إلى السلطان ويرغب إليه أن يرد عليه أهل تلمسان وعربها فكلمهم السلطان في الرجوع فأبوا وقالوا نذهب إلى بلاد النصارى ولا نجاور الترك فنجمع علينا الجوع والقتل. فرق لهم السلطان وتركهم وظلوا حتى أخصبت بلادهم فتراجعوا إلى أوطانهم بعد أن عالج المولى سليمان داءهم مع الترك»[1].

• **العلاقات المغربية الفرنسية :**

كانت أوربا في هذه الفترة مشغولة بالصراع الذي نجم عن قيام الثورة الفرنسية أثناء الحملة الفرنسية على مصر. ولكن الهزائم البحرية التي تعرضت لها فرنسا، وتراجع قوتها البحرية أضعف مركزها في المغرب. يقول هنري كامبون: «إن انتصارات فرنسا في وسط أوربا كان تأثيرها بسيطاً على سكان المغرب، في حين أن كارثة الطرف الأغر التي كان مسرحها مجاوراً للمغرب أحدثت تأثيراً مباشراً على السكان. ويمكن القول إن هذا اليوم القدري وضع حداً للتفوق الذي كانت تمارسه فرنسا في المغرب...»[2]. ومع ذلك زادت انتصارات نابوليون في يينا وبرلين وتيلسيت في سمعة نابليون إلى درجة جعلت المولى سليمان يشعر أن عليه أن يظهر إعجابه. فتوجهت سفارة مغربية استقبلها نابوليون في سانت كلود ولقبه السفير المغربي «سلطان السلاطين». كانت هذه مجاملة كما يقول كامبون لم تمنع السلطان من الشعور أنه متأثر بالأسطول البريطاني أكثر من تأثره «بالجيش العظيم»[3]. فسعى نابوليون لكسب السلطان ضد إنجلترا وأرسل إلى المغرب الكابتين بوريل لإخراج السلطان من حياده ولكن السلطان رفض. كما رفض

---

(١) الناصري : ج٨ ص ١١٠-١١١.

(٢) H. Campion : P. 65.

(٣) H. Campion : P. 65.

الامتناع عن تموين جبل طارق رغم مضايقات الحصار الفرنسي التي سببت أضراراً للتجار المغاربة وبخاصة بعد استيلاء الإنجليز على سبته سنة ١٨١٠[1]. كما أن السلطان حرص على الاحتفاظ بالعلاقات الودية مع إسبانيا وإنجلترا بالرغم من تهديد نابوليون بغزو بلاده وبالرغم من عرض جوزيف بونابرت - شقيق نابوليون الذي جعل منه نابوليون ملكاً على إسبانيا بعد احتلالها- تسليم سبته ومليلا مقابل اعتراف مولاي سليمان به ملكاً على إسبانيا.

• **العلاقات المغربية الإنجليزية :**

حين استتب الأمر لمولاي سليمان، كانت بريطانيا قد انغسمت تماماً في حرب ضد فرنسا الثورة ونابوليون، وقد امتدت هذه الحرب حتى سنة ١٨١٥. وخلال السنوات العشرين من الحرب المستمرة كان تموين جبل طارق وسفن الأسطول البريطاني أمراً حيوياً. ولذلك كانت بريطانيا حريصة على مداراة المغرب وخطب وده. وقد جاء في التعليمات التي صدرت إلى قنصل بريطانيا سنة ١٧٩٦ «لا تهمل أي وسيلة في مكنتك استخدامها للحفاظ على حسن التفاهم القائم بين جلالة الملك وإمبراطور المغرب وإنمائه»[2]. وقد تقيد القنصل البريطاني بهذه التعليمات ونجح في عقد معاهدة جديدة للسلام والتجارة سنة ١٨٠١ تضمنت مواد المعاهدات السابقة. وفي سنة ١٨٠٥ وقبل أسابيع قليلة من معركة الطرف الأغر كتب الأميرال نلسون قائد الأسطول البريطاني إلى القنصل البريطاني «ينبه عليكم اللورد كاسنلري باستخدام كل ما لديكم من نفوذ وبذل كل ما تملكون من جهد حتى يحصل الأسطول في أي ميناء بالمغرب على احتياجاته من الثيران والأغنام والدجاج وأي شيء آخر... ولما كان من المرغوب فيه أن نكون على أحسن وفاق سواء مع الإمبراطور أو مع حاكمي طنجه وتطوان أو غيرهم من الرجال في تلك الجهات، فأكون شاكراً إذا ما أبلغتموني المطلوب مني تجاه هؤلاء الأشخاص

---

(١) Brignon : P. 282.

(٢) ب. ج. روجرز : ص ١٧٢.

وسوف أحصل عليه وأرسله إلى كل منهم مع الخطـاب المناسـب إذا مـا كتبتـم إلي بأسمائهم وألقابهم. باختصار ينبغي أن نكون على أحسن حال معهم... وأرجـو أن تقدم كل عون في إبقائنا على أفضل علاقة مع الحكومة والحكـام الواقعين في دائـرة قنصليتكم والتي تعتمد عليها حالة الأسـطول تحت قيـادتي إلى حـد بعيـد...»[1] .

واستمرت الحكومة البريطانيـة في إعطـاء هـذه التعليمـات لـدى تعيـين كـل قنصـل جديد. ولا شك أن انتصار الأسطول البريطاني في معركة الطـرف الأغـر كـان لهـا تاثير في علاقات مولاي سليمان مع بريطانيا.

حاول مولاي سليمان أن يحصل على عون بريطانيا على تحريـر سبته مقـابل كل المواد التموينية التي ترغب بهـا برسـوم مخفضـة، وحصـر تصديـر بعـض السـلع ببريطانيا كالشمع وريش النعام. وبدا لبعض الوقت أن بريطانيا على استعداد لقبـول اقتراح السلطان، فقد قام البريطانيون سنة ١٨٠٨ بموافقة السلطان بـاحتلال جزيـرة بريجيل الصخرية المتاخمة لسبتة وهي خطوة ضرورية لفرض الحصار علـى سبته مـن البحر. ولكن ثورة الشـعب الإسباني ضـد الفرنسـيين ألغت المشـروع وانسـحب البريطانيون من الجزيـرة. واستجاب مـولاي سليمان لقـرارات مؤتمـر فيينـا والمؤتمـرات اللاحقـة في فيرونـا واكـس لاشـابل القاضيـة بإلغـاء القرصنة . ففـي سـنة ١٨١٦ أسـر البحـارة المغاربـة سـفينتين واحـدة هولنديـة وأخـرى لهـانوفر، فحـرر مـولاي سـليمان السفينتين وردهما لأصحابهما وعزل الريـس الـذي أسـرهما وكذلـك حـاكم الربـاط. وفي سنة ١٨٠٧ نـزع سـلاح بحريتـه وتعهـد لملـك فرنسـا لويـس الثـامن عشـر بوقـف القرصنة[2] .

شهدت نهاية المولى سليمان نهاية عصر في المغرب وبداية عصر جديد. فقـد انتهى عصر التكافؤ بين المغـرب وأوربـا ليبـدأ عصـر التفـوق الأوربـي، وانتهـى مـا يسمى عصر عزلة المغرب أو انطوائه، وحل عصر انفتاح أرغم المغرب فيه على فتـح أبوابه أمام الغزو الأوربي العسكري والاقتصادي.

---

(١) ب. ج. روجرز : ص ١٧٥.

(٢) Gossac De Chavrebière. P. 447.

مصادر ومراجع الجزء الأول

آ – المصادر :

١ – ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر – دار الكتاب اللبناني – بيروت ١٩٨٣.

٢ – الزياني أبو القاسم: البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف–مخطوط.

٣ – الزياني أبو القاسم: الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب – نشر هوداس – القسم الخاص بدولة الأشراف العلويين من ١٦٣١ – ١٨١٢.

٤ – القشتالي عبد العزيز : مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا – تحقيق د. عبد الكريم كريم – مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية ١٩٧٢.

٥ – القادري محمد الطيب : نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني – مكتبة الطالب – الرباط ص ١٩٨٦.

٦ – مؤرخ مجهول : تاريخ الدولة السعدية الدرعية التاكمدارنية. عني بنشره جورج كولان – المطبعة الجديدة – الرباط ١٩٣٤.

٧ – الناصري أبو العباس بن خالد : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى – دار الكتاب – الدار البيضاء ١٩٥٤.

٨ – الوزان الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقي : وصف إفريقيا ج١ ترجمة د. محمد حجي ود. محمد الأخضر – دار القرب الإسلامي – طبعة ثنية ١٩٧٨.

٩ - الوفراني محمد الصغير : نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي - حققه هوداس مطبعة بردين أنجي سنة ١٨٨٨.

المراجع :

١ - د. الأنصاري عثمان : انعكاسات الاحتلال البرتغالي على الأوضاع الاقتصادية بمغرب القرن ١٦ - بحث غير منشور.

٢ - د. حجي محمد : الزاوية الدلائية - المطبعة الوطنية - الرباط سنة ١٩٦٤.

٣ - د. الجمل شوقي عطا الله : المغرب الكبير في العصر الحديث (ليبيا - تونس - الجزائر - المغرب) مكتبة الأنجلو - القاهرة ١٩٧٧.

٤ - جوليان شارل أندريه: تاريخ إفريقيا الشمالية - تعريب محمد المزالي، البشير ابن سلامة. الدار التونسية للنشر - تونس ١٩٧٨.

٥ - ب. ج. روجرز : تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى سنة ١٩٠٠ - ترجمة د. يونان لبيب رزق - دار الثقافة - الدار البيضاء ١٩٨١.

٦ - د. شحاتة إبراهيم : أطوار العلاقات المغربية العثمانية - منشأة المعارف - الإسكندرية ١٩٨٢.

٧ - د. كريم عبد الكريم: المغرب في عهد الدولة السعدية - شركة المطيع والنشر - الدار البيضاء - الطبعة الثانية ١٩٧٧.

٨ - لاكوست ايف : ابن خلدون - ترجمة د. ميشال سلمان - دار ابن خلدون - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٧٨.

المراجع الأجنبية :

1 - Barbour N. : A. Survey of North Africa : Oxford University Press 1962.

2 - Braudel : Le Mediterrenée Et Le Monde Mediterranèen A L'Epoque De Philipe Libraire Armand Colin Paris 1949.

3 - Brignon J. A. Amine. B. Boutalek. Guy Martnet. B. Rosemberger : Histoire Du Maroc. Librairie National Casablanca 1967.

4 - Coissac De Chavrebière : Histoire Du Maroc Poyot Paris 1931.

5 - Fovier J.: Les Grandes Decauvertes Fyards 1947.

6 - Godichot J. : Histoire De L'Atlantique : Borda 1947.

7 - Hanotaut G. et A. Martinet. : Histoire Des Colonies Française Tome 3 G. Hardi: Le Maroc et la Tunisie. Librarie Plan Paris 1931.

8 - Julian Ch. A. : Histoire D'Afrique De Nord Payot Paris 1931.

9 - Julian Ch. A. : Le Maroc Face Aux Imperialisnes : Edition J. A. Paris 1978.

10 - Le tourn R. : Foe Et La Naissance Du Pouvair SA'dien: Revue Al Andalus Vol. XVIII 1953.

11 - Terrasse H. : Histoire Du Maroc Tome 2 Edition Atlantide Casablanca 1947.

الدوريات :

١ - مجلة تطوان - عدد خاص بمناسبة الذكرى المئوية الثالثة لجلوس المولى إسماعيل العرش المغربي ١٩٧٢.

2 - Al Andalus Vol. XVIII Madrid Granada 1953.

3 - Hesperis Vol. 9. No. 2 Rabat 1968.

الجزء الثاني

ليبيـــة

منذ مطلع القرن السادس عشر
حتى مطلع القرن العشرين

الأستاذ الدكتور
محمود علي عامر

مقدمة

تحتل ليبية مكانة هامة وبارزة بين دول المغرب العربي، على الرغم من تباين الآراء حولها من حيث عدّها من بين دوله، علماً بأنها لم تنخرط كلياً بمشكلاته، ولم تكن موضع تجاذب سياسي بين القوى السياسية التي برزت على ساحته وامتلكت زمام الأمر فيه، وفي الوقت نفسه لم تكن على هامش أحداثه، ولهذا ركّز الغزاة البرتغاليون والإسبان أنظارهم على المغرب الأقصى أولاً وتونس ثانياً، ومع مطلع القرن السادس عشر عمد الإسبان إلى فرض نفوذهم على مجمل التراب المغربي بما فيه ليبية والجزائر.

لم يكن التواجد العثماني في مناطق المغرب العربي نتيجة لخطة مدروسة أو هدفاً استراتيجياً لهم، وإنما جاء نتيجة صراع فردي حوّل فيما بعد إلى صراع دولي مثلته قوى سياسية سعت إلى تحقيق مكاسب ذاتية غير واضحة بالنسبة للطرف العثماني على الأقل، وفي حين تطلع الإسبان إلى استعباد المنطقة وابتزاز خيراتها يحدوهم في تطلعهم حب الانتقام والتعويض عن ممتلكاتهم المفقودة في القارة الأمريكية.

أقلق التواجد العثماني الإسبان وأفسد مخططاتهم الاستعمارية، وأسفر التعاون ما بين العثمانيين والسكان المحليين عن طرد الإسبان من مناطق المغرب العربي بعد صراع استمر سنوات طوال وأمل السكان بالتواجد العثماني خيراً، إلا أن العثمانيين الذين أنقذوا سكان المغرب العربي من وحشية الإسبان، حملّوا بجهلهم وتركهم الإدارة لقواهم العسكرية السكان أعباءً جسام علاوة عن نشوب صراع بين قواهم المتواجدة على ساحته من جهة، وتطلع السكان إلى

التعايش القائم على أساس الدين من جهة أخرى؛ إضافة إلى فشل العثمانيين في ضبط قواهم العسكرية ومنعهم من التعدي على الأهالي أيضاً. ونتج عن ذلك فقدان الأمن. استمر الأمر يزداد سوءاً حتى خروج العثمانيين بفعل تجاهلهم لمتطلبات العصر والاكتفاء بما حققوه من شهرة ومجد، وقوة المد الأوربي المتطورة الرامية إلى طرد العثمانيين واستحواز مناطق المغرب العربي كمواقع استراتيجية لهم ولأطماعهم الاقتصادية.

وكتاب ليبية خلال الفترة الحديثة، يعالج الأوضاع السياسية التي شهدتها في ظل الإدارة العثمانية التي امتكلت زمام السيطرة منذ ١٥٥١ حتى الاحتلال الإيطالي ١٩١١م، وتجنباً من الاطالة في شرح أحداثه خلال السيطرة العثمانية وما فيها من أحداث جديرة بالعرض والتحليل، إلا أننا آثرنا استعراضها بشكل يمكن القارئ من فهم الإطار العام للتواجد العثماني على التراب الليبي، مستندين في عرضها على المصادر الإسبانية والوثائق العثمانية، وتوخينا دقة العرض وبساطة اللغة والتعابير، وابتعدنا كلياً عن المشكلات الرئيسة للإدارة العثمانية، لهذا يلحظ القارئ أن محتويات الكتاب مقتصرة على ذكر الخطوط الأساسية التي تساهم في اعطائه صورة عن أهم أحداثه خلال الفترة الحديثة. وعذري أن الظروف حالت دون تحقيق ما رميت إليه من تحليل وتدعيم وثائقي مستمدة من الأرشيف العثماني الحافلة بمئات بل آلاف الوثائق التي توضح مجريات الأمور يوماً بيوم.

ومحاولتي هذه واحدة من المحاولات الهادفة الرامية إلى ايصال الحقائق إلى طالبنا أولاً والقارئ العربي ثانياً. وكل ما أرجوه المعذرة عن الهفوات والسقطات التاريخية التي يراها القارئ كونه الحكم والأكثر قدرة على التقدير.

والله ولي النصر والتوفيق.

د. محمود علي عامر

الفصل الأول

ليبية قبيل الاحتلال الإسباني

كانت ليبية خلال السيطرة البيزنطية مقسمة إلى ولايتين: شرقية وتضم برقة التي رُبطت بحاكم الإسكندرية مباشرة، وغربية وتضم طرابلس واُتبعت لصاحب إفريقية ومع أوائل القرن السادس وأوائل القرن السابع أصبحتا تابعتين لحاكم الإسكندرية.

فتح عمرو بن العاص برقة وطرابلس دون عناء كبير، وكُلف عقبة بن نافع بفتح الداخل، وتمكن عقبة من فتح قسم من البلاد صلحاً دون حرب، إلا أن حركات تمرد شهدتها البلاد، استمرت إلى أن تمكن من إخضاعها نهائياً، ثم توجه إلى إفريقية سنة ٤١-٤٩هـ/٦٦١-٦٦٩م.

إن ماقام به عمرو بن العاص يُعدّ الخطوة الأولى لدخول المغرب العربي الدين الجديد، وغدت معظم مناطقه تابعة لمصر، وعقب وفاة عمرو بن العاص عمل خلفاؤه على تعميق الدين الجديد وترسيخه، ومن أشهر الولاة الذين ساهموا في الفتح عقبة بن نافع مؤسس مدينة القيروان، التي أصبحت مركزاً رئيساً، فمنها انطلق هو وخلفاؤه من الولاة يتابعون مهمة فتح بقية الأجزاء الإفريقية الأخرى(١).

---

(١) شارل فيرو : الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي - ليبية - طرابلس ج١ ص ٤٦.

تأثر الشمال الإفريقي بالأحداث التي نجمت عن قيام الخلافة وانهيارها وما أعقبهما من إنقسامات وتحزبات دينية، تركت بصمات واضحة في جسد الأمة العربية الإسلامية ما تزال آثارها حتى تاريخه، ومن أهمها قيام دويلات وممالك إسلامية تصارعت مع بعضها بعضاً مابين مؤيد للخلافة العباسية ومعادٍ لها، ولهذا ظل الحكم الإسلامي مضطرباً وعرضة للقلق وعدم الاستقرار ومقاومة عنيفة قادها زعماء البربر[1] ، ففي سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م أعلن عبد الجبار الحرث من قبيلة هوارة الثورة على عامل عبد الرحمن بن حبيب في طرابلس الغرب بكر بن عيسى القيسي وتمكن من قتله، وأعلن استقلاله بحكم المدينة، فاضطر عبد الرحمن بن حبيب للزحف بنفسه وألقى القبض على عبد الجبار وقتله[2]. كما لاحق الثائرين كافة وألزمهم بالطاعة، وتحسباً من قيام ثورات أخرى ضده، أمر بتحصين المدينة وأقام سوراً لحمايتها من جهة اليابسة وبعدها قفل راجعاً إلى القيروان.

ومع انتقال الخلافة الإسلامية للعباسيين، أعلن عبد الرحمن بن حبيب والي الأمويين على إفريقية ولاءه لهم. ويمكننا القول: إن الفوضى والاضطرابات التي نجمت عن انتقال الخلافة من البيت الأموي إلى البيت العباسي، لم تقتصر على المركز فقط، بل شملت مختلف الولايات العربية الإسلامية، فالانقسامات الدينية التي أطلت برأسها وجدت بزوال بني أمية فرصة سانحة لها للنمو والعبث، ومما زاد من توسعها وترسخها، تنكر بني العباس لخلفائهم الذين ناصروهم أيام النفوذ الأموي.

إن بُعد الشمال الإفريقي عن مركز الخلافة، جعله مرتعاً خصباً، وغدا ملجأ لأصحاب النزوات السلطوية وهواة الاجتهاد ممن رفضوا الاعتراف بشرعية بني

---

(١) اصطلاح البربر: مصطلح خاطئ، قُصد به إثارة الشكوك الرامية إلى إبعاد العروبة وملكية العرب منذ فجر التاريخ عن الجزء الغربي للوطن العربي، وأول من أطلقه على عرب الشمال الإفريقي الرومان الذين كانوا جاهلين للغة العربية الأم في تلك الديار العربية، ومما لاشك فيه أن دعاة هذا المصطلح هدفوا من استخدامه تجزئة الأمة العربية صاحبة أقدم حضارة في العالم، فالبربر عرب منذ فجر التاريخ.

(٢) أحمد النائب - المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، إستانبول ١٣١٧هـ ص ٦٢.

العباس في الخلافة، إضافة إلى وجود بعض الناقمين من القبائل العربية الإفريقية على بعض القادة المسلمين، ويعزي بعض المؤرخين ثورة بعض القبائل العربية الإفريقية إلى عدم إدراكهم لمفهوم الدين الجديد وتخوفهم من مبادئه التي تحارب التميز الطبقي والأسري، وهذا شيء لم تعتد تلك القبائل الحاكمة منذ القدم على الاعتراف به والعمل بموجبه.

حينما تولى موسى بن نصير ولاية الشمال الإفريقي شدّد في ضربه للعناصر الثائرة لدى محاولتهم الخروج على النهج الجديد الذي انتهجه الفاتحون، فثورات القبائل الطامحة للاستقلال الذاتي والسيادة المطلقة وإن لم تحقق لهم أهدافها ورغباتها، فقد ازدادت مناعة وقوة لدى ملاحقة العباسيين لأصحاب الدعوات الخارجية الذين فروا إلى المغرب طمعاً بتحقيق مآربها، وهناك التقت مطامع الطرفين ومطامحهما، وكل منهما يحاول الاستفادة من الآخر لتحقيق ما يصبوا إليه.

إن المشكلات التي واجهت الحكم العربي في شمال إفريقية تجلت بوضوح منذ سنة ١٢٢هـ/٧٤٠م، فالثورة التي قادها مسيرة من أهالي القيروان[1]، شملت مختلف مناطق الشمال الإفريقي، ولا سيما في الأيام الأخيرة للخلافة الأموية التي تلفتظ أنفاسها، إلا أن انتقال الخلافة للعباسيين لم يضعف من لهيب الثورات المتأججة في مناطق الشمال الإفريقي التي تزامنت مع ثورات المشرق العربي الإسلامي وبخاصة بعد انفراد العباسيين بالسطلة وحدهم.

أبقى العباسيون عبد الرحمن بن حبيب في ولاية الشمال الإفريقي بعد إعلانه الولاء لهم[2]. وقد عمل بدوره على القضاء على حركات التمرد والعصيان، لكنّ إخوته تآمروا عليه وقتلوه سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م، فاستغل ورفجومة مقتله، وأعلن الثورة على الحكم العربي هناك، وازداد موقف ورفجومة قوة بانضمام أعمام حبيب بن عبد الرحمن إلى جانبه لدى محاولة حبيب بن عبد الرحمن الانتقام من

---

(١) حسن صافي : طرابلس الغرب تاريخي إستانبول ١٣٢٨هـ ص ٢٥.

(٢) حسن صافي : طرابلس الغرب تاريخي ص ٢٦-٢٧.

أعمامه، وتمكن ورفجومة من محاصرة القيروان، ودخلها إثر فشل جبيب في الانتصار عليه.

تنكر ورفجومة بعد انتصاره لمؤيده وانفرد بالحكم متبعاً الظلم والقهر، فثارت القبائل الإباضية ضده بعدما ناصبته العداء وعهدت لأبي الخطاب عبد المعالي المغافري بقيادتها، وبعد صراع عنيف ومرير تمكّنوا من الاستيلاء على طرابلس وطرد حاكمها عمر بن عثمان القرشي، ومنها تابعوا زحفهم باتجاه القيروان واستولوا عليها، ونصّبوا الحاكم الإباضي عبد الرحمن بن رستم حاكماً جديداً عليها[1].

ظلت طرابلس الغرب تحت حكم العباسيين حتى سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م، وكان ولاتها يعينون من قبل خلفاء بني العباس، وفي هذه الأثناء أسس عبيد الله المهدي بن محمد قداح دولة العبيديين الفاطمية، لكنّ عبيد الله المهدي أوقع الظلم بأهاليها، فضجر سكانها منه، ولدى تولي المعز لدين الله الفاطمي على القاهرة واتخاذها عاصمة لدولته، عُين على طرابلس الغرب يوسف بن زيري الذي عمل على تثبيت أركانه فيها، ولم يكن يوسف بن زيري عادلاً في حكمه، فأعلن الطرابلسيون ثورتهم عليه بعد ما فرض عليهم عادات وتقاليد لم يعتادوا عليها[2].

هاجم روجر ملك صقلية طرابلس الغرب سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م، لكنه فشل في الاستيلاء عليها وفي سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م، كلف الأميرال جورج مخائيل بقيادة عدة سفن حربية بغية الاستيلاء عليها وبعد حصار استمر ثلاثة أيام، تمكن من احتلالها مستغلاً الانشقاقات الداخلية بخصوص انتخاب زعيم لهم عقب انتهاء سلالة يوسف بن زيري واندثارها، ولم يحاول القائد الصقلي تغيير النظام القائم فيها خوفاً من إثارة حفيظة الطرابلسيين عليه بسبب قلة جنوده وشراسة الطرابلسيين

---

(١) إتوري روسي : ليبية منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١. ترجمة خليفة محمد التليسي ١٩٧٣ ص ٦١.

(٢) طرابلس الغرب سالنامه س لسنة ١٣٠٥ هـ ص ٩٢.

وتلاحمهم، ولهذا سعى لاستمالتهم إلى جانبه معتمداً اللين والصفح تجاههم، فلجأ إلى تعيين يحيى بن مطروح والياً عليهم بناء على موافقتهم، كما عين أبا الحجاج يوسف ابن زيري قاضياً، وحينما رأى القائد الصقلي أن الهدوء والاستقرار بدأ بالعودة إلى المدينة، قفل راجعاً إلى بلاده بعد تركه لحامية صغيرة مهمتها المحافظة على المدينة.

ظلت الحامية الصقلية في طرابلس الغرب أكثر من عشر سنوات، وفي سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م تسرّبت أنباء عبد المؤمن الحفصي إلى طرابلس الغرب، وتمكنه من استرجاع تونس من المسيحيين، وأنه في طريقه إلى طرابلس الغرب لانتزاعها من الصقليين الكفار، خافت الحامية من ثورة الأهالي عليهم، بعدما فشل قائد الحامية من إقناع الطرابلسيين بالوقوف لجانبه لمقاومة الخطر القادم، بدأت مخاوفه تزداد يوماً بعد يوم، وفي إحدى الليالي وقبل وصول عبد المؤمن إلى أطراف المدينة استغل الطرابلسيون الليل وباغتوا الحامية الصقلية وذبحوها[1]، ومع قدوم عبد المؤمن إلى المدينة، أمر واليها يحيى بن مطروح بفتح أبواب المدينة وخرج مع أعيان المدينة للترحيب بالقائد الجديد ومبايعته، سُرّ عبد المؤمن من سكان المدينة، فأبقى يحيى بن مطروح والياً عليها من قبله ورجع إلى عاصمته فاس[2].

بعدما تمكّن صلاح الدين الأيوبي من حكم مصر، أرسل إلى طرابلس الغرب مملوكه شرف الدين قراقش، وقد استطاع قراقش حكم البلاد المغربية بالحديد والنار، ولزيادة جحده إزاء سيده اتصل سراً بالخليفة العباسي طالباً منه منحه لقب أمير بلدان إفريقية مقابل إعلان الولاء له[3].

إزاء ما ارتكبه شرف الدين قراقش من مظالم بحق أهالي طرابلس، جهّز يعقوب بن يوسف ملك فاس جيشاً لمحاربة قراقش، فنزل تونس ومنها وجّه ستة آلاف مقاتل وعهد لابن أخيه بقيادتها، وكلفه بمحاربة قراقش الموجود في الجزائر.

---

(١) حسن صافي (مرجع سابق) ص ٣٣.

(٢) محمد بهيج الدين بن مصطفى: طرابلس الغرب تاريخي، إستانبول بدون تاريخ ص ١٨.

(٣) شارل فيرو: الحوليات الليبية ج١، ص ٥٠.

لم تتمكن قوات يعقوب بن يوسف من الانتصار على قراقش نتيجة لاتباعه أسلوب المخادعة حيالها، بل على العكس من ذلك فقد تمكن قراقش بخبثه وتحايله من تشتيت شملها، فغضب يعقوب لهزيمة قواته، فجهّز ما تبقى لديه من قوات وسار على رأسها باتجاه قراقش الموجود في قابس ولم يتمكن قراقش من الصمود أمام قوات يعقوب فاضطر للاستسلام، فاستولى يعقوب بن يوسف على أمواله ونسائه واصطحبهن معه إلى فاس[1].

تظاهر قراقش بخضوعه ليعقوب مقابل إطلاق نسائه وأطفاله وإعادتهم إليه، فقبل يعقوب مطلبه، فانسحب قراقش إلى تونس، وهناك بدأ شيئاً فشيئاً بجمع قواته المشتّتة متجنباً إثارة حفيظة التونسيين، وحالما انتهى من إعدادها واطمأن إلى تنظيمها واستعدادها توجه إلى قابس فسيطر عليها ومنها توجه إلى طرابلس الغرب، واصطدم مع يحيى بن إسحاق الميورقي أمير الجريد في بقعة مهجورة تسمى (وادي محسن) وتسمى حالياً (وادي البهرة). تمكن يحيى بن إسحاق من رد قراقش، وبحركة من ياقوت الافتخار نائب قراقش، غدا يحيى في موقف صعب، لولا وصول نجدات عسكرية لغدت مدينة طرابلس سهلة المنال أمام قوات قراقش التي نُكبت ثانية بعد وصول النجدة الطرابلسية.

قدم الناصر بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى طرابلس الغرب سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م، فاستقبله يحيى بن إسحاق الميورقي مع أعيان المدينة ووجهائها مرحبين به ومعلنين مراسيم الطاعة والولاء له، فأقره الناصر بن يعقوب حاكماً على مدينتي قابس وطرابلس الغرب تقديراً لخدماته[2].

اتبع يحيى بن إسحاق الميورقي العدل خلال حكمه لطرابلس، لكنّ شرف الدين قراقش طفق إثر هزيمته بمهاجمة القبائل في كل مكان، فاضطر يحيى إلى تجهيز جيش لملاقاة شرف الدين قراقش، واصطدم معه في فزان وتغلب عليه وأحضره

---

(١) حسن صافي : طرابلس الغرب تاريخي، ص ٣٤.

(٢) شارل فيرو : الحوليات الليبية ص ٥٣.

أسيراً إلى طرابلس حيث أُعدم مع أفراد عائلته. إلا أن انتصاره على قراقش دفعه للغرور والتعالي فانقلب رأساً على عقب من حاكم عادل إلى ظالم مستبد، كما تنكر للناصر بن يعقوب، حيال ذلك عمد الناصر إلى عزله وتعيين محمد عبد الواحد بن أبي حفص والياً على طرابلس بدلاً من يحيى بن إسحاق الميورقي الذي عُرف بلقب (ابن غانية) لقاء رفضه الطاعة واتباعه الظلم، فجمع أنصاره ومؤيديه وساح في البلاد يحض القبائل على رفض طاعة الناصر بن يعقوب والثورة عليه، ولقيت دعوته قبولاً من بعض القبائل وعلى رأسها القبائل البدوية من بني هلال وسُليم، لكنّ محمد بن عبد الواحد لاحق المتمردين وهزم زعيمهم ابن غانية شر هزيمة، وعلى الرغم من هزيمة ابن غانية فقد عاود الكرة عدة مرات، واستمر الأمر حتى وفاة والي الناصر على تونس محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص سنة ٦٨١هـ/١٢٢١م، وتقديراً لاتباعه العدل والحكمة أثناء حكمه قام مجلس المدينة في تونس بانتخاب ابنه زيد بن عبد الرحمن[1].

وهكذا انتقلت طرابلس التي ظلت لفترة طويلة تحت حكم الموحدين إلى حكم الحفصيين أمراء تونس الذين تصرفوا منذ الوهلة الأولى لحكمهم كأمراء مستقلين.

بعد خضوع طرابلس لحكم الحفصيين حاول أحمد بن أبي عمارة مهاجمة طرابلس مدعياً أنه الفضل أحد الأبناء الحفصيين ممن قتل السلطان الحفصي أباه، إلا أن حاكمها أبا إسحاق محمد بن عيسى الهنتاني تصدى له ومنعه من دخول المدينة.

شهدت طرابلس الغرب خلال خضوعها للأمراء الحفصيين اضطراباً في أوضاعها العامة نتيجة للصراع الدائر في مناطق إفريقية الشمالية، ولإبعاد شبح الاضطراب عن المدينة عمد الطرابلسيون في سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦-١٣٢٧م إلى تعيين محمد بن ثابت بن عمار حاكماً عليهم، فنجت المدينة من الصراعات الدائرة على الساحة الإفريقية، وظل آل ثابت يحكمون طرابلس الغرب لمدة تقارب ثمانين عاماً حَفُلَتْ بالهدوء والاطمئنان الإداري والسياسي[2].

---

(١) طرابلس الغرب سالنامه س سنة ١٣٠١-١٣٠ ص ١٢١.

(٢) طرابلس الغرب سالنامه س سنة ١٣٠١-١٣٠٢ ص ١٢١.

واظب محمد بن ثابت على تنظيم أمور المدينـة تنظيمـاً دقيقـاً معتمـداً العـدل أساساً لحكمه، مما هيأ له فرض طاعته على الجميع طواعية، ولتعميق نفوذ أسرته من بعده تجنـب إثـارة حفيظـة الحفصيـين وبقيـة جيرانـه، وظـل طـوال حكمـه يتظـاهر بالخضوع للحفصيين وأنه ممثلهم ونائبهم في طرابلس، كما درّب أبناءه علـى اتبـاع نهجه السليم.

أسفر عن انهيار دولة الموحدين حدوث صراع شمل مختلـف منـاطق الشـمال الإفريقي عدا مدينة طرابلـس الغـرب، وأدى التنـاحر القـائم بـين دويـلات وممـالك الشمال الإفريقي إلى بروز قوى جديدة، تمكنـت بفضـل دعمهـا القبلـي مـن فـرض هيبتها على بعـض منـاطق الشـمال الإفريقـي الـذي تجـزأ إلى منـاطق سياسـية كـان حصيلتها قيام دول ثلاث في مناطق ثلاث رافقها اضطراب واقتتال فيما بينها استمر حتى العقد الأول من القرن السادس عشر، ناهيك عن الهجمات الخارجية الأوربيـة التي ما انفكت تفكر بـل تسـعى جـاهدة لإخضـاع تلـك المنـاطق مـع دويلاتهـا إلى سلطانها، ولا ننفي بأن تلك المحاولات حققت نجاحاً في فرض نفوذهـا وسـيطرتها مؤخراً.

استغل الأمير الجنوي (نسبة إلى جنوه) فيليب دوريا Filipo Doria نقمة أهالي طرابلس على محمد بن ثابت الذي كان مع خلاف حادٍ مع ولده ثابت، وحالما نجح ثابت مع الأهالي في عزل والده محمد وتوليه السلطة، قام بإعداد حملة ضد سـردينيا، وبما أن الحظ لم يحالفه ولتسويغ فشله توجه بأسـطوله إلى طرابلـس الغـرب مسـتغلاً تردي أوضاعها الداخلية، فاحتلها سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٥م[1]، لكنّ إقامـة الجنويـين بها لم تطل حيث باعوا المدينة لأحمد المكي (صاحب قابس)[2]. في حـين فـر أولاد

(١) يذكر إتوري روسي أن هناك خلافاً في تحديـد سـنة احتـلال الجنوبيـين لطرابلـس الغـرب فالمؤرخ فيلاني Villani يذكر أنه تم سنة ١٥٣٤، أما المؤرخ ستيلا فيذكـر أن الاحتـلال تم سنة ١٣٥٥م أما المؤرخ العربي الملقب بالقيرواني (نسبة للقيروان) فيذكر أنه تم ما بين (١٣٥٥-١٣٥٦)، للمزيد انظر إتوري روسي حاشية ص ١١٩.

(٢) شار فيرو : الحوليات الليبية، ج١ ص ٦٣.

مستقل حكم طرابلس بإرادة شعبية حرة، وبعد فترة وجيزة سارعت قبائل غريان وبني الوليد وترهونة ومصراته ومسلاته وزواوة لمبايعته والياً على البلاد، وبلغ الفرح بأهالي تاجوراء درجة مبايعته وإعلان مراسيم الطاعة والولاء له.

غضب سلطان تونس أحمد بن محمد الحفصي مما فعله أهالي طرابلس، فجهّز حملة بقصد تأديبهم وإخضاعهم لسلطانه، لكنّ سيدي منصور تصدى له مدعوماً بشعبيته والتفاف الطرابلسيين حوله، والتقى الطرفان قرب مدينة زواوة، وأسفر الاشتباك عن هزيمة التونسيين، ولاحقهم الطرابلسيون حتى الحدود، تاركين خلفهم أعداداً كبيرة من القتلى والجرحى، وزادت مكانة الشيخ منصور على الصعيدين المحلي والشعبي، و لم يتعظ التونسيون من الهزيمة الأولى. وفي السنة التالية كرر التونسيون محاولتهم، فأصيبوا بخيبة أمل كبيرة وعادوا من حيث أتوا[1] .

لم تستمر الخلافات التونسية الطرابلسية طويلاً، ففي سنة ١٤٦٣م، اتفق الطرفان على وضع حدٍ للحرب الدارة بينهما، واستؤنفت العلاقات كالمعتاد، في حين انصرف الطرابلسيون إلى تسوية مشكلاتهم الداخلية وإدارة أمورهم الداخلية بأنفسهم معتمدين على مجلس الشورى المنتخب إدارياً وطواعية، إلا أن الهدوء والاستقرار لم يستمر طويلاً، لأن أموراً خارجية أفسدت عليهم ما حلموا به من استقرار وهدوء متناسين تحصين مدينتهم، وهذا ماجعلهم ومدينتهم عرضة للأطماع الإسبانية.

١- الاحتلال الإسباني لليبية:

عُرّف القرن الخامس عشر بعصر البروز الإسباني المتوج بزواج فريناند ملك أراغون وإيزابيلا ملكة قشتالة والوحدة الإسبانية التي فرضت على إسبانيا الالتفات إلى الخارج يدفعها إلى ذلك سببان: أولهما: ملاحقة المسلمين والانتقام منهم، وثانيهما: التطلع للسيطرة على مناطق الشمال الإفريقي لجعلها مناطق نفوذ لها. وبما

---

(١) شارل فيرو : الحوليات الليبية ج١ ص ٦٥.

مستقل حكم طرابلس بإرادة شعبية حرة، وبعد فترة وجيزة سارعت قبائل غريان وبني الوليد وترهونة ومصراته ومسلاته وزواوة لمبايعته والياً على البلاد، وبلغ الفرح بأهالي تاجوراء درجة مبايعته وإعلان مراسيم الطاعة والولاء له.

غضب سلطان تونس أحمد بن محمد الحفصي مما فعله أهالي طرابلس، فجهّز حملة بقصد تأديبهم وإخضاعهم لسلطانه، لكنّ سيدي منصور تصدى له مدعوماً بشعبيته والتفاف الطرابلسيين حوله، والتقى الطرفان قرب مدينة زواوة، وأسفر الاشتباك عن هزيمة التونسيين، ولاحقهم الطرابلسيون حتى الحدود، تاركين خلفهم أعداداً كبيرة من القتلى والجرحى، وزادت مكانة الشيخ منصور على الصعيدين المحلي والشعبي، و لم يتعظ التونسيون من الهزيمة الأولى. وفي السنة التالية كرر التونسيون محاولتهم، فأصيبوا بخيبة أمل كبيرة وعادوا من حيث أتوا[1] .

لم تستمر الخلافات التونسية الطرابلسية طويلاً، ففي سنة ١٤٦٣م، اتفق الطرفان على وضع حدٍ للحرب الدارة بينهما، واستؤنفت العلاقات كالمعتاد، في حين انصرف الطرابلسيون إلى تسوية مشكلاتهم الداخلية وإدارة أمورهم الداخلية بأنفسهم معتمدين على مجلس الشورى المنتخب إدارياً وطواعية، إلا أن الهدوء والاستقرار لم يستمر طويلاً، لأن أموراً خارجية أفسدت عليهم ما حلموا به من استقرار وهدوء متناسين تحصين مدينتهم، وهذا ماجعلهم ومدينتهم عرضة للأطماع الإسبانية.

١- الاحتلال الإسباني لليبية:

عُرّف القرن الخامس عشر بعصر البروز الإسباني المتوج بزواج فريناند ملك أراغون وإيزابيلا ملكة قشتالة والوحدة الإسبانية التي فرضت على إسبانيا الالتفات إلى الخارج يدفعها إلى ذلك سببان: أولهما: ملاحقة المسلمين والانتقام منهم، وثانيهما: التطلع للسيطرة على مناطق الشمال الإفريقي لجعلها مناطق نفوذ لها. وبما

(١) شارل فيرو : الحوليات الليبية ج١ ص ٦٥.

أن مناطق الشمال الإفريقي تعاني اضطراباً في أوضاعها الداخلية، فقد استغلوا تلك الأوضاع فبدؤوا تحركهم القرصني منذ سنة ١٥٠٨م بقيادة بدرو نافارا الذي أغار على السواحل المغربية، وفي سنة ١٥٠٩م هاجم وهران ومنها توجه إلى بجاية ونهبها سنة ١٥١٠م، في حين كانت بقية أسطوله تتجول في بعض السواحل الإفريقية الأخرى.

عمل داعية المسيحية الأول الكردينال حمينس أو (كزيمنيس) إسقف طليطلة ورئيس وزراء فريناند ملك إسبانيا على توجيه أنظار الإسبان إلى المكاسب التي يحصلون عليها لقاء سيطرتهم على إفريقية عامة، وعلى طرابلس خاصة، فأُعطيت أوامر إلى بدرو نافارا بضرورة التوجه إلى طرابلس لاحتلالها، وما إن أتم بدرو نافارا احتلاله لبجاية حتى غادرها متوجها إلى طرابلس الغرب على رأس قوة مؤلفة من ثمانية آلاف رجل، وكان قبل ذلك قد توجه إلى فافينيانا (Favignana) منتظراً السفن القادمة من نابولي وصقلية للاشتراك في احتلال طرابلس، وأثناء عودته من فافينيانا توقف في جزيرة غوزو بمالطة، فانضم إليه بعض المالطيين كمرشدين وأدلاء له، وتفيد بعض المصادر أن مهمة الإرشاد البحري تولاها جوليانو أبيلا Jolyano Abila، وكانت الحملة البحرية تتألف من ستين سفينة بحرية ومن غليوطتين وعدد من المراكب الشراعية، كما انضم إلى الأسطول خمس سفن مالطية مسلحة، وبهذا بلغ عدد سفن الحملة ١٢٠ سفينة بحرية صغيرة وكبيرة[١].

بلغ الأسطول طرابلس الغرب في الخامس والعشرين من تموز سنة ١٥١٠م، وعلى الفور باشر بضرب سواحلها، في حين أنزل مدفعيته على الشاطئ جنوب شرقي المدينة في منطقة سيدي الشعاب ونتيجة للقصف الشديد تمكنوا من اختراق السور وفُتحت إحدى الأبواب خلال الساعات الأولى من النهار وقبل انقضاء ذلك اليوم كان الإسبان قد أتموا احتلال القلعة وبعض النقاط الرئيسة في المدينة على الرغم من تدافع الطرابلسيين للدفاع عن مدينتهم، إلا أن القصف الشديد أجبر

---

(١) إتوري روسي : ليبية منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١. ص ١٤٠.

الأهالي على تسليم مدينتهم إلى الكونت بدرو نافارا الذي توجه مباشرة إلى السراي حيث يقيم الشيخ عبد الله فأمر باعتقاله مع زوجته وأولاده وعدد من أعوانه وأعضاء إدارته، ثم أقام الأفراح مهنئاً نفسه بالانتصار الذي حققه على مدينة طرابلس من خلال الرسالة التي وجهها إلى نائب الملك في صقلية ومما جاء فيها «سيدي... إن هذه المدينة هي أكبر في واقعها مما كنت أتصور، ورغم أن الذين يشيدون بها ويطرونها، يتحدثون عنها حديثاً حسناً، إلا أنني أقول إنهم لم يقولوا نصف الحقيقة، سواء أكان ذلك فيما يتصل بتحصيناتها أم نظافتها، حتى لتبدو المدينة مدينة إمبراطور أكثر من أنها مدينة لا تنتمي لأي ملك خاص»[1].

عمد الإسبان بعد ذلك إلى نهب المدينة، وهجّروا أهاليها حتى عمها الخراب والدمار، فهجرها التجار، وانتقلت الأهمية التجارية إلى الموانئ الأخرى مثل مصراته وتاجوراء، ومما زاد في خراب المدينة محاولة الإسبان إقامة أسوار جديدة على أنقاض الأسوار القديمة ومنازل الأهالي، فتعرضت المدينة من جراء ذلك إلى تبديل أجزاء مهمة في هيكلية المدينة ومعالمها، وهذا يعاكس تماماً الوصف الذي قدمه لنا بانستينودي تونسيس «Batistion de Tonsis» الذي شارك في الحملة ومما قاله في وصف مدينة طرابلسي «تقع مدينة طرابلس في سهل منبسط، وهي مربعة الشكل، ويحيط بها سور يبلغ امتداده أكثر من ميل: لها سوران مزدوجان، تحف بهما خنادق منخفضة وضيقة، السور الأول فصيل منخفض، أما السور الثاني، فهو مرتفع جداً، ضخامته متناسبة مع الأبراج، وهي ذات مواقع دفاعية ضخمة، ومحاطة بالبحر من جهاتها الثلاث ولها ميناء ممتاز قادر على إيواء أربعمائة سفينة، ومراكب ذات المجاذيف الضخمة، ومن ذلك كان ضياع هذه المدينة مبعثاً للأسى والأسف، ويقال إن سكانها أكثر من عشرة آلاف نسمة، جلّهم من العرب وبعض من اليهود، وقد أُسر منهم حوالي خمسة آلاف أو أكثر، أما البقية فقد قتلوا، و لم

---

(١) إتوري روسي : ليبية منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١. ص ١٤٢.

ينج منهم إلا القليل الـذي تخطى السـور مـن جـانب الحـي اليهـودي الواقـع شمـال المدينة»[1] .

كانت قلعة المدينة محاطة بخندق محفور مـن جهـة البحـر، لم يكـن بالإمكـان العبور إلى القلعة إلا بجسـر متحـرك[2] . أمـا السـراي الموجـود داخـل القلعـة فكـان مقراً لحـاكم المدينـة، حوّلـه الإسـبان إلى كنيسـة سُـميت كنيسـة القديـس ليونـارد (St-Leonard)[3] .

واجه الإسبان مقاومة عنيفة من سكان المدينة، و لم يكن الإمبراطور الإسباني يرغب فيها نتيجة للتكاليف الباهظة الناجمة عن احتلاله لها. لكنّ بدرو نافـارا كـان جاداً في جعلها قاعدة رئيسة لتحركاته البحرية، وكان يدرك أن بقاءه فيها مستحيل مالم يخضع جزيرة جربة له، لهذا جهّز قواته واتجه بها إلى جربة بعدمـا أنـاب مكانـه ديجودي فيرا وزوده بحامية تتألف من ثلاثة آلاف مقاتل، وفي الثامن والعشـرين مـن آب بلغ نافارا جربة، إلا أنه اصطدم بمقاومـة عنيفـة افقدتـه مؤنـه وذخيرتـه وخـيرة قادته، كما أن السكان عمدوا إلى ردم آبار الماء، وذبحوا الجنود البـاحثين عنـه، إزاء ما تعرض له من خسائر بشرية ومادية، اضطـر إلى توجيـه أوامـره بالانسـحاب مـن جزيرة جربة في التاسع عشر من آب[4] .

منحت هزيمة الإسبان في جربة أهالي طرابلس الغرب متنفساً قوياً دفعهـم إلى تجديد مقاومتهم للإسبان، وصمموا على طرد الإسبان مـن مدينتهـم، وفي الحـادي

---

(١) إتوري روسي : ليبية منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١. ص ١٤٢

(٢) شارل فيرو: الحوليات الليبية ج١ ص ٨٢ «يقال إن الخندق قد تم ردمه الآن، لكّن آثـاره باقية وواضحة حتى الآن».

(٣) ظلت الكنيسة تستخدم بوصفها مصلى حتى أثناء حكم فرسان مالطة للمدينة، وفي الفترة العثمانيـة حوّلـت إلى قاعـة مجلـس خـاص بالباشـوات، يمارسـون فيهـا الشـؤون الرسميـة وأسلوب الإدارة، وفي الفترة القرمانليـة سميـت (قاعـة الميـدان) واسـتخدمت مقـراً رسميـاً لأفراد الأسرة القرمانلية.

(٤) إتوري روسي : ليبية منذ الفتح العربي حتى ١٩١١ ص ١٤٨.

عشر من شباط سنة ١٥١١م شن الأهالي هجوماً منظماً على القوات الإسبانية وأوقعوا فيها خسائر كبيرة، وغدا القائد ديجود ديفيرا حاكم طرابلس في موقف لا يُحسد عليه، لكنّه بما يملكه من أسلحة وبدافع اليأس تمكّن من المهاجمين وألحق بهم خسائر فادحة وكبدهم أعداداً من القتلى والجرحى، إلا أن معاملته القاسية لم تزد الأهالي إلا تصميماً وإصراراً على مقاومته.

وخلال السنوات الأربع لوجود الإسبان في طرابلس، وهرباً من زيادة الخسائر المادية والبشرية ولضمان بقاء المدينة في حوزة المسيحيين، عمد الملك الإسباني إلى إلحاقها بمملكة صقلية بحجة قربها منها، فغدت المدينة مرتبطة مباشرة بحكومة نائب الملك المقيم في صقلية، واستدعى ديجو ديفيرا إلى إسبانيا وعين مكانه دون جيم دي ريجوسن[1] .

في هذه الأثناء، برزت أحداث ومتغيرات جديدة على الساحة الدولية، فالقوة العثمانية بوصفها قوة جديدة وناشئة، حطمت ما حولها من قوى سياسية، وأعلنت عن تبنيها حماية البقاع الإسلامية والدفاع عنها، وتمثل وجودها في الشمال الإفريقي من خلال خير الدين بربروس الذي أعلن رسمياً تبعيته لها والالتزام بنهجها الديني.

أدرك الإسبان منذ اللحظة التي تركّز فيها آل بربروس في الجزائر خطورة موقفهم، وبغية ضمان التواجد المسيحي في تلك المناطق وطرد الأتراك وممثليهم منها، رحب الملك الإسبان بالعرض المقدم إليه من فرسان القديس يوحنا المقدسي بعدما طردهم السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠-١٥٦٦م من جزيرتهم رودس، فمنحهم طرابلس الغرب شريطة تعهدهم بقتال المسلمين والوقوف إلى جانبه[2] .

قَبِلَ المرشد الديني لفرسان القديس يوحنا شروط الملك الإسباني شارل الخامس والملقب بـ (شارلكان) واتخذ طرابلس الغرب مقراً عسكرياً بعدما اتخذ

---

(١) إنوري روسي : ليبية منذ الفتح العربي حتى ١٩١١ ص ١٤٨.

(٢) Celâl Tevfik Karasapan : Libya.. s. 106.

جزيرة مالطة مقراً روحياً للمنظمة، ومنذ ذاك التاريخ انصرف الفرسان إلى ترسيخ وجودهم في طرابلس التي انسحب الإسبان منها[1].

٢ – احتلال فرسان القديس يوحنا لليبية:

نشأت منظمة القديس يوحنا في بيت المقدس منذ مطلع الحروب الصليبية وكانت بادئ الأمر عبارة عن منظمة خيرية مهمتها مساعدة الفقراء والمحتاجين من المسيحين وتأمين سلامة الحج لهم إلى بيت المقدس. ومع مرور الزمن بدأت تتحول إلى تنظيم عسكري محضٍ، وتعهدت بالدفاع عن بيت المقدس، فاقتطعت لنفسها بعض الأراضي، وأقامت عليها ثكناتها وتنظيماتها العسكرية.

حينما حرر القائد العربي صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس من المسيحيين، طرد المنظمة من القدس سنة ١١٨٧م، فاضطرت لنقل مركزها إلى عكا، وهناك بدأت تضرب المسلمين وتلحق الأذى بهم، فلاحقها المسلمون وطردوها من عكا، فاضطرت ثانية للانتقال إلى جزيرة رودس[2].

استقر الفرسان في جزيرة رودس سنة ١٣٠٦م، وكانوا سابقاً قد احتلوا جزيرة قبرص، ولكنهم انسحبوا منها، لأنها لاتصلح أن تكون مقراً دائماً لهم، وموقعها لا يساعدهم على تحقيق ثأرهم من المسلمين ولا يضمن لهم أهدافهم الانتقامية.

---

(١) الاسم الحقيقي لمنظمة فرسان مالطة: فرسان القديس يوحنا، استقرت في جزيرة رودس بعدما طُردت للمرّة الثانية من عكا، وبسبب ارتكابها الظلم إزاء المسلمين ومهاجمة السفن العثمانية، عمد السلطان سليمان القانوني إلى طردها منها، فاستقرت في طرابلس بعدما قدّمها شارلكان هدية لها. للمزيد: انظر كتابنا: تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دمشق ١٩٨٥ ص ٥٨.

(٢) عمر علي بن إسماعيل : انهيار الأسرة القرمانلية في ليبية ١٧٩٥-١٨٣٠ – طرابلس ١٩٦٦ ص ٢١.

عمل الفرسان أثناء إقامتهم في رودس على تحصينها قاصدين من ذلك إيجاد كيان عسكري لهم أشبه ما يكون بكيان الدولة مدعومين من بابا روما، ومن جزيرتهم المحصّنة بدؤوا بممارسة أعمال القرصنة البحرية ضد المسلمين وسفنهم، وغدوا مع مرور الزمن قوة بحرية تعيق النشاط العسكري البحري للعثمانيين وتحد من تحركاتهم البحرية، إزاء ذلك صمم السلطان القانوني على طردهم من الجزيرة، وفي الأول من كانون الثاني سنة ١٥٢٢م أُمر الأسطول بالتوجه إلى رودس لاحتلالها، وبعد حصار استمر ستة أشهر، أُجبر الفرسان على الاستسلام والانسحاب منها، وخرجوا هائمين في عرض البحر يبحثون عن مقر جديد لهم.

تأثر البابا بالمصاب الجديد الذي حل بالفرسان للمرة الثالثة، فطلب من الملك الإسباني شارلكان اقتطاعهم بقعة من ممالكه الواسعة، وبما أن قواته في طرابلس الغرب تواجه ظروفاً صعبة وخسائره أكبر بكثير من ربحه، قرر منحهم طرابلس الغرب لعدة أسباب منها:

أولاً: كسب عطف المسيحيين له ودفعهم للالتفاف حوله.

ثانياً: تخفيف الضغط عن قواته المتواجدة في الشمال الإفريقي.

ثالثاً: انشغاله بالحرب مع فرنسا.

رابعاً: تكليف الفرسان بمحاربة مسلمي شمال إفريقية التزاماً بوصايا آبائه وأجداده.

وتجسيداً لمراميه وأهدافه في حماية المسيحيين وبخاصة أحباب البابا وعصبته العسكرية، قرر منحهم جزيرة مالطة كمركز روحي وطرابلس الغرب كمقر عسكري، وتفيد بعض المصادر الإسبانية أن المرشد الأكبر فلليرس دي لسلي آدم تردد في قبول طرابلس الغرب لتخوفه من الإقامة مع منظمته في تلك الديار الإسلامية[١] ، وبعد مجادلات ومناقشات مطولة مع الإمبراطور شارلكان وبضغط من البابا الذي تعهد له بتقديم الدعم له، قبل عرض الملك الإسباني[٢] .

---

(١) Celâl Tevfik Karasapan : Libya.. s. 106.

(٢) المرجع السابق ص ١٠٦.

استقرت المنظمة في طرابلس الغرب منذ سنة ١٥٣٠م، وبدأت العمل بتحصين المدينة وزيادة استحكاماتها الداخلية والخارجية ورممت الأسوار والقلاع الدفاعية، وتحمّل أبناء المدينة مسؤولية البناء والترميم تحت سياط الفرسان، وزاد الفرسان من ظلمهم للأهالي وتعذيبهم بعد حصولهم على وثيقة التنازل الرسمية من الملك الإسباني في الثالث والعشرين من أيار سنة ١٥٣٠م، ونصت الوثيقة على جعل مالطة مركزاً رئيساً لمنظمتهم الدينية إضافة إلى منحهم طرابلس الغرب مقراً عسكرياً.

كان تصرف فرسان مالطة يوحي بأن التغييرات التي يحدثونها في معالم المدينة، تدل دلالة واضحة على أنهم يسعون للاستقرار في مدينة طرابلس بصورة دائمة، وجعلها مقراً دفاعياً لهم، وقد أطلق الفرسان على البرجين اللذين يقعان في الطرف الشرقي من المدينة اسم القديس جورج والآخر اسم القديس جاكومو،كما أطلقوا على الساحة الواقعة بينهما اسم القديسة بربرا[١] .

بدأ الفرسان تحركاتهم العسكرية البحرية والبربرية منها، ولاحقوا الأهالي ملاحقة شديدة، بقصد إرهابهم لتهجيرهم منها، و لم يستطع السكان تحمّل الممارسات الوحشية، ففروا إلى تاجوراء التي تبعد خمسة عشر كيلو متراً، فبدؤوا يعدون أنفسهم لمقاومة الغزاة الجدد[٢] .

في سنة ١٥٣١م منح السلطان العثماني خير الدين برباروس لقب بكلربكي الجزائر، وبحصول خير الدين برباروس على هذا اللقب تأكدت الخطوة العثمانية الرامية إلى اخضاع الشمال الإفريقي للسيطرة العثمانية[٣] . وبذلك غدا الصراع خارجياً أي صراعاً إسبانياً تركياً، وأيقن الفرسان أن مواجهتهم لن تقتصر على أهالي البلاد، بل عليهم مواجهة العثمانيين الذين يعملون على تعميق تواجدهم على

---

(١) إتوري روسي : ليبية منذ الفتح العربي حتى ١٩١١ ص ١٦٣.

(٢) Celâl Tevfik Karasapan : Libya.. s. 108.

(٣) Mahmut Ali Amer, Trablusgarbta, Osmanli Insa Fayleyetleri. s1-5.

الساحة الإفريقية، وبوفاة المرشد الأكبر لسلي آدم L'ise Adem، غدا موقفهم صعب للغاية، وجاءت سيطرة خير الدين برباروس على تونس سنة ١٥٣٤م لتزيد الأمر تعقيداً، فلجؤوا إلى البابا يستصرخونه طالبين مساعدتهم، فانصرف البابا يحض الإمبراطور الإسباني شارلكان على استرداد تونس من خير الدين برباروس موضحاً له أهميتها وموقعها الممتاز، ويرد بعض المؤرخين حملة شارلكان على تونس سنة ١٥٣٤م واستعادتها من خير الدين برباروس كانت إرضاء للبابا أولاً والعالم المسيحي ثانياً وتقوية موقف الفرسان ثالثاً.

في الواقع إن الوجود العثماني في مناطق الشمال الإفريقي[١] أقلق الملك الإسباني والعالم المسيحي على حد سواء، فكلاهما يدركان أن تحويل مناطق الشمال الإفريقي إلى منطمة إسبانية لن يتحقق إلا بطرد الأتراك منها، فاندفع مغروراً بقوته وبالانتصار الذي حققه سنة ١٥٣٤م بإعداد حملة أخرى ضد الجزائر سنة ١٥٤١م انتهت بهزيمته هزيمة نكراء، أكسبت الجزائر خاصة ومناطق الشمال الإفريقي عامة قوة وشهرة، علماً بأن حملة شارلكان تُعد أكبر حملة عسكرية عرفها القرن السادس عشر[٢].

تخوف الطرابلسيون من تزايد الهجمات الإسبانية على مناطقهم، ونَفِد صبرُهم من جراء الممارسات الوحشية واللاأخلاقية التي يمارسها الفرسان عليهم، ورأوا أن اللجوء إلى السلطان العثماني خير وسيلة لإنقاذهم مما هم فيه، فشكلوا وفداً، وكلفوه بالتوجه إلى إستانبول لطلب المساعدة، وحالما قابل الوفد السلطان العثماني سليمان وشرحوا له بوساطة مراد آغا المتكلم بالعربية، أحسن استقبالهم ووعدهم بتحرير بلادهم من المسيحيين. وريثما ينتهي السلطان من مشكلاته على الجبهة الشرقية، كلف مراد آغا بالذهاب إلى طرابلس الغرب مع أعداد من الجنودوطلب منه مناوشة الفرسان حتى قدوم الأسطول.

---

(١) اصطلاح الشمال الإفريقي اصطلاح أطلقه العثمانيون على مناطق المغرب العربي، وآثرنا استخدامه التزاماً بالوثائق العثمانية التي اعتمدنا عليها. (المؤلف)

(٢) محمد خير فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، دمشق ١٩٨١ ص ١١٩.

قَدِم مراد آغا إلى طرابلس ممثلاً للسلطان وقائداً للقوات الإنكشارية المكلفة بمهمة طرد المسيحيين من تلك الديار، وهذا يعني أن أحداثاً استجدت على الساحة الإفريقية تختلف عن سابقتها، فخير الدين بربا روس يمثل الولاء العثماني، أما مراد آغا فهو يمثل الثقل العثماني الديني والعسكري والسياسي رسمياً، وتأكد للسكان أن العثمانيين سيحررون بلادهم، ولكنهم لم يتوقعوا بقاء العثمانيين بصورة دائمة ومستمرة.

تزامن الوجود العثماني في الجزائر مع خضوع طرابلس للسيطرة الإسبانية ومن بعدها سيطرة فرسان مالطة الطامعين في الاستقرار، وإجبار أهالي طرابلس على الهجرة منها، والانفراد بحكمها وإدارتها على طريقتهم، وفي الوقت الذي عُين فيه خير الدين أمير الأمراء في الجزائر، صدر القرار الإمبراطوري لشارلكان القاضي بتقديم طرابلس الغرب هدية للفرسان، وإذا كان خير الدين قد أخذ يلحق ضربات موجعة بالقوات الإسبانية، فإن الطرابلسيين كانوا يتألمون من المظالم التي يُنزلها الفرسان بهم، ولم يكن بمقدور خير الدين مساعدتهم لقلة قواته ولكبر حجم مسؤولياته وتطلعه إلى طرد الإسبان من تونس أولاً.

وهكذا يمكننا القول إن التواجد العثماني على الساحة الإفريقة تبلور بشكل مؤكد إثر تكليف مراد آغا بقيادة مجموعة من الإنشكارية إلى طرابلس برغم قلتها، ولكنها خطوة فعلية نحو خضوع طرابلس الغرب وما جاورها للسيطرة العثمانية.

الفصل الثاني

السيطرة العثمانية على ليبية

(١٥٥١-١٩١١م)

يرى بعض المؤرخين أن من أهم الأسباب التي دفعت العثمانيين للقدوم إلى طرابلس الغرب «ليبية» ذهاب الوفد الليبي إلى إستانبول وطلب المساعدة من السلطان العثماني سليمان القانوني، في حين يرى بعضهم الآخر أن تسليم إسبانيا طرابلس الغرب لفرسان القديس يوحنا خاصة كان من أهم الأسباب التي دفعت السلطان سليمان لتلبية طلب الوفد، ومهما تكن الأسباب والدوافع، فإن قدوم الوفد، أيقظ في السلطان سليمان نار الانتقام من الفرسان وملاحقتهم، لأنهم شكلوا عامل قلق وازعاج طوال فترة حكم آبائه وأجداده وحتى حكمه. ولاننفي المقولة التي تقول إن وجود آل برباروس ومنحه لقب بكلربكي الجزائر للبحار الشهير خير الدين قد طمأنه، وهيأ له أسباب منح الوفد الليبي الوعد بالمساعدة.

تذكر بعض المصادر العثمانية المقرّبة من القصر أن السلطان سليمان سُر جداً بطلب الليبيين المساعدة، ولا سيما بعد مبايعة الوفد له بالخلافة بعدّه أول وفد عربي إسلامي يقابله ويبايعه، كما أن مراد آغا أوضح للسلطان تطلعات المسلمين إليه شرقاً وغرباً، فمراد آغا ذكّره باللقب الذي ورثه عن آبائه وأجداده الغازي ابن الغازي، وأن مهمة أمير المؤمنين نجدة المسلمين أينما كانوا، وأن الغزو يعني الجهاد في سبيل الإسلام وحماية دياره من اعتداءات أعداء الدين، فكيف له السكوت ودماء المسلمين تُسفك وديارهم تنهك؟

إزاء تطلعات سليمان تحقيق تصوراته المستقبلية، أكرم الوفد ورده إلى بلاده برفقة مراد آغا مع قلة من الإنكشاريين، وكلفه بقتال الفرسان ريثما يعد الأسطول وينتهي من بعض المشكلات التي تواجهه على الجبهة الشرقية[1].

لم يتخوف العثمانيون من زج قواتهم في مناطق مجهولة وبعيدة جداً عن أراضيهم، لأن قسماً من قواتهم كانت قد دخلت تلك الديار البعيدة منذ ١٥١٨م، وأن مصر ولاية تابعة لهم منذ ١٥١٧م، وأن مسلمي البلاد سيقفون إلى جانب قواتهم.

شارك أهالي ليبية الأتراك مسؤولية طرد الفرسان من ديارهم، إذاً: القاسم المشترك في محاربة الفرسان قاسم ديني، لأن العصر يفرض هذا القاسم ويحض على التمسك به وبخاصة أن كنيسة روما تحض الدول التي تدور في فلكها على العامل الديني، كما أن تفاني الأتراك في القتال على الأرض الليبية يؤكد أهمية العامل الديني وقوة فعاليته.

عندما تجمع الليبيون في تاجوراء فراراً من اضطهاد الفرسان وظلمهم لهم، أدركوا عجزهم عن مقاومتهم بمفردهم، أجمعوا على ضرورة مراجعة الدولة العثمانية وطلب المساعدة منها، وتوجه الوفد إلى إستانبول سنة ١٥٣٦م، وعرض على السلطان مصابهم وما حل بهم على أيدي الفرسان.

اتخذ مراد آغا تاجوراء مقراً لإمارته، وباشر العمل بتحصينها ثم قام بإعداد قوة من الأهالي إضافة إلى مامعه من جنود، وبدأ يشن هجمات متفرقة ضد الفرسان[2].

عمل مراد آغا على توسيع إمارته، ففي سنة ١٥٤٣م ضم مدينتي مسلاته (مسلاطه) وترهونه، وفي سنة ١٥٤٤م ضم غريان وبني الوليد، وكان في الوقت نفسه يعلم إستانبول عن أوضاعه ويحثها على ضرورة الإسراع بإرسال الأسطول،

---

(١) Celâl Tevfik Karasapan : Libya.. s. 109.

(٢) حسن صافي : طرابلس الغرب تاريخي ص ٣٩، أحمد النائب ص ١٩٩.

لأن الفرسان يسرفون في القتل والتشـريد، والمساعدات الإسبانية مستمرة إليهـم، وكان الريس طرغوت يحب ليبية ويتطلع إلى إدارتهـا، ولهـذا أكـد للسـلطان صحـة المعلومات المقدمة مـن قبـل مـراد آغـا، وإن التـأخر في إرسـال النجـدة ضـرر كبـير للأهالي والسلطان بآن واحد.

لم يقتنـع طرغـوت بالمراسـلات فتوجـه إلى إسـتانبول، وقـدم شـرحاً وافيـاً للسلطان عما يحدث في ليبية وعما يفعله المسيحيون بحـق مسـلمي المغـرب العربـي عامة وما يفعلـه الفرسـان في ليبيـة خاصـة وأن المسلمين ينتظـرون مـن الدولـة العثمانيـة إنقاذهم من الظلم والاضطهاد، ولم يكتف الريس طرغـوت بحضّ السـلطان دينيـاً، بـل شرح له أهمية مناطق الشمال الإفريقي وما تتمتع به من أهمية عسكرية واقتصاديـة وأن امتلاكه لها يمكّنه من عدوته إسبانيا ويحقق له إمبراطورية واسعة الأرجاء.

إزاء شرح الريس طرغوت وطرحه للأحداث، أمر السـلطان القبطـان سـنان باشا بتجهيز الأسطول والتوجه إلى طرابلس الغـرب لطـرد الفرسـان منهـا، وتحريـر وهران وبجاية وتونس من المسيحيين وضمها إلى ممالكـه، وعلـى الفـور جهّـز سـنان أسطولاً ضخماً مكوناً من ١١٢ سفينة و٥٢ مركباً ما بين صغير وكبير، واصطحب معه على متن الأسـطول ٨٠٠٠ إنكشـاري و٤٠٠ محـارب وصـانع و٦٠٠ فـارس بخيولهم، مـع كميـات كبـيرة مـن المؤن والمعـدات اللازمـة، كمـا عُهـد إلى الريـس طرغوت قيادة بعض السفن الأخرى، ومـا إن علـم فرسـان مالطـة بقـرار السـلطان العثماني أصابهم الذعر والإرباك، فطلبوا من نائب الملك في صقلية إمدادهم بالجنود والعتاد[1] .

توجه القبطان سنان باشا بـادئ الأمـر إلى مالطـة بقصـد احتلالهـا وتخريبهـا، لكنه حالما بلغها ذهل من قوة حصونها وضخامتها، فقرر عـدم محاصرتهـا بحجـة أن مهمته تحرير طرابلس الغرب من قبضة فرسان مالطة[2] .

---

(١) Mahmut Ali Amer s. 5.

(٢) حسن صافي : طرابلس الغرب تاريخي ص ٤٠-٤١.

حاول الريس طرغوت إقناعه وتسهيل الأمر عليه، لكنه أدرك أن احتلالها يستغرق وقتاً طويلاً، وبخاصة بعد أن علم أن قائد الأسطول الإسباني أندريا دوريا في طريقه إلى طرابلس الغرب لمساعدة الفرسان، فأسرع سنان باشا بأسطوله إلى طرابلس، وأنزل قواته أولاً في تاجوراء ومن هناك وجّه رسالة إلى حاكم طرابلس وقائد الفرسان جاسباري دي فالبير طالباً منه الاستسلام ومنحه الأمان إذا استجاب لطلبه، لكنّ الحاكم رفض طلب سنان باشا بشدة، وأعمله أنه مصمم على الدفاع عن مقره، فقرر سنان باشا مهاجمة طرابلس وأشرف بنفسه على محاصرتها، وحينما كان سنان باشا يحاصر طرابلس جاءه السفير الفرنسي دارمونت D'armont طالباً منه رفع الحصار، ورجاه الإقلاع عما عزم عليه، فأجابه سنان أن الأوامر المعطاة إليه تقضي بطردهم[1] ، فحاول السفير الفرنسي التوجه إلى إستانبول للحصول على عفو لفرسان القديس يوحنا، لكنّ سنان باشا منعه من مغادرة المدينة قبل الانتهاء من العمليات الحربية[2] .

لم تستطع الفرسان الصمود أمام القوات التركية، وفي التاسع من آب سنة ١٥٥١م، بدأت بعض قوات الفرسان الانسحاب من القلعة بسبب قلة الماء في حين كان الأتراك يدفعون مدافعهم باتجاه القلعة حتى غدت على بعد ثلاثين خطوة منهم، وفي الثالث عشر من آب اقتحم أربعة آلاف تركي الحصن، لكنّهم ردّوا على أعقابهم، غير أن هذا الهجوم أرعب جنود كالابريا، وغدوا يبحثون عن وسيلة تمكنهم من الهرب إلى صقلية، وحالما علم المارشال «دي فالبير» بهم، حاول إقناعهم بالعدول، لأن هروبهم وترك القتال عمل منافٍ للشرف العسكري، ووجد دي فالبير نفسه وحيداً بعد تخلي جنوده عنه، فاضطر إلى رفع الراية البيضاء فوق السور معلناً استسلامه، وفي هذه الأثناء قَدِمَ رسولان من جزيرة ميورقة، فعرضا

---

(١) عزيز سامح التير: الأتراك العثمانيون في إفريقية الشمالية، ترجمة الحاج عبد السلام أدهم بيروت ١٩٦٩ ج٢ ص ٥١.

(٢) شارل فيرو : الحوليات الليبية ج١ ص ١٠٥.

على القبطان سنان باشا تخلي قوات الفرسان عن المدينة شريطة المحافظة على أفراد الحامية، وأن يتعهد بنقلهم سالمين إلى مالطة أو صقلية.

قبل سنان باشا الشروط المعروضة عليه بناءً على نصيحة طرغوت، وخرج دي فالير من ملجئه متجهاً إلى مقام سنان باشا، في حين كان الفرنسي «دي روش» آمر برج مندريق القائم عند مدخل الميناء مستمراً في المقاومة مع ثلاثين جندياً من جنوده، فأمر سنان باشا بقصف البرج بالمدفعية الثقيلة، إزاء ذلك اضطر دي روش وجنوده للاستسلام، وغدا جميع أفراد الحامية أسرى بأيدي الأتراك[1] .

وهكذا تمكن الأتراك من احتلال طرابلس وطرد الفرسان منها في الرابع عشر من آب سنة ١٥٥١م، وغدا هذا الحدث التاريخي المهم يُرمز إليه بالتأريخ الأبجدي المرموز بعبارة (جاء الترك بس)، وعمد سنان باشا بعد أن دخلت طرابلس الغرب في حوزة الأتراك (الدولة العثمانية) على تعيين مراد آغا بكلربكي والياً عليها، على الرغم من أن السلطان سليمان القانوني كان قد وعد الريس طرغوت بإمارتها، لكنّ الصدر الأعظم رستم باشا (شقيق سنان باشا) يكنّ الحقد لطرغوت، وهو الذي أقنع السلطان بالتخلي عن وعده وإسناد الإمارة إلى مراد آغا[2] .

وبدءاً من السادس عشر من آب سنة ١٥٥١م، غدت طرابلس الغرب ولاية عثمانية[3] ، وقد عمد العثمانيون على تطبيق الإجراءات العثمانية الإدارية منها والعسكرية.

(١) شارل فيرو : الحوليات الليبية ج١ ص ١١٤.

(٢) شارل فيرو : الحوليات الليبية ج١ ص ١١٥.

(٣) محمود ناجي : طرابلس الغرب ترجمة عبد السلام أدهم ومحمود الأسطى، بنغازي ١٩٧٠ ص ١٤٩.

١ – النظام الإدراي العثماني في ليبية

اعتاد غالبية المؤرخين على تقسيم الإدارة العثمانية لليبية إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: تبدأ من سنة ١٥٥١-١٧١١م.

المرحلة الثانية: تبدأ من سنة ١٨٣٥-١٩١١م.

إن تقسيم الإدارة العثمانية لليبية إلى مرحلتين لايستند إلى أسس تتعدى الاعتياد التاريخي الدارج آنذاك، وبعضهم يقول بأن تقسيمها إلى مرحلتين يتطابق تاريخياً مع ما قبل التنظيمات الخيرية التي بدأها فعلياً السلطان عبد المجيد، إلا أن هذه التنظيمات لم تمس النظم الإدارية للدولة العثمانية وإدارتها، و لم تكن أكثر من تنازلات عثمانية لصالح أوربا ورعاياها، وهناك مؤرخون يسمون الإدارة العثمانية (حكماً)، وهو مصطلح أو تعبير لا يليق بالعثمانيين، لأنهم تركوا لجنودهم حرية التصرف بشؤون الولاية، وإذا وُجد سلطان من سلاطينهم حاول تطبيق العدل ومحاسبة الإنكشارية السائحة إدارياً في الولاية، فهذا لا يعني سوى محاولة فاشلة عجز السلطان وخلفاؤه عن تحقيقها، أما فترة الأسرة القرمانلية التي عُدت مرحلة فصل بين المرحلتين، فبعضهم يُعدها استمراراً للإدارة العثمانية ولكنّها بثوب آخر تناسب مع المراحل الزمنية التي فرضتها التطورات التي أسفرت عن الثورة الصناعية والاحتكاك بالغرب الأوربي، في حين حجبت الإدارة القرمانلية ومن بعدها العثمانية التي تلتها مظاهر التطور الإداري والثقافي حتى التطور العسكري حُجب عن الأهالي وظل الأهالي يجهلون حقوقهم المشروعة التي يصونها القانون والشرع الإسلامي.

اتبعت الدولة العثمانية في الشمال الإفريقي العربي بولاياته الثلاث (الجزائر- تونس- ليبية) سياسة مغايرة تماماً لبقية الولايات الأخرى سواء أكان ذلك في المشرق الأوربي أم المشرق العربي، وهناك مسوغات عدة دفعتها إلى اتخاذ تلك الإجراءات من أهمها:

١- الشمال الإفريقي من أبعد الولايات العثمانية عن المركز، وإن أي تدخل مباشر من السلطة المركزية، سيدفعها إلى تحمُّل تكاليف باهظة، وغالباً لاتعود عليها بالفائدة، لأن مناطقه خضعت لها من قبل بعض مغامري البحر من أمثال خير الدين برباروس وطرغوت وغيرهم، أو بدافع عاطفي أو شعور العظمة.

٢- الشمال الإفريقي من أكثر ولايات الدولة العثمانية عرضة لأطماع الدول المسيحية، وهذا يقتضي من الدولة العثمانية وجود قوة عسكرية، تمتع بنفوذ قوي يمكّنها من فرض سلطتها على الأهالي دون الرجوع إلى السلطان، لأن تلقي أوامر القتال والدفاع لايحتاج إلى أوامر طالما العدو عدو ذكي ونشيط ويسعى جاهداً إلى طردهم.

٣- إن بعد الشمال الإفريقي ووقوعه على مقربة من عدو يزداد قوة يوماً بعد يوم، يفرض على السلطان الاعتماد على القوى العسكرية التي ترتبط به أكثر من القوى المدينية التي تنفصل عنه أو تطالب بالاستقلال لدى شعورها بالقوة بعكس القوى العسكرية التي قلما تفرز شخصية عسكرية يلتف حولها الجميع أو تحظى بتأييد صنوف العسكر جميعها.

٤ - عمدت الدولة العثمانية إلى فصل مناطق الشمال الإفريقي إلى ثلاث أوجاقات مرتبطة كل منها بإستانبول (المركز) ومنفصلة عن بعضها عسكرياً وإدارياً ومالياً، وبهذا الحال يمكن للدولة العثمانية ولزيادة ارتباطهم بها، تسليط كل منهم على الآخر، ناهيك عن الفائدة المادية التي تجنيها من عملية الفصل وخلق المنافسة.

مرت الإدارة العثمانية في ولاية ليبية بعدة مراحل إدارية تميزت كل مرحلة عن الأخرى بمميزات انعكست نتائجها على الولاية، فشكلت مع مرور الزمن شروخاً اجتماعية واقتصادية عميقة الأثر، ولم تكن المراحل التي شهدتها الولاية بنتائجها السلبية أو الإيجابية من صنع الولاة، ولم يكن للأهالي يد في إحداثها بالشكل الذي حدثت فيه، وإنما جاءت نتيجة لبعدها عن المركز ولشعور العنصر التركي بالغرور والتعالي، يقابله شعور الأهالي بالظلم متأثرين بالطابع البدوي الذي يرفض الخضوع للنظام والسلطة إضافة إلى جهل الولاة بأسلوب الحكم والإدارة، وإذا كانت النتائج إيجابية فلا شك محدودة وحدثت بفضل القراصنة الشجعان الذين

حموا الولاة وقدموا للولاية موارد اقتصادية خففت في مراحل زمنية كثيرة عبء الكاهل الضرائبي الأساسي لدولة استهلاكية مثل الدولة العثمانية.

هذه العوامل مجتمعة بصلاحها وفسادها ساهمت في اتساع دائرة الفوضى والسلبية المتنامية نتيجة العجز الاقتصادي الذي تزرخ تحت وطأته الإدارة المركزية وتوقف فتوحاتها ومحاولتها شن حملات على حساب خزينة خاوية، وعساكر تفقد أس نظامها شيئاً فشيئاً.

بناء على ما تقدم ذكره من أحداث، فقد مرت الإدارة العثمانية في ولاية ليبية بعدة مراحل:

١- عهد البكلربكي (أمير الأمراء) ١٥٥١-١٦٠٦م.

٢- عهد الدايات ١٦٠٦-١٧١١م.

٣- عهد الأسرة القرمانلية ١٧١١-١٨٣٥م.

٤- عهد الباشوات ١٨٣٥-١٩١١م.

آ – عهد البكلربكي (١٥٥١-١٦٠٦)

تميز عهد البكلربكي Beglerbegleri [1] في ولايات الدولة العثمانية عامة وولايات الشمال الإفريقي خاصة بالهدوء والاستقرار، ففيه حققت الدولة العثمانية أقصى توسعاتها وأبهر انتصاراتها، ومنه كسبت سطوتها وشهرتها، لكونه اتصف بوجود أشخاص أقوياء، استطاعوا فرض هيبتهم الشخصية ونفوذهم الإداري على الإنكشارية وتمكّنوا من ضبطها وإلزامها بالطاعة.

لم تكن فترة البكلربكي (أميرَ الأمراء) على الدرجة نفسها من القوة والمقدرة في ضبط الأمور وإدارة الولاية إدارة جيدة، إلا أن فترة البكلربكي في مناطق الشمال الإفريقي بمناطقه الثلاث حققت بعض سماتها الإدارية والعسكرية بفضل الولاة الذين أخلصوا لمركزهم وللسطان العثماني ودولته، وبعضهم الآخر أساء إلى لقبه وخان سلطانه وخالف معتقده.

وهناك صفة خاصة، اتصف بها ولاة الشمال الإفريقي في عهد البكلربكي (أمير الأمراء) وهي أن غالبيتهم كانوا من رجال البحر وأن قسماً منهم كان من المهتدين.

---

(١) بكلربكي : وتعني أمير الأمراء أو بك البكوات، وكان حاملها يعدّ الشخصية الثانية في الدولة العثمانية بعد السلطان، لأنه يتحمل الأعباء العسكرية، وكان الغازي أورخان قد منح اللقب لابنه سليمان باشا، وبعد وفاته منح إلى لالا شاهين باشا، وفي عهد السلطان مراد منح اللقب إلى الوزير خليل باشا، لكنه انتقص من مهمته هذه بعض المهمات العسكرية، وبعد توسع الأتراك في الروميلي «روم إيلي» وزعت هذه المهمة بين شخصين بعدما قسمت ممتلكات الدولة العثمانية آنذاك إلى بكلربكية الأناضول وبكلربكية الروميلي، وتذكر المصادر العثمانية أن هذا اللقب اقتبس من السلاجقة، وفي عهد السلطان محمد الفاتح غدا منصب الدفترداري مساوياً لأمير الأمراء، ومن بعد ذلك تعددت مناصب أمير الأمراء وحملها أشخاص من خارج العائلة الحاكمة، وأرسل حاملوها إلى الولايات على أنهم ولاة وقادة عساكر، وتمتعوا بامتيازات كاملة في ولاياتهم، وكانت رواتبهم المالية تتراوح من ٨٠٠,٠٠٠-١,٢٠٠,٠٠٠ أقجة، في حين مُنحَ بكلربكي الصنجق ٤٠٠,٠٠٠ أقجة. للمزيد انظر:
Midhat Sertoglu. Resimli Osmanli Tarihi, Istanbul, 1958. s. 39-40.

وهذا ما دفع بالضرورة إلى ظهور تمايز واضح وجليّ خلال التحولات الإدارية للدولة العثمانية في مناطق الشمال الإفريقي: فبموت رجال البحر ممن ساهم في فرض السيطرة العثمانية في تلك البقاع، فقدت الولاية الهدوء والاستقرار، وشعر الأهالي بالظلم وفوضى الإنكشارية ومساهمتهم في إفساد الإدارة واضطراب حبل الأمن، فاضطر الشبان إلى هجر الولاية والعمل خارج بلادهم، ولم تقتصر محاولة الإنكشارية على ظلم الأهالي وتشريدهم، بل حاولوا إخضاع الرياس أيضاً، فنشب من جراء محاولاتهم هذه، حدوث صراع تحمل الأهالي نتائجه السلبية السيئة.

ويمكن القول: إن وفاة قلج علي باشا سنة ١٥٨٧م هي نقطة انتهاء عصر أمرة الأمراء، وجاء فشل الدولة العثمانية في إسقاط مالطة سنة ١٥٦٥م ليؤكد نهاية عصر القوة وانتهاء السطوة البحرية للدولة العثمانية، وبدء صراع الجند في ولاية ليبية لأكثر من قرن ونصف من الزمن، وانتهى الأمر فيها وفي بعض الولايات الأخرى إلى بروز النفوذ المحلي الذي تزامن مع حدوث الثورة الصناعية في مطلع القرن الثامن عشر.

تولى أمرة أمراء ليبية إثر طرد الفرسان منها مراد آغا ١٥٥١-١٥٥٥م، وكان مراد آغا قد كُلف سابقاً بمهمة طرد الفرسان حيث اتخذ تاجوراء مركزاً لشن الهجمات ضدهم، وظل حتى تحرير الولاية منهم.

كان الريس طرغوت من أوائل المطالبين بتحرير طرابلس الغرب وإنقاذها من الاحتلال المسيحي ونظراً لاهتمامه الشديد، وَعَده السلطان سليمان بتعيينه والياً عليها، لكنّ الصدر الأعظم رستم باشا يكره الريس طرغوت كرهاً شديداً، فصوّر للسلطان سليمان خطورة الالتزام بالوعد الذي قطعه لطرغوت، فاقتنع السلطان بكلامه، وأصدر فرماناً سلطانياً إلى سنان باشا يأمره بإسناد الإمارة إلى مراد آغا.

عمل مراد آغا بعد توليه الإمارة على نقل مركز إدارته من تاجوراء إلى مدينة طرابلس الغرب واتخذ قلعتها مقراً دائماً له، كما حوّل الكنيسة فيها إلى مسجد، وانصرف للاهتمام بتنظيم أمورها الإدارية والعسكرية، وحصّن المدينة وبنى

الاستحكامات حولها، ورمم القلعة وأصلح أبراجها، ولم تتميز فترة مراد آغا بأحداث مهمة سوى محاولة فرسان مالطة استعادة طرابلس الغرب سنة ١٥٥٢م.

بعد فشل الفرسان في طرد الأتراك من مدينة طرابلس واستعادتها، توجهوا إلى زوارة التي تبعد ١٢٠كم عن مدينة طرابلس الغرب، وكانت حملة الفرسان تتألف من اثنتي عشرة سفينة حربية بقيادة أسقف كابوا الراهب (ليوني ستروتزي) مدعوماً من البابا، وكانت حملته تضم أرقى أبناء العائلات المسيحية الإقطاعية، ووصلت الحملة إلى زوارة في الثالث عشر من آب ١٥٥٢م، وعلى الفور اقتحموا المدينة وأسروا خمسمائة شخص من أهلها، وبينما كان ليوني يراقب جنوده وهي تنهب المدينة وتخرّبها، كان مراد آغا بما لديه من قوات يحيط بهم، ودار بين الطرفين قتال مرير أسفر عن هزيمة الفرسان وفقدهم لخيرة جنودهم[١] .

نال مراد آغا شهرة كبيرة بانتصاره على الفرسان، وتحسباً من تكرار الهجوم على إمارته انصرف إلى إنشاء حصون إضافية أخرى، واهتم بالطرق وأقام نقاط حراسة عليها، وفتح الآبار، ولاحق اللصوص وقطّاع الطرق في كل مكان، وظل في إمارته حتى وفاته سنة ١٥٥٥م[٢] .

سُر الريس طرغوت بتحرير طرابلس الغرب من قبضة الفرسان، لكنّه فوجئ بإبعاده عن إمارتها وتعيين مراد آغا، ولم يجد تفسيراً لإخلال السلطان بوعده سوى كره القبطان سنان باشا له، فقرر الانفصال بسفنه عن الأسطول العثماني، لكنّ سنان باشا الذي شعر بظلمه للريس طرغوت وحرمانه من تحقيق حلمه، ألح عليه بعدم الذهاب، وأقنعه بالتوجه معه إلى إستانبول، ولدى وصولهما إليها قدّم القبطان

(١) إتوري روسي : ليبية منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١ ص ١٨٢.

(٢) اختلفت الآراء حولا ولاية مراد آغا، فمن قائل إنه توفي سنة ١٥٥٣م وبعضهم الآخر يذكر أنه توفي سنة ١٥٥٤م، في حين تذكر المصادر العثمانية أن مراد آغا تنازل عن الإمارة حينما شعر بالشيخوخة، واستقر في تاجوراء وبنى مسجداً فيها وأطلق سراح أسراه للمزيد انظر: مهمة دفتر رقم ١ ص ٤١ و ٤٦.

سنان باشا للسلطان شرحاً وافياً عن صفات الريس طرغوت وبطولاته، وتعويضاً له عهد إليه إمارة قارلي إيلي إلا أن الريس طرغوت ظل يتطلع إلى ولاية ليبية التي أحبها إلى أن تحقق له ذلك بعد خمس سنوات من خضوعها للسيطرة العثمانية[1] .

تولى الريس طرغوت إمارة ليبية بعد مراد آغا، وإليه ينسب توطيد الحكم العثماني فيها. عمل الريس طرغوت بادئ الأمر على إخضاع المناطق الداخلية، وضرب بشدة مثيري الفوضى والشغب، ولاحق القبائل البدوية الثائرة، وحذرها من مهاجمة بعضها بعضاً، وأَمِنَ الطرق وقضى على اللصوص وقطاع الطرق السائحين في مختلف مدن الولاية، فغدت الولاية تعيش في أمان منقطع النظير، نظّم الجيش، وكلفه السهر على الأمن، فرض رقابة شديدة على الإنكشارية، ومنع الجباة من اتباع الظلم، ولضمان سلامة الأهالي ومراقبة الإنكشارية من التطاول على سكان المدينة ومحاولتهم سلب أرزاقهم، أقام لهم ثكنات خاصة بهم بالقرب من القلعة، وحدد لهم أوقات تجولهم في الأسواق، وبعد تأكده من تحقيق الأمن والاستقرار، انصرف إلى الاهتمام بالمدينة، فرمم أسوارها وجدّد استحكاماتها وبنى أبراجاً إضافية أخرى، وأنشأ داراً للبارود جنوب القلعة، وبنى مسجداً باسمه لايزال حتى الآن[2] .

وفي أيامه ثار سكان غريان، وأعلنوا العصيان عليه، وهاجموا الحامية الأتراك، وذبحوا فيها قسماً كبيراً، فحاول معاملتهم بالحسنى، وحينما لمس إصرارهم على العصيان والثورة، جهزّ جيشاً من الإنكشاريين قادهم بنفسه، وما إن بلغ غريان حتى حاصرها، وطلب من الثائرين الاستسلام، لكنّهم رفضوا طلبه، وصمموا على مقاومته والتصدي له، عندئذٍ أمر بضربهم بشدة وقسوة، وبعد إخماده ثورتهم، فرض عليهم غرامة مالية كبيرة، تأديباً لهم، ثم اتجه إلى بني الوليد وألزمها بالطاعة، وكانت جولته جولة إرهابية لسكان الدواخل، تأثرت مدينة تاروغا أكثر من غيرها من قسوة الريس طرغوت وحملته التأديبية.

---

(١) Aziz Samih elter. c. s. 196.

(٢) عينات دفتري نمره ١١٤٧ و ١١٣٢.

تتفق المصادر جميعها على القول: إن الريس طرغوت كان يتمتع بقدرة فائقة على حسن الإدارة وأسلوب المعاملة، فهو لا يعتمد القسوة منهجاً إلا عندما يفشل في الإقناع، ولا يستخدم القسوة والصرامة إلاعلى اللصوص وقطاع الطرق، لأنه يعدّهم أعداء القانون والنظام، و لم يُعرف عنه اللجوء إلى اللين إلا في ولاية ليبية لحبه الشديد لها وتعلقه بها.

انفرد الريس طرغوت بحكم الولاية حكماً مركزياً، فحجب الثقة عن قائد الجيش وآغا الإنكشارية وحمّلها مسؤولية الاضطراب ونشر الفساد والإخلال بالأمن، وعهد للقاضي مسؤولية إنصاف المظلومين وطلب إليه إعلامه بأبسط المخالفات، وأسند للأهالي بعض المناصب الإدارية البسيطة، وشجعهم على الزراعة والصناعة.

عمل الريس طرغوت علىتشجيع الأعمال البحرية، وأشرف بنفسه عليها، ووضع عائداتها في خزانة الولاية وسخرها لتحسين أوضاع الولاية ولا سيما عند تعرضها للكوارث الطبيعية، وفي سنة ١٥٥٧م تعرضت الولاية لمرض الطاعون الذي أودى بحياة الكثيرين من سكانها بما فيهم الأرقاء المسيحيين، فسارع إلى إقامة محاجر صحية، ومد المنكوبين بالمال والغذاء، وطالب ولاة الجزائر بإمداده بالمؤن والطعام، كما طلب من إستانبول تزويده بالكساء والعتاد، وحظر على الأوربيين الدخول إلى مناطق غير المصابة بالوباء(١) .

١- حملة جربة ١٥٦٠م :

أنهى صلح كاتو - كامبريزي ١٥٥٩م الصراع الدائر بين فرنسا وإسبانيا، فاستغل الملك الإسباني فرديناند انتهاء الحرب بينه وبين فرنسا، فوجّه اهتمامه إلى مناطق الشمال الإفريقي لأن بحارتها هاجموا سفنه ونهبوا سواحل بلاده، وقد دفعه تخوفه من الريس طرغوت إلى تكليف جيوفاني دي كوردونا بإعداد حملة ضد طرابلس الغرب سنة ١٥٦٠م، وكانت الحملة مؤلفة من ثلاثين لواءً من المشاة

(١) محمود ناجي : تاريخ طرابلس الغرب، ص ١٥٠.

الإسبان بقيادة دون الفارو دي ساندو، وعهد إلى اندرياجونزاكا بقيادة فرقة عسكرية إيطالية مؤلفة من خمس وثلاثين فرقة وأربع عشرة فرقة ألمانية وفرقتين من المشاة الفرنسيين وأربع عشرة فرقة من الفرسان وستمائة مقاتل من سلاح المدفعية، في حين كان الأسطول مؤلفاً من ثمان وعشرين سفينة وأربع عشرة سفينة صغيرة وخمسين سفينة من غاليرا بقيادة اندريادوريا، كما ساهم البابا بعد مباركته للحملة بأربع سفن[1] .

توقف الأسطول المتجه إلى طرابلس الغرب في مياه (بالو) الواقعة أمام زوارة، وحالما عرف الريس طرغوت بخبر الحملة، جهز مالديه من قوات وتحرك براً قاصداً جربة، وفور وصوله اتحد مع الأهالي وباشر بإقامة التحصينات والاستحكامات، في حين كلف قلج علي بالتوجه إلى إستانبول لطلب المساعدة، فكلف السلطان بيالي باشا بقيادة الأسطول الهمايوني والتحرك بالسرعة القصوى لمساعدة طرغوت ضد الهجوم الإسباني.

التقى الأسطولان قبالة الشواطئ الطرابلسية ودار بينهما قتال بحري مخيف، وانتهى الاشتباك البحري بهزيمة الأسطول الإسباني، أما طرغوت وبفضل خبرته القتالية وشجاعة مقاتليه، فقد تمكّن من سحق القوات الإسبانية، وعلت استغاثة الجنود طالبين رفع السيوف عن أعناقهم، أما الأتراك فقد ازدادوا قوة وشجاعة، فبدؤوا بحصد الرؤوس، وكانت حصيلة المعركة إقامة برج من جماجم الأعداء قرب قلعة جربة، ارتفاعه من عشرين إلى ثلاثين قدماً وقاعدته زادت عن مئة وثلاثين قدماً، وسمي برج الجماجم[2] .

أقام الريس طرغوت إثر انتصاره على الإسبان الأفراح ابتهاجاً بنصره، وعُرف آنذاك بالقائد الذي لايقهر،وبعد أن شارك القبطان بيالي باشا الريس طرغوت أفراحه، غادر طرابلس الغرب متوجهاً إلى إستانبول، وترك جزءاً من

---

(١) كوستانزيو برينا. طرابلس من ١٥١٠-١٨٥٠ ترجمة خليفة محمد التليسي، طرابلس ١٩٦٩ ص ٧٣-٧٤.

(٢) كوستانزيو برينا: طرابلس من ١٥١٠-١٨٥٠ ص ٧٦.

الأسلحة والعتاد الحربي والمدفعية مع بعض الإنكشاريين، وطلب من الريس طرغوت ضمهم لقوات الولاية.

انصرف الريس طرغوت إلى الاهتمام بأمور ولايته، فنظم الإدارة تنظيماً جيداً، وعين القضاة وقادة الجيش، وألزم الإنكشاريين بالطاعة، وحذرهم بشدة من معاملة الأهالي بقسوة، ومنعهم من تحصيل أموال الجباية أكثر مما هو مفروض عليهم، وخصص للجند ثلاثة أيام للتجول داخل المدينة، وحينما اطمأن على الولاية إدارة وتنظيماً وأمناً، توجه إلى إستانبول للحصول على بعض الامتيازات من السلطان، ولدى مثوله بين يدي السلطان، سأله عن سبب كثرة العصيانات في ولايته، أجابه الريس طرغوت قائلاً: «إنه من العسير ياسيدي، التغلب على شعب ينتقل بمدينته ويحملها على ظهره»[1].

يفهم من إجابة طرغوت، أن معظم سكان ولاية ليبية يعملون بالرعي، فهم ينتقلون بخيامهم ومواشيهم من مكان إلى مكان، ولهذا يصعب ضبطها، ومن المستحيل أن تنعم الولاية وأهلها بالهدوء والاستقرار مالم تعتمد حياة الاستقرار القائمة على الزراعة بدلاً من الرعي. وهذا يتم من خلال منحها للأراضي ومدها بالوسائل التي تؤهلها لممارسة الزراعة والتجارة والصناعة، ولو أن الأقدار أطالت بعمر الريس طرغوت لربما اعتمد هذا النهج الاقتصادي التي تفتقره الولاية[2].

لم يكتف السلطان العثماني بطرد الفرسان من طرابلس، بل صمم على تشريدهم للمرة الرابعة ولهذا أمر بتوجيه حملة ضخمة وكلفها بطردهم من جزيرة مالطة واقتلاعهم منها. بلغت الحملة الجزيرة من أوائل نيسان سنة ١٥٦٥م، وأحاطت بالجزيرة، ونظراً لمتانة حصونها وقوة أسوارها وشجاعة مقاتليها، فشل الأتراك حتى في دخولها وتعرض أسطولهم للدمار وجنودهم للغرق والإبادة، وكان ممن استشهد من القادة الأتراك في تلك المعركة الريس طرغوت مع خيرة أبنائها الشجعان، ونكبت ليبية بحملة حربة نكبة قلما عرفتها الولاية منذ أقدم عصورها

---

(١) Mahmut Amer (Ali) s. 24.

(٢) Ismail Hakki Uzun çarsili Osmanli Tarihi, Ankara 1975. cilt 2 s. 387.

وكانت نكبتها باستشهاد طرغوت عظيمة الأثر، فبكاه الليبيون بأسى شديد، وعم الحزن مختلف أرجاء الولاية، وعقب مقتل طرغوت واستشهاده، أُمر الأسطول بفك الحصار عن مالطة، ونُقل جثمان طرغوت إلى ليبية حيث دفنوه في مسجده في الرابع والعشرين من حزيران سنة ١٥٦٥م.

وغدا قبره يتمتع بقدسية خاصة لدى سكان الولاية، فما من والٍ قَدِمَ الولاية إلا وقَدَّمَ الذبائح وقرأ الفاتحة على قبره[1].

والجدير بالذكر أن حصار مالطة استمر ثلاثة أشهر، أفقد الأتراك أكثر من خمسة وثلاثين ألف رجل، في حين فقدت ولايات الشمال الإفريقية ما يزيد على خمسة عشر ألف رجل[2].

٢- الإمارة عقب الريس طرغوت :

إذا كان عصر القوة العثمانية انتهى بانتهاء السلاطين العظام، فإن ازدهار مناطق الشمال الإفريقي وقوتها العسكرية وحياتها المستقرة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالرجال العظام الذي صنعوا مجده ووضعوا أسس استقراره وقاعدة نظامه، من أمثال خير الدين برباروس والريس طرغوت وقلج علي وغيرهم، وتعد ولاية ليبية من أولى ولايات الشمال الإفريقي التي نُكست قبل جيرانها بفقدانها للريس طرغوت، فبموته غدت أمرة الأمراء مجرد لقبٍ خالٍ من مضمونه ومحتواه، لأن الأشخاص الذين لُقبوا به انصرفوا إلى حياة اللهو والعبث والمجون، وانساقوا وراء الثروة، وأسفر عن إدارتهم الفاشلة اضطراب أمني وفساد إدراي، فازدادت الصراعات العسكرية بين الجند الذين أذاقوا الأهالي كؤوس الذل والهوان، فأهملت الزراعة، ودمرت الصناعة الحرفية، وتلاشت قوة القراصنة، وأقيمت التكتلات الإقليمية بين الإنكشارية، وكانت عساكر الأناضول من أكثر القوى العسكرية تكتلاً وقوة وشراسة، سيطرت على مقاليد الأمور العسكرية والإدراية، وتوصل الأمر بهم إلى إحياء ديوان الجند أو ديوان الإنكشارية أسوة بولاية الجزائر، وغدا ديوان الإنكشارية صاحب الأمر والنهي في الولاية. ولم يبق لأمير الأمراء المعين من

---

(١) حسن صافي : طرابلي غرب تاريخي ص ٤٢، Ismail Hakki. s. 390.

(٢) كوستانزيو برنيا : ص ٨٨.

إستانبول سوى السلطة الأسمية، إلا أن فعاليته السلطوية وتمكّنه من إدارة الولاية وتصريف أمورها إلى الحد الذي يمكننا من القول: إن ديوان الجند جرد أمير الأمراء من كل سلطة خلال القرن السادس عشر، وتحقق ذلك فعلياً في مطلع القرن السابع عشر، وعُدت المرحلة التي سبقت القرن السابع عشر مرحلة تمهيدية.

لم يكن تشكيل ديوان الجند جديداً على أي من الولايات الثلاث، لكنّه لم يعط أي أهمية من أمير الأمراء خلال القرن السادس عشر، و لم يكن هذا بناءً على أوامر تخول أمير الأمراء إتباع ذلك، وإنما كان مرتبطاً بشخصية الوالي المعين، فإذا كان قوياً تلاشت تجمعات الجند وسحقت تطلعاتهم الرامية إلى إقامة ديموقراطية عسكرية من خلال ما يسمى ديوان الجند، وإذا كان الوالي ضعيفاً ازدادت الجند قوة وحققت آمالها الرامية إلى تولي السلطة من خلال ديوان الجند.

أدرك الولاة الذين تولوا إدارة الولاية شعور الجند بالحد من صلاحيتهم، ولعلمهم بأن السلطان يخص الجند بعناية خاصة، أيقنوا أن بقاءهم لفترة أطول في الولاية رهناً برضى الجند، فاستغل الجند تنازلات الولاة القادمين من إستانبول، للتمادي والتطاول عليهم ومعارضتهم في كثير من الأمور، فانتزعوا منهم امتيازات كثيرة. نتج عن التحولات الإدارية التي حدثت في الولاية اتساع دائرة الصراع ما بين الولاة الجدد وإنكشارية الولاية، و لم يقم السلطان العثماني بحسم الأمور، واكتفى بإصدار فرمانات سلطانية لا قيمة لها.

في الواقع أن الأحداث التي استجدت على الساحة الإفريقية عقب وفاة الأمراء العظام، دفعت بالضرورة إلى بروز أدوار ومراحل جديدة في تاريخ الحاكمية العثمانية، استدعت ظهور ألقاب جديدة، تلاءمت والمرحلة الراهنة التي عاشها الجند، إضافة إلى حدوث تغييرات تشابهت في ولاياته الثلاث، لأن أحداثها تلازمت مع بعضها بعضاً تلازماً زمنياً ومكانياً، فولاية الجزائر هي من أولى الولايات الإفريقية التي خرج إنكشاريوها عن المألوف، وأقاموا ديواناً خاصاً بهم. وحينما لمس إنكشارية تونس تساهل السلطان حيال الإجراء الذي اتخذوه، اقتدوا بهم ساروا على نهجهم في تشكيل ديوان خاص بهم معلنين ثورتهم الأولى؟

ويمكننا القول: إن فترة الاضطرابات التي عاشتها الولايات الثلاث عقب وفاة الأمراء العظام ممن كانوا سبباً مباشراً في تثبيت الوجود العثماني وتعميقه في الديار

الإفريقية، وإن جرت على فترات متلاحقة زمنياً، كانت بمجملها أشبه بمرحلة تحضيرية للمرحلة التي تلت مرحلة أمرة الأمراء وسبقت المراحل القادمة كمرحلة الدايات والآغوات والباشوات، واختصت تلك المراحل بألقاب عسكرية لم تستخدم إلا في ولايات الشمال الإفريقي، وتلاشى لقب بكلر بكي من قاموس العسكرية العثمانية بعدما فقد مضمونه.

إن الولاة الذين خلفوا الريس طرغوت في إدارة ولاية ليبية، لم يكونوا على مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقهم، وحلّ ماتركوه بغالبيتهم الفوضى والمحسوبية، وكان بعض منهم سبباً مباشراً في توسيع دائرة الفوضى وتعميق الصراع بين الجند، معتمدين أسلوب الرشوة والظلم منهجاً لهم، ولمس سكان الولاية تصرفات الولاة، وصراع الجند، فلجؤوا إلى الانزواء في منازلهم تاركين إدارة شؤون بلادهم ووطنهم لأشخاص غرباء لغة وولاءً وأدركوا أن الرباط الديني الذي يجمعهم مع الجنود وولاتهم رباط ضعيف، لا يحيا إلا بوجود عنصر غريب ديناً ولغة ومعتقداً، ولكن العنصر المنشود انصرف إلى تنظيم حياته السياسية والإدارية والاقتصادية والثقافية، بعكس الجند العثماني وسلاطينهم الذين انصرفوا إلى امتهان اللهو والمجون مسلكاً جديداً، وتركوا للزمن مسؤولية تطوير النظم العثمانية بما يتلاءم والعصور المستقبلية، ونتج عن هذا الضياع ما بين التنظيم الأوربي النامي والإهمال العثماني الراكد حيرة عربية فاقدة قوة التحرر الجاد من الجهل العثماني خوفاً من الوقوع في شباك الغرب الأوربي.

تُركت ولاية طرابلس فترة بدون والٍ، فالأهالي حزينون على وفاة الريس طرغوت، والسلطان العثماني غارق في بحر اللهو والمجون من جهة ومشكلات الجند وثورات الولايات وعصيانهم من جهة أخرى، وجند الولاية فرحين بغياب السلطة، فاشتد الصراع فيما بينها، وسئم الأهالي حياة الفوضى، فراسلوا السلطان ملتمسين منه وضع حدٍ لوضعهم، فكُلف يحيى باشا بإدارة الولاية.

عمل يحيى فور وصوله الولاية على ضبط الإنكشارية وإلزامها بالطاعة، ولهذا بدأ منذ اللحظة الأولى بضرب المفسدين من الجند، وأعدم عدداً منهم، كما لاحق

المشاغبين وقطاع الطرق واللصوص، فخافه الجميع، ولزموا الهدوء والسكينة، فاستقامت الأمور وعادت الحياة إلى الولاية، وجدد سفن القراصنة، ورسم لها خطط تحركاتهم البحرية، وإذا كانت المنية قد وافته، فقد حقق إنجازات إدارية جيدة، قدر الأهالي جهده فبكوه أسفاً عليه[1] .

لم تعهد الدولة العثمانية عقب وفاة يحيى إلى والٍ يدير شؤون البلاد، فاستغلت الإنكشارية ترك الولاية بدون والٍ، فعاثت فساداً، وعم الظلم مختلف المدن الليبية، إزاء تفاقم الفوضى وانتشار الظلم، أعلن أهالي غريان الثورة فهاجموا الحامية التركية، وشكلوا لجنة وطنية تجولت في بعض المناطق البدوية وسكان الدواخل يحرضونهم على إعلان الثورة لطرد الأتراك وجنودهم من بلادهم، وحالما وصلت الأنباء إلى السلطان، كلف قلج علي بإدارة الولاية[2] .

عمد قلج علي فور وصوله طرابلس إلى تجهيز حملة من الإنكشاريين، وتحرك بها إلى مدينة تاجوراء الثائرة على الحامية التركية، وبعد إخضاعها توجه إلى بقية المدن الثائرة، وحينما اطمأن على أمن المدن واستقرارها، وجّه اهتمامه لتأديب الإنكشارية، فقطع رؤوس بعض الجند الخارجين على القانون، وطبق عليهم

---

(١) تعددت الروايات حول من خلف الريس طرغوت، فبعض المصادر تذكر أن يحيى باشا هو الوالي الذي خلف طرغوت، في حين تذكر بعض المصادر التركية الأخرى بأن قلج علي رافق جثمان الريس طرغوت إلى مثواه الأخير في طرابلس، ولا يستبعد أنّ يكون هو الذي تولى إدارة الولاية.

(٢) قلج علي : أصله من كالابريا، ولد من أسرة فقيرة، ووقع في الأسر منذ طفولته وسمي بالفرطاس بسبب القرع الذي أصابه، فغدا مهزلة من جميع رفاقه، فتخلى عن مسيحته في الخامسة عشرة من عمره، ولقب بعلي الفرطاس، مارس أعمال التجديف، وفي إحدى غزوات خير الدين أسر من إحدى السفن، وتذكر المصادر التركية أن والده التحق بالدولة العثمانية. ونتيجة لبطولاته البحرية لُقب بالقلج أي السيف، أما أحمد توفيق المدني فتذكر أن قلج علي ورد اسمه في تقرير إسباني باسم الحاج علي، ويضيف أن السلطان العثماني هو الذي لقبه بذلك.

الإجراءات التي طُبقت زمن الريس طرغوت، ثم انصرف إلى تشجيع الأعمال البحرية، وأعدَّ لهم السفن اللازمة ونظمهما تنظيماً جيداً، فغدت السفن الليبية تجول البحار مطمئنة معتدة بقوتها وتنظيمها، ولهذا اندفع الشبان لممارسة الأعمال البحرية والاشتراك بضرب السواحل الإيطالية والإسبانية، في حين التفت قلج علي لتسوية أوضاع الولاية حيث رمم الأسوار والقلاع وأعاد بناء الأبراج التي تهدمت، وجدد معمل البارود، وبينما كان قلج علي يهتم بأمور الولاية، وصله فرمان سلطاني سنة ١٥٦٨م يقضي بتعيينه أمير أمراء الجزائر.

لم يستمر قلج علي طويلاً في أمرة الجزائر، لأن السلطان العثماني عهد إليه قيادة الأسطول الهمايوني، وبعد سنة ونصف من الجهد المتواصل استُكمل بناء الأسطول الذي تحطم في مالطة استعداداً لمواجهة معركة التحالف البحري الأوربي في ليبانتو، وأسفرت المعركة التي حدثت في السابع من تشرين الأول سنة ١٥٧١م عن تحطيم الأسطول العثماني الذي أعاد بناءه قلج علي[1] .

شاركت ولايات الشمال الإفريقي ببحارتها ومقاتليها في معركة ليبانتو، وقاد القوات الليبية إليها جعفر باشا الذي خلف قلج علي في إدارة الولاية[2] .

خسر الليبيون في معركة ليبانتو الكثير من أبنائهم، وحمّلوا جعفر باشا مسؤولية خسائرهم المادية والبشرية، وعدّوا قدومه إلى الولاية نذير شؤم ودمار، فكثرت الاضطرابات في عهده، ولم تبق مدينة ليبية إلا وثارت احتجاجاً على إدارته الحافلة بالظلم، ولشدة ضربه للثائرين، لجأ الثائرون إلى مدينة قفصة التونسية، واتخذوها قاعدة يشنون منها هجماتهم ضد جعفر باشا وقواته[3] .

تخوف جعفر باشا من هروب أعدائه إلى قفصة، فقرر مهاجمتها، وحالما تحقق له ذلك، عامل أهاليها معاملة قاسية جداً، فأرهقهم بالضرائب، ومنها توجه إلى

(١) أحمد النائب ص ٢١٥. محمود ناجي ص ١٥٠.

(٢) مهمة دفتري رقم ١٠ ص ٦٢، فرمان رقم ١٠٩.

(٣) مهمة مستعجلة رقم ١٠١٢.

القيروان وسوسة بحجة حاجته إلى المواد الغذائية، ثم أعلن ضمها إلى ولايته متذرعاً بأن قواته حررتها من الأعداء(١).

احتج سكان تونس على تصرفات جعفر باشا، وطالبوه بإعادة تلك المدن إليهم، وحينما تجاهل جعفر باشا مطالبهم، أعلنوا الثورة عليها، فكثرت العصيانات في مختلف المدن، ووصلت أنباء أعمال الشغب إلى السلطان، وعلى الفور كلف برثو باشا بمهمة إلى تونس لتقصي الحقيقة وإعلامه بمجريات الأمور(٢).

توجه برثو باشا إلى تونس، وعلى الفور اتصل بجعفر باشا وطلب منه إعلامه الأسباب التي دفعته إلى مهاجمة المدن التونسية، وحينما لم يقتنع بكلامه حيث فضل الاطلاع بنفسه على رغبات الأهالي، ثم أعدّ تقريراً للسطان، وبناء على ما ذكر في التقرير أمر السلطان بإعادة القيروان وسوسة والمستنر إلى تونس، في حين أبقى جربة وصفاقس وقابس تابعة لولاية ليبية.

كان جعفر باشا رجلاً ظالماً وفاسداً، عمل على إيقاع الفتنة بين الإنكشاريين، كما لجأ إلى ابتزاز الأموال من الأهالي مستغلاً أسلوبه الضرائبي، فعمت الثورة مختلف المدن، وأعلن الحجاج سنة ١٥٧٥م، ثورته في غريان، ثم لحقتها مدينة طرابلس، واتحدت قبائل بني الوليد مع يفرن، وقررتا عدم دفع الضرائب المفروضة عليهما(٣).

اضطر جعفر باشا إلى مفاوضة بني الوليد ويفرن، وخفف عنهما الضرائب، فلجأت بقية المدن الأخرى إلى مطالبته بتخفيف ضرائبهم، ولكسب ود أهالي ولاية طرابلس قام بتنظيم مدينة طرابلس، فأصلح باب المنشية المؤدي إلى الريف، وجدّد دار البارود، كما أقام في المنطقة الواقعة بين خندق القلعة ودار البارود نصباً تذكارياً ما يزال حتى الآن(٤).

---

(١) مهمة مستعجلة رقم ١٠١٢.

(٢) مهمة مستعجلة رقم ١٠١٣. عزيز سامح الترص ٨٦.

(٣) مهمة دفتري نمره ١٨ ص ١٤٥. كتابنا تاريخ المغرب العربي الحديث (ليبية) ملحق رقم ١ ص ١٦٧.

(٤) Mahmut Amer s. 24.

لم ترغب سكان الولاية بإصلاحاته، وظلوا حانقين عليه، وراسلوا إستانبول بشأن عزله، إلا أن السلطان العثماني كان يقدره، وبدلاً من محاسبته على ظلمه، نقله إلى ولاية شام شريف تقديراً لخدماته[1] .

خلف جعفر باشا في إدارة الولاية رمضان باشا، وحينما توجه إلى طرابلس الغرب برفقة زوجته، لم يرحب الأهالي به، لاستيائهم من الولاة الأتراك، وأيقن الأهالي أن الأتراك جاؤوا إلى بلادهم ليس بوصفهم منقذين، بل لحكم البلاد دكتاتورياً وممارسة الظلم والاضطهاد عليهم.

كان رمضان قبل قدومه إلى الولاية على معرفة بأحوالها، فأعلن فور وصوله تخفيف الضرائب عنهم وإعفائهم من الضرائب السابقة، ووعدهم بمنع الجنود من التعدي ومحاسبة كل من يرتكب جريمة، كما لاحق قطاع الطرق واللصوص، وأقام نقاط مراقبة على مداخل المدينة ومخارجها[2] .

كانت فترة ولاية رمضان باشا على طرابلس الغرب مليئة بالحقد والكراهية ضد الأتراك، كما أن الإنكشارية كانت حاقدة على الولاة القادمين من إستانبول، فازدادت الأوضاع سوءاً، وانتشرت الثورات على نطاق واسع أكثر من ذي قبل، و لم يكن رمضان باشا بالرجل الحكيم الذي يحسن التصرف تجاه الأزمات، فبدلاً من استيعاب الثائرين واحتوائهم والتقرب إلى زعامة طرابلس وعلمائها، حمّلهم مسؤولية تحريض القبائل، فألقى القبض على بعض الزعماء، وأعدمهم[3] .

تسبب إعدام الزعامة الطرابلسية في تفاقم الثورة، وأعلنت مختلف المدن الليبية الثورة عليه، بمهاجمة الحاميات التركية، وبدلاً من لجوء رمضان باشا إلى مسايرة الزعماء، أطلق يد جنوده معتقداً أن الإنكشارية ستقف إلى جانبه ضد الأهالي[4] .

---

(١) برينا ص ٦٣، أما أتوري روسي فيذكر أن جعفر باشا سنة ١٥٨٢ و لم يذكر أنه نقل إلى ولاية دمشق كما ذكر كوستانزيو برنيا.

(٢) كوستانزيو برنيا ص ٩٣، شارل فيرو ص ١٥٨.

(٣) كوستانزيو برنيا ص ٩٣.

(٤) كوستانزيو برنيا ص ٩٤.

توحدت القبائل فيما بينها معلنة الثورة على رمضان باشا وجنوده، فقرر رمضان باشا تأديبهم فخرج بقواته من طرابلس في آذار سنة ١٥٨٤م، وتوغل في الولاية حتى بلغ غريان ومنها اتجه إلى بني الوليد، وحينما لم يلقَ مقاومة قوية تزغل في الداخل حتى بلغ ككلة، ولإلحاق الهزائم به وبقواته، عمد الأهالي إلى ردم الآبار الداخلية، مما عرضه إلىموقف صعب وشاق، نتج عنه تعرض قواته للجوع والعطش، ومات الكثير منهم، وحينما صمم على ملاحقة العصاة، ثار عليه قواده وجنوده وقتلوه قبل عودته إلى طرابلس(١) .

عمت الفوضى الولاية، واشتد الصراع بين قادة الجند، وبدأ كل منهم يحمّل الآخر مسؤولية قتل الوالي رمضان باشا، أما زوجته فقد أُرسلت بسفينة مع ابنها إلى إستانبول، لكنها تعرضت لهجوم قراصنة البندقية الذي نهبوا ثروتها وذبحوا طفلها على حضنها(٢) .

غضب السلطان من تصرف قراصنة البندقية، وطلب معاقبتهم، وإعادة المراكب والأسرى مع النقود التي تقدّر بثمانية آلاف دوكا(٣) .

استغل إنكشاريو ليبية مقتل رمضان باشا وقرروا تعيين شخص من بينهم، وقدموا تقريراً إلى إستانبول يسوغون للسلطان سبب مقتل رمضان باشا، ولتحقيق أهدافهم شكلوا وفداً وأرسلوه إلى إستانبول بعد أن حمّلوه بالهدايا الثمينة، وقصدوا من إرسال الوفد إقناع السلطان بتعيين شخص منهم.

عاد الوفد من إستانبول يحمل فرمان تولية الإنكشاري مصطفى، وزود السلطان الوفد فرمان وعيد يحذر الإنكشارية من مخالفة الوالي الجديد، كما يحذرهم من ارتكاب الظلم ضد الرعية(٤) .

---

(١) Mahmut Amer. s. 75.

(٢) كوستانزيو برنيا ص ٩٥، شارل فيرو ص ١٥٩.

(٣) الدوكا : عملة ذهبية تستخدم في البندقية وفلورنسا، وتعادل الدوكا الواحدة درهمين، ويبلغ وزن الدرهم ٣٢٥ غراماً وكل ٤٠٠ درهم تعادل أوقة للمزيد انظر :
Midhat Sertoglu: Resimli Osmanli Tarihi. s. 78.

(٤) مهمة دفتري نمره : ٦٦ ص ٨٥.

رحب سكان الولاية بالوالي الجديد الذي بدأ عمله بالبحث أولاً عن قتلة رمضان باشا، وعاهد الأهالي على تطبيق النظام والعدل، إلا أن الثورة ازدادت اشتعالاً، لأن الأتراك شعروا فعلياً بالهزيمة أمام أهالي الولاية، وهذا لم يحدث قبل ولن يرضوه، كما أن القولوغلية احتجت وطالبت بتحسين أوضاعها، ولإجبار الوالي الجديد على تلبية طلباتها، قامت بمهاجمة المدينة واستولت على سوق في وسط المدينة يقال له سوق الترك، وسلبو ونهبوا ما فيه، ونتيجة لارتكابهم الظلم والتعدي على الأماكن التجارية، أبدت المدن الليبية استعدادها للثورة، وتزعم الثورة يحيى السويدي أحد زعماء تاجوراء الذي وعدهم بإنقاذهم من ظلم الجنود الأتراك وجبروتهم.

التفت الأهالي حوله بعد ما ألهب نفوسهم بالحماس، ووعدهم بالانتقام من الأتراك وبطردهم من البلاد، والتقى الطرفان في مسلاته، ودار بينهما قتال ثأر وأحقاد، و لم يتمكن الأتراك من الصمود أمام الغضب الشعبي المتطلع إلى طرد الدخلاء وإسناد أمر إدارتهم إلى عقلائهم، وفروا منهزمين إلى قلعة طرابلس ودخلوها وأغلقوا أبوابها عليهم، وسارع زعماء ترهونه وغريان ومصراته وبني الوليد وغيرهم من المدن الأخرى بالانضمام إلى يحيى السويدي وقواته، فازداد يحيى السويدي قوة، فقرر محاصرة القلعة التي احتمى الأتراك بها، وغدا مصطفى باشا في موقف حيرة ودهشة، فقواته لاتكفي لفك الحصار عن القلعة ومقاتلة القبائل الثائرة على الأتراك، فأرسل عن طريق البحر خبراً إلى ولاية تونس، يعلمه بتنازله عن جربة مقابل تأمين الإمدادات الغذائية له.

علمت إستانبول بالأحداث الجارية في طرابلس، فاستدعت مصطفى باشا وعزلته وعينت بدلاً منه حسين باشا سنة ١٤٨٨م، الذي باشر فور وصوله إلى الاتفاق مع زعيم قبيلة المحاميد ابن نويرة ووعده بوعود دفعت ابن نويرة للوقوف إلى جانبه ضد يحيى السويدي.

لجأ ابن نويرة إلى اتباع أسلوب التحايل والخداع، وتظاهر بتأييده ليحيى السويدي، واتفق الطرفان على مهاجمة الأتراك سراً، وما إن بلغا سور المدينة حتى

ألقى ابن نويرة القبض على يحيى وسلمه إلى الوالي حسين باشا فقطع رأسه وأرسله إلى إستانبول، وهذه ليست المرة الأولى التي يلجأ فيها الولاة الأتراك إلى ضرب القوى الوطنية ببعضها بعضاً.

لم تتضح أحداث ولاية ليبية في سنة ١٥٩٠م وما تلاها، فبعضهم يذكر أن يحيى السويدي اتفق سراً مع فرسان مالطة لطرد الأتراك من ليبية. وهل حقيقة اتفق الوالي حسين مع ابن نويرة؟ وكيف له معرفة قوة ابن النويرة؟ أم أن ابن نويرة اندفع من تلقاء نفسه للوقوف إلى جانب الوالي الجديد حسداً من يحيى السويدي الذي حظي بتأييد شعبي لا مثيل له؟

وبالرجوع إلى الوثائق، تبين لنا أن الوالي حسين باشا لم يتفق مع والي تونس ولم يتنازل له عن جربه مقابل مده بالمؤن والعتاد، وفُك الحصار بعد قدوم قوات الجزائر مع عساكر مصر بقيادة محمد باشا ابن درويش، ومشاركة قوات تونس بقيادة أحمد باشا الإستانكولي، وبوصول قوات الإمداد دار بين الطرفين قتال شرس، كان حصيلته دحر الثائرين وتشريدهم بعدما تكبدت قوات الإمداد أعداداً من القتلى والجرحى ومن بينهم أحمد باشا الإستانكولي قائد القوات التونسية وأن ابن نويرة انضم إلى القوات المهاجمة طمعاً بالحصول على مكاسب شخصية له ولقبيلته.

ومن جملة مكاسب ابن نويرة تخلصه من منافس، فحظي بتأييد زعماء مختلف المدن الليبية، كما أن السلطان العثماني أرسل له خلعة وأمر أن يُستقبل في طرابلس بإطلاق المدفعية تقديراً له[1].

بعد هدوء الأحوال وسيطرة القوات التركية على الموقف في الولاية، كلف السلطان قائد الأسطول للتحقيق في الأسباب التي أدت إلى قيام ثورة كلفت القوات العثمانية في الولاية الكثير من الخسائر المادية والمعنوية، وبالتحقيق اتضح أن أسباب الثورة تعود إلى اتباع الولاة الرشوة والفساد، وفرضهم ضرائب لا طاقة لأهالي ليبية باحتمالها، وأن الأهالي مسالمون ويتطلعون إلى تحقيق العدل وأنهم محبون للدولة العثمانية وسلطانها، كما أن الإنكشارية تجاوزت حدودها ومارست الاضطهاد

---

(١) حسن صافي ص ٤٤. يذكر أن قبيلة المحاميد صاحبة هذا الامتياز السلطاني ظلت تتمتع به حتى زوال الأسرة القرمانلية أي حتى عهد الباشوات سنة ١٨٣٥م.

على الأهالي، وأن مصلحة الولاية والسلطان تقتضي تبديلها، فأمره السلطان بالقبض على الضباط والقواد والولاة الذين حاولوا ابتزاز الأهالي ومصادرة أموالهم وإعادتها إلى أصحابها[1] .

ساهم الإجراء الذي اتخذه القبطان باشا بظهور قوة جديدة برزت على الساحة العسكرية، ظلت قرابة نصف قرن تعاني الظلم والاضطهاد بسبب تحكم الإنكشارية بأمور البلاد، وتكليفها أمر المحافظة على القلعة وحراسة الأسواق مقابل إعفائها من الضرائب والمحافظة على الأمن أثناء غياب الإنكشارية في مهمة خارجية، وعرفت القوة الجديدة التي ظلت تشكل قوة فعّالة حتى العقد الأخير من القرن التاسع عشر باسم القولوغلية[2] .

أقامت القولوغلية في نواحي المنشية والساحل والعلاونة والرقيعات والعزيزية، ولم تتمتع بأي امتيازات، وكانت أمورها تُدار من قبل باش آغا، وكلفتها الإنكشارية بمهمة المحافظة على الأمن خارج السور، في حين كلف الدرك بالمحافظة على الأمن داخل السور[3] .

بلغ عدد القولوغلية قرابة ٦٠ألف، ظلت محرومة من أي امتيازات تتعدى الإعفاء من الضرائب، ولهذا نقموا على الإنكشارية والأهالي على حدٍ سواء. وظل أفرادها يشعرون بأفضليتهم على الأهالي، وحينما آلت الأمور إليهم بدؤوا بالترفع على الأهالي وعاملوهم معاملة قاسية، وكانت سياسة السلطة العثمانية عامة وفي شمال إفريقية خاصة تحول دون حدوث أي تقارب بين الأهالي والقولوغلية تحسباً من قيام تحالف بينهما.

---

(١) Mühimme defteri. s. 85. وللمزيد انظر: كتابنا تاريخ المغرب العربي الحديث (ليبية) ملحق رقم ٣ ص ١٦٩.

(٢) القولوغلية: مصطلح مؤلف من لفظتين: قول (عبد) أوغلو (ابن) أي أولاد العبيد، وتشكلت نتيجة زواج الإنكشاريةمن النساء المحليات، ويؤكد إسماعيل أوزون تشارشلي أن هذا الاسم أطلق على العناصر الأعجمية وعلى أبناء الإنكشارية، ولم يطلق هذا الاسم على أبناء المهتدين الذين تزوجوا من النساء المحليات، للمزيد انظر:

Mehmet Zaki Pakalin c. 2 s. 320

(٣) حسن صافي ص ٤٣ (لفظة الدرك استخدمت من قبل المصادر التركية، وهناك بعض الوثائق تذكر أن مفرزة شكلت من الجند وأطلق عليها اسم الدرك).

إن تولي القولوغلية لمقدرات الأمور في الولاية، لم يبدل من وضع الأهالي، بل على العكس مما توقعه الأهالي فقد مارست عليهم الظلم والقهر، وهذا ما دفع الوالي حافظ باشا في مطلع القرن العشرين لاستخدام القوة ضدهم، فجردهم من امتيازاتهم ونفاهم وشردهم سنة ١٩٠٢م.

أبدت الدولة العثمانية إثر الاضطرابات التي حدثت في ليبية إلى تشديد قبضتها على قواها العسكرية والولاة المكلفين بالإدارة، وإذا كانت الدولة العثمانية قد تساهلت نوعاً ما تجاه ولايات الشمال الإفريقي لعدة أمور لمّحنا إليها سابقاً، فإن بُعدها ساعد ضباط الإنكشارية إلى استغلال البعد، فاندفعوا يطالبون الوالي بالحصول على امتيازات تخولهم مشاركته في الحكم متسترين تحت اسم ديوان الجند، وبما أن ولاية ليبية لم تكن في وضع يخولها إحداث تبديل في أسلوب الحكم بسبب تعرضهم للظلم والاضطهاد، وتجلى موقف الأهالي بإعلان ثورتهم بقيادة الثائر يحيى السويدي، إلا أن ثروتهم انعكست سلباً عليهم، لأن الولاة الذين عينوا في العقد الأخير من القرن السادس، لم يتملكوا حرية تصريف إدارة الولاة بسبب تدخل العسكر من خلال ديوانهم الذي ازدادت صلاحيته على حساب صلاحية الوالي القادم من إستانبول ولا سيما بعدما تقدم ديوان الجند بمقترحات، اضطر الوالي إلى قبولها، وللحد من صلاحية الوالي، شُكل مجلس سُمي مجلس أركان حرب، مهمته مساعدة الوالي في المحافظة على الأمن وتطبيق النظام، وتم اختيار أعضائه من بين أعضاء ديوان الجند، وغدت أمور الولاية تناقش في مجلس ديوان الجند بدلاً من مناقشتها في مجلس الولاية، واضطر الوالي لترك مجلسه والذهاب إلى ديوان الجند، وفي أحيان كثيرة، كان الديوان يناقش الأمور ويتخذ القرارات دون دعوة الوالي لحضور الاجتماع أو استشارته، وبتوقيعه على المقترحات التي اتخذها الديوان بدون حضوره وموافقته عليها، استبعد الوالي من الحضور والتوقيع، وغدت القرارات التي تصدر باسم ديوان الجند سارية التطبيق، على الجميع احترامها والعمل به.

تجريد الوالي من مهمات المحافظة على الأمن وتطبيق النظام وإعلان الحرب ونقل الجنود من مكان لآخر، دفع الديوان إلى رفع تقرير إلى السلطان العثماني يعلنون فيه ولاءهم وأنهم مكلفون بمهمة حماية الولاية من الأعداء، والعمل على

تطبيق العدالة والالتزام بالشرع الشريف، وأكد الديوان في تقرير الولاء أنه قصد من حصر الأمر به حكم الولاية حكماً جماعياً يحول دون الانفراد في اتخاذ قرارات تساهم في إفساد النظام واضطراب الأمن.

تعد الفترة الواقعة من سنة ١٥٩٥-١٦٠٦ فترة تمهيدية، ساعدت ديوان الإنكشارية (الجند) على تجريد الوالي من أي سلطة فعلية، وكان الوالي إبراهيم باشا الذي تولى الإدارة سنة ١٥٩٥م يتجنب إثارة الخلاف مع الديوان الذي يحظى بتأييد السلطان وولاء سكان الولاية، فانصرف إلى جمع الثروة مقتنعاً بما مُنح له من صلاحيات، وحالما يتصرف بما لا يرضي الديوان يُطلب منه مغادرة الولاية.

عُين إسكندر باشا سنة ١٦٠٠م والياً على ولاية طرابلس بصلاحية محددة لازمته حتى عزله، خلفه في سنة ١٦٠٦م سليم باشا الذي استسلم لرغبات الديوان وانتهى الأمر به حداً، دفعه إلى الوقوف خلف رئيس الديوان في جميع المناسبات، كما أن الأهالي قدروا للديوان معاملته الحسنة لهم، وقدرة أعضائه على تصريف الأمور والاهتمام بشؤون الولاية، كما أبدى سكان الدواخل تقديرهم للإدراة الجديدة، وتعهدوا التزام الهدوء ودفع ما عليهم من ضرائب في أوقاتها المحددة، ولم يمضِ وقت طويل حتى بدأ التجار الأوربيون بالقدوم إلى الولاية يتبادلون البيع والشراء، وكدست بضائع جديدة في الأسواق لم تكن موجودة من قبل، وخُيل للأهالي أن الأيام السوداء ولت وانقضت.

تمرد سكان الجبل سنة ١٦٠٧م بزعامة الداعية عبد الله رافضين دفع الضرائب، فكلف الديوان ابن نويرة زعيم قبيلة المحاميد إخضاعهم، فلبى ابن نويرة طلب الديوان، فهاجم سكان الجبل في سهل طرابلس وقتل منهم حوالي ٤٠٠ شخص ولاحقهم حتى حدود الجبل، وألزمهم بالطاعة ودفع ماعليهم من ضرائب[١].

(١) كوستانزيو برنيا ص ١٠٧.

ب – عهد الدايات (١٦٠٦-١٧١١م)

تولى الإنكشاريون إدراة الولاية من خلال ديوانهم بعدما وضعوا نظماً وقواعد ضابطة على الفائز بثقة الديوان الالتزام بها منعاً من حدوث اضطراب أو شغب، كما حُددت مهمة الوالي المعين من إستانبول، ونصت النظم التي وضعوها على انتخاب رئيس ديوان الجند لمدة ستة أشهر وأن يلقب الشخص الفائز بثقة الديوان باسم الداي(١).

فاز الضابط سليمان بثقة الديوان، ويُعدّ سليمان أول إنكشاري ترأس ديوان الجند في عهد الدايات في ولاية ليبية، وظل يتقبل التهاني طوال فترة ولايته، ولم يكن راغباً الالتزام بقرارات الديوان ونظامه، وأدرك أعضاء الديوان نواياه، فطالبوه بالتنازل عن منصبه والالتزام بالنظام حقناً للدماء ومنعاً من إثارة الفتن والاضطرابات في ولاية يسودها الهدوء والاستقرار منذ فترة وعساكرها غير راغبين بالعودة إليها ولا بتعميق خلافهم مع الأهالي، تأزمت الأمور، وكادت المناقشات التي دارت في قاعة المجلس أن تتحول إلى صدام مسلح بين أعضاء الديوان ومؤيدي الداي سليمان، وحينما وجد الداي سليمان أن معارضيه يتمتعون بنفوذ قوي وشعبية كبيرة وتأييد جماعي من الأعيان والعلماء اضطر إلى التنازل عن منصبه.

استمر الديوان بالسير على نهجه حتى سنة ١٦١١م. وعد الباحثون هذه الفترة، فترة متميزة سادها النظام وعلا العدل فيها، وتساوى الجميع أمام القانون، وضُربت العناصر الفوضوية بدون أي رحمة، ومُنحت البحرية حرية التصرف وقُدمت لها تسهيلات كثيرة ساعدتها على تحقيق نجاحها وتفوقها البحري،

---

(١) Celâl Tevfik Karasapan. Libya. s. 129. لفظة داي (Dayi) وتعني خال، وهي تعادل ألب التي تعني الشجاعة والقوة، والجدير بالذكر أن كلمة داي استخدمت في شمال إفريقية كرتبة عسكرية، ولم يقتصر الشخص المرشح على ميزة أو صفة يتحلى بها تدعى ثقة الجنود به ومحبتهم له للمزيد انظر: Mehmet Zeki pakalin. c. I. s. 407.

وأغرقت الأسواق بالبضائع المحلية والمستوردة، وتوافد التجار الأوربيون على الولاية بشكل لم تشهد الولاية له مثيلاً، وأقام الديوان مع أوجاقات تونس والجزائر علاقات جيدة، ورُحب بالعناصر العربية الأندلسية التي هُجرت من إسبانيا سنة ١٦١٠م.

فاز الداي صفر بثقة الديوان وانتخب في ١٦١١م رئيساً لديوان الجند، ويُعد الداي صفر أول ضابط إنكشاري توصل إلى رئاسة ديوان الجند من خلال نفوذه الاقتصادي، وتمكن بالمال من شراء ضمائر ضباط الديوان وإقناعهم بضرورة جمع سلطة الوالي ورئاسة الديوان إلى الشخص الفائز، وبذلك جمع السلطات بيده، ووافقت إستانبول على الإجراءات التي أقرها الديوان، معتقدة أن جمع السلطة بيد شخص أفضل من توزيعها بين رئاسة الديوان وأعضاء الديوان والوالي المعين من إستانبول. وغدا الوالي المرسل من إستانبول يمثل السلطان في المناسبات الرسمية والأعياد، ونقل رغبات السلطان إلى رئيس الديوان وأعيان المدينة وعلمائها.

اندفع الداي صفر يدير الولاية مدفوعاً بهوس السلطة والحكم، فقتل مناوئيه، وسخر أمواله لتعميق نفوذه وتنفيذ أوامره على القبائل البدوية التي استكانت لأوامره دون اعتراض، ولزيادة صلاحياته نفى ضباط الإنكشارية وضرب عناصرها بشدة بحجة الإخلال بالأمن والنظام، وكانت إجراءاته الصارمة وأوامره الجائرة تحظى بتأييد أعضاء الديوان وأعيان طرابلس وعلمائها(١).

عمل الداي صفر على الاهتمام بأمور ولايته، فشجع الأعمال البحرية واشترى سفناً كبيرة، واستخدم الصنّاع بعدما وسّع ترسانة طرابلس الغرب، واختار الشبان الإنكشاريين للعمل في البحرية، فاندفع البحارة الليبيون يجوبون البحار البعيدة معتزين بسفنهم وبالغنائم التي ملأت الأسواق، وعمت الأفراح والأعراس مختلف المدن الليبية، وغصت المدينة بالأسرى، فاضطر الداي صفر إلى بناء دار كبيرة مربعة الشكل تقوم على اثنى عشر عاموداً خُصصت للأسرى الأوربيين، ولتصريف غنائم سفنه أقام مع جيرانه علاقات طيبة، ورحب بالتجار

(١) Celâl Tevfik Karasapan. s. 115.

الأوربيين وعاملهم معاملة حسنة، دفعتهم للاطمئنان على بضائعهم المكدسة في الأسواق[1].

أسرف الداي في الخطوات التي اتخذها كافة، وتناسى ضربه للإنكشارية وحقدها عليه، كما استخف بالوالي ووجهاء المدينة، وبدا ديوان الإنكشارية وكأنه حُل، لأن القرارات كانت تصدر باسم الداي صفر، وهي خطوة جريئة لم يتجرأ شخص قبله على اتخاذها، ووصل الأمر به حداً دفعه إلى تلاوة فرمانات إستانبول أو مهرها باسمه، وأحاط نفسه ببعض رجاله المخلصين، وغدا يتقلد بالملوك في مأكله ومشربه وحتى في موكبه لدى تجوله في الأسواق، وفرض على الأتراك حتى كبار الضباط منهم مناداته بلقب (الأفندي) والأهالي بـ (سيدي) والأجانب بـ (صاحب المعالي)[2].

لم يستطع الداي صفر السير على نهجه السابق من الاستقامة والعدل، فالأموال التي أنفقها بغية الحصول على منصب الداي لكسب الجميع لصفه، أرغمته على استرجاع ما قدمه بسخاء، فلجأ إلى ابتزاز الأموال بالقوة من الجميع مدنيين وعسكريين فصادر أموال الأثرياء، وحكم على معارضي أوامره بالإعدام.

عم الولاية شعور بالضيق والقهر، وبدأت المدن الليبية كافة تتهيأ للثورة، وتوقف النشاط البحري، وتلاحم الأهالي والإنكشاريون استعداداً لرفع عصا الطاعة، وتخوف الجميع من تأزم الأمور، وتجنباً من سفك الدماء، شكل الديوان وفداً لمخاطبة الداي صفر، لكنه طرد الوفد وهدده بالموت[3].

وجد الداي علي باشا نفسه متهماً بتأزم الأحداث ومشاركاً بها، لأنه أيده في الكثير من تصرفاته وقبل هداياه، فترك الولاية بعدما أعلن براءته من تصرفات الداي، وتوجه إلى استانبول مسرعاً، وأعلم الصدر الأعظم بما يجري في ولاية ليبية، وعلى الفور كلف الصدر الأعظم حامد باشا بتولي إمارة ليبية وطلب منه تقريراً مفصلاً عن أعمال الداي صفر.

---

(١) كوستانزيو برنيا ص ١١١.

(٢) كوستانزيو برنيا ص ١١٣.

(٣) Celâl Tevfik Karasapan. s. 116.

وصل الوالي الجديد حامد باشـا إلى الولايـة سـنة ١٦١٤م، فاسـتقبله الـداي صفـر، وكعادتـه قـدم لـه الهدايـا والتحـف الثمينـة، فدهـش بهـا، وانحـاز إلى صفـه ووصلت الجرأة به حـد الدافـع عنـه وتحميـل الديـوان مسـؤولية الأخطـاء المرتكبـة، فاضطر الانكشاريون إلى تشكيل وفد من الأهالي منهم للتوجه إلى استانبول وتقديم شكوى إلى السلطان[1] .

تحـالف سـكان الجبـل والأهـالي يدعمهـم الإنكشـاريون ضـد الـداي صفـر، وبدؤوا بمهاجمته، وحاولوا إطلاق النار عليه، لكن الداي مع مؤيديـه تمكّنـوا منهـم، وما أن وصل الوفد إلى إستانبول حتى استقبلهم الصدر الأعظم ونقل شـكواهم إلى السلطان. فأمر أحد ضباطه بمهمة الذهاب إلى ليبية وقتل صفر، ليكـون عِـبرةً لكـل ظالم يحاول الاعتداء على رعاياه والتطاول عليهم[2] .

بلغ القبطان خليل باشا ولاية ليبية في أيار سنة ١٦١٥م ترافقه ثلاثـين قطعـة بحرية، وعلى الفور استدعى الداي صفراً إلى سفية القيادة، وحالما صعد السفينة، أمر القبطـان باعتقالـه، وقيـده بـالحديد، فـأغلق أصحابه ومؤيـدون أبـواب المدينـة محـاولين الاعتصام بالمدينة، لكنّ العلماء والأعيان تدخلوا بالأمر ووعدوهم بإطلاق سـبيله، وبعـد استكمال التحقيقات، أُحضـر الـداي صفـر إلى الديـوان للتـأكد مـن صحـة الشـكاوى المقدمة ضده، وعندما ثبت صحتها، صدرت فتوى بإعدامه مشنوقاً علـى أبـواب القلعـة أمام الجميع،كما أمر القبطان بمصادرة أملاكه وتحويلها إلى أوقاف أميرية[3] .

عاد خليل باشا إلى إستانبول، بعد مصادرة أملاك الداي صفر وإعادتهـا إلى أصحابها، وقدم تأسفه لابن نويرة عما فعله الـداي، فاقتـاد بعـض الإنكشـارية الـتي تعاونت مع الداي إلى إستانبول، ونقل العديد من وظائفهم، ولشدة إسراف القبطان

---

(١) Celâl Tevfik Karasapan, Libya. s. 119.

(٢) Celâl Tevfik Karasapan. s. 134.

(٣) Celâl Tevfik Karasapan. s. 135. (بعض الوثائق تذكر أوقاف خيريـة وبعضهـا الآخر تذكر أوقاف أميرية، وحسب ما نعلمه فإن أملاك الوالي الظالم تصـادر وتحـوّل إلى أملاك أميرية: للمزيد: انظر مهمة دفتري نمره (٣٤) ص ١٠٦.

خليل باشا وقساوته في معاقبة المخالفين، بدت الولاية وكأنها شبه خاوية من أي قوة دفاعية، ثم توجه إلى تونس وطلب من واليها عثمان داي إرسال مفرزة من العساكر لحماية قلعة طرابلس، ريثما تصل العساكر التي سيرسلها من إستانبول بعد وصوله[1] .

ثبّت القبطان خليل باشا الوالي حامداً في ولايته، وأمره بالتعاون مع الديوان لإدارة الولاية بشكل جيد، وحذّره من استخدام القوة والعنف ضد الأهالي، ومنع الإنكشارية الباقية من التطاول على الأهالي، وبينما كان حامد باشا ينظم الولاية، جاءه فرمان يقضي بعزله وتعيين سليمان باشا والياً على الولاية، وعُرف عن الوالي سليمان باشا الحكمة والعدل، فخفف الضرائب، وفي عهده ثار سكان غريان وترهونه بحجة فقرهم وعدم قدرتهم على دفع الضرائب المترتبة عليهم، وعاملهم باللين والملاطفة، وحينما تمادوا استخدم العنف تجاههم فخافه الجميع، وتجنبوا الثورة والعصيان.

احتج أهالي مدينة طرابلس على تصرفات إنكشارية تونس، وطالبوا الباشا بسحبهم من القلعة وإعادتهم إلى تونس، وبعد فشله في إخراجهم، أعلم إستانبول برغبة السكان، فصدر فرمان سلطاني يقضي بترحيلهم، وكلف أحد الضباط بالإشراف على عملية انسحابهم[2] .

سر الأهالي كثيراً لرحيل إنكشارية تونس من قلعة طرابلس، وحالما علم سكان غريان وترهونة برحيل إنكشارية تونس، عادوا للمطالبة برفع الضرائب المفروضة عليهم، وبما أن سليمان باشا لم يكن لديه القوة الكافية لمواجهة العصاة، لجأ إلى الأعيان والعلماء طالباً منهم التدخل لإيقاف العصاة حقناً للدماء، وبتدخل الفقيه سيدي سعيد، قبلوا التخلي عن مطالبهم شريطة إعفائهم من الضرائب لمدة سنة كاملة[3] .

---

(١) كوستانزيو برنيا ص ١١٧.

(٢) كوستانزيو برنيا ص ١١٨.

(٣) كوستانزيو برنيا ص ١٠٩.

عُزل سليمان باشا من الولاية سنة ١٦١٩م وعُين مكانه حسن باشا، وفي هذه الأثناء كان ديوان الإنكشارية قد انتخب مصطفى شريف رئيساً له، وبما أنه لم يُمنح صلاحيات رئيس الديوان كأسلافه، عمد إلى إيقاع الفتنة، فادعى أنه من سلالة الرسول (ص) (وما أكثرهم) فانقسم الإنكشاريون على أنفسهم، وبدهائه أقنع الحزبين بالوقوف إلى جانبه، فأجمعوا على انتخابه داياً على البلاد.

خشي الديوان والوالي من غضب السلطان، فأرسل الأعيان ووجهاء الولاية رسائل إلى السلطان والصدر الأعظم يسوغون ما فعلوه، استجاب لرغباتهم فأصدر فرمان تولية مصطفى باشا داياً على الولاية.

عمل الداي مصطفى باشا على تطبيق العدل، وتأمين الاستقرار في مختلف أرجاء الولاية، وشجع الأعمال البحرية، وتوغلت السفن الليبية حتى ميناء سردينيا، وكثرت الأسرى في أحياء المدينة وشوارعها، وجدد معاهدة الصداقة مع برنو، ولكنّ الاستقامة طريق شاق ومتعب ولا قدرة له على الالتزام به فجنح إلى الظلم والتعسف وأذاق الأهالي كؤوس الذل والهوان، فأرهقهم بالضرائب، وسخّرهم في أعمال تعود عليه بالمنفعة، واحتكر الغنائم لنفسه، وحالما علم الصدر الأعظم بتصرفاته أمر بإعدامه، فهرب مصطفى إلى القلعة مع مؤيديه وأغلقوا أبواب القلعة عليهم، وبعد توسط أحد الزعماء الدينيين نزل من القلعة، فهجموا عليه وأعدموه على أبواب القلعة سنة ١٦٣٠م(١).

جمع الوالي قاسم باشا الذي عُين على الولاية في الثالث والعشرين من كانون الثاني سنة ١٦٣١م أعضاء الديوان وحذرهم من سوء التصرف، وذكّرهم بحب السلطان لولاية طرابلس الغرب، فتخوف الديوان من ترك الأمور بيد الوالي الذي هدّدهم بغضب السلطان، وقرر إجراء انتخابات لانتقاء داي يدير الأمور مناصفة مع الوالي قاسم الذي تأفف كثيراً من مشاركة الديوان له في إدارة البلاد، بعكس إستانبول التي أبدت رغبة بعودة الديوان لاستلام دفة الأمور في الولاية لأفضليته من الحكم الفردي. فإدارة الديوان للولاية تخلق تماسكاً بين أفراد

---

(١) Celâl Tevfik Karasapan. s. 115.

الإنكشارية وتضعها أمام مسؤولياتها، وتكون أكثر ارتباطاً بالمركز، فالإنكشاريون والمهتدون يرغبون بخضوع البلاد للسيطرة العثمانية، لأنهم يدركون أن الأهالي ينفرون منهم ويترقبون ساعة الخلاص من جبروتهم وتسلطهم على أمورهم الخاصة والعامة.

آ- فترة القوة في عهد الداي :

كان عساكر الولاية من جنسيات مختلفة ومناطق متعددة رباطهم الأساسي الولاء للسلطان والتبعية له ما داموا يتمتعون بامتيازاتهم التي تخولهم الوقوف في مقدمة السلم الاجتماعي والوظيفي، وأنهم موضع اهتمام السلطان ومن كبار خاصته، هذه الامتيازات تدفعهم للالتفاف حول علم السلطان الأخضر، بعكس الأهالي الذين لا يرتبطون مع السلطان بأي رباط يتعدى الحماية لهم على الصعيدين الداخلي والخارجي، كما أن الأهالي يدركون أن السلطان يكنُّ لهم الود والاحترام لأنهم يلتزمون تجاهه بدفع الضرائب دون تقدير منه لأوضاعهم والمجاهرة باسمه والخطبة له بصورة مستمرة ودائمة، وأي إهمال من قبلهم تجاهه يسلط عليهم عساكره التي تنطبق عليهم مالياً بضرائب لا طاقة لهم على تحملها ناهيك عن القهر والذل.

ساهمت الأحداث التي مرت بها ولاية طرابلس الغرب في خلق تباعد بين أهالي الولاية والسلطان العثماني وعساكره. ولهذا فشل الداي رمضان باشا في ضبط الأمور وتسيرها. حيال ذلك اتفق مع باشا الصاقزلي الذي يتمتع بنفوذ قوي على تسليمه السلطة، وتظاهر الداي رمضان بالذهاب إلى الصيد، فاستغل محمد باشا الصاقزلي غيابه، فهاجم القلعة مع رجاله، وأعلن تولية منصب الداي، و لم يجد الديوان حلاً سوى تقديم التهاني له.

كان الصدر الأعظم يدرك أن ولاية ليبية بحاجة إلى شخصية قوية تتمكن من ضبط الأمور وتسيرها بشكل جيد، ينهي الفوضى القائمة فيها منذ زمن طويل، وبتولي محمد باشا الصاقزلي مقدرات الأمور القوة، بارك خطوته، ورد خادمه عثمان باشا - الذي قدم إستانبول محملاً بالهدايا إليه مع فرمان تعيينه داياً على ولاية ليبيا سنة ١٦٣٣م[1] .

---

(١) كوستانزيو برنيا ص ١٤٦.

تُعدّ فترة محمد باشا الصاقزلي من أكثر الفترات هدوءاً واستقراراً، ففي عهده بلغت الولاية مرحلة ازدهار اقتصادي وهدوء أمني ونشاط بحري قلما شهدتها خلال الوجود العثماني وقد شبه بعض المؤرخين مرحلة محمد باشا الصاقزلي بمرحلة الريس طرغوت.

عمل محمد باشا على الاهتمام بالولاية اهتماماً كبيراً، فأكثر من بناء الخانات بسبب توافد التجار الأوربيين، وغُمرت الأسواق بالبضائع الأجنبية، وهذا ما استدعى بناء الأسواق التجارية والمخازن الكبيرة والواسعة، وشارك الليبيون الأجانب الأعمال التجارية على الصعيدين المحلي والخارجي لدرجة أنهم أقاموا علاقات تجارية نشطة مع بعض الدول الأوربية، وتوغل في المناطق الداخلية حاملين إليها البضائع المحلية والمستوردة، كما أن السفن الليبية التجارية والبحرية بلغت أقصى المحيطات وهاجمت مختلف السواحل الإيطالية والإسبانية، وأوقعت الرعب فيها.

لم تعرف الولاية تنظيماً إدارياً ومالياً مثلما عرفته في عهد محمد باشا الصاقزلي، فقد نظم السجلات المالية وأحصى أشجار النخيل والمواشي وأشجار الزيتون، ولتشجيع زراعتهم أعفى مزارعيها من الضرائب لمدة خمس سنوات، كما حدد نسب الضرائب المفروضة على المدن الليبية، وحذر بشدة الجباة من زيادة الضرائب وأن تكون الضريبة بحسب ما يمتلكه من أشجار وما تنتجه من محاصيل، ولزيادَة محصول الفلاح مد الفلاحين بالمساعدات الضرورية لإنجاح زراعتهم، واهتم بالمواشي وأقام الآبار في مناطق متعددة من الولاية، وأمن الطرق وأقام عليها حراسة لضمان سلامة التجار، كما جدد المعاهدة مع ملك بورنو سنة ١٦٣٥م، وأعفى تجار الولاية والولايات المجاورة من الرسوم، لكنّه أخضع البضائع المصدرة والمستوردة لمراقبة دقيقة ولاحق المحتكرين ملاحقة شديدة. ثم انصرف إلى توسيع دار صناعة السفن، واستقدم من الولايات المجاورة ومن إستانبول لوازم السفن والصنّاع المهرة، وانتقى الشبان الأقوياء لممارسة الأعمال البحرية، وسمح للقادرين من الأهالي بشراء السفن والعمل لحسابهم الخاص مقابل رسوم منخفضة يدفعونها

ورسوم عالية بالنسبة للأمراء والأغوات، وقُدرت إيرادات الولاية حسب ما ذكرها أمين الخزانة مصطفى آغا بثلاثة ملايين فرنك[1] .

أولى الداي محمد باشا الصاقزلي اهتمامه الخاص للجيش، فأشرف بنفسه على إعداده وتنظيمه، وفرض عليه نظاماً عسكرياً صارماً، وحدد له الرواتب، على أن تدفع له كل ثلاثة أشهر، ومنح الفرسان أربع سكودات شهرياً، كما منح الجنود ما يعادل ٥٠٠ غرام خبز يومياً، وطبق على رجال البحر إجراءات مشددة، وأنزل عقوبات صارمة بطواقم السفن المهملة، وقسم السفن إلى مجموعات، تضم كل مجموعة من سبع إلى تسع سفن صغيرة وكبيرة، وزود السفن الكبيرة بثلاثين أو أربعين مدفعاً[2] .

إن اهتمام الداي محمد باشا الصاقزلي بالجيش دفعه إلى تشكيل قوات عسكرية إضافية، سماها (الرديف). وهي تتألف من الأهالي والعبيد مهمتها حفظ الأمن وعهد أمر الإشراف عليها إلى المشايخ، في حين عهد إلى زعماء القبائل البدوية مهمة تنظيم قبائلهم، وحمّلهم مسؤولية إثارة الشغب وارتكاب أعمال السرقة والتعدي على القوافل التجارية، وحذّرهم من حدوث أي شغب يعيق تحركات التجار وتنقلاتهم حتى في الليل.

عين الداي محمد باشا الصاقزلي عبده الأمين عثمان نائباً له في قيادة الجيش وحمّله مسؤولية وقوع أي ظلم في أقصى الولاية وأدناها، وأمره باستخدام العنف الشديد والقاسي حيال أعمال العصيان وحركات التمرد، كما أسند للمهتدين بعض المناصب المهمة، وكلفهم بتنظيم جداول إحصائية بقطع الجيش وكمية الضرائب المفروضة على كل مدينة، وبإعلامه عن كل صغيرة وكبيرة، كما عهد للأعيان مهمة الاهتمام والعناية بأحوال الأهالي داخل المدينة وخارجها.

وفي سنة ١٦٤٤م ضجت بنغازي من حاكمها يوسف بك، فقدّموا له شكوى يطالبونه باستبداله، لكنّ الداي رفض طلبهم، لأنهم أعلنوا العصيان قبل

---

(١) Celâl Tevfik Karasapan. s. 135.

(٢) شارل فيرو : ص ١٨٠.

تقديم الشكوى وهاجموا الحامية التركية فيها وحاصروها في القلعة، ونهبوا الأسواق والمحلات التجارية، فجرد حملة كبيرة ضدهم، وألحق بهم خسائر فادحة، وأثناء جولته التأديبية ضم بعض المناطق الأخرى لإمارته.

ومما يؤخذ على الداي محمد باشا الصاقزلي ميله الشديد والعلني للفرنسيين وتفضيلهم على غيرهم، وسماحه للإرساليات التبشيرية ممارسة نشاطاتها الدينية في الولاية بشكل سافر، مما أثار حفظية السكان عليهم، واتهامه بمخالفة تعاليم السلطان وتوجيهاته[1] .

أدرك الداي محمد باشا الصاقزلي أن إستانبول غير راضية عن تصرفاته بشأن منح الإرساليات المسيحية امتيازات واسعة في الولاية، ولولا انشغال السلطان مراد الرابع بمشكلاته الخارجية لأصدر فرمان عزله من الولاية، لكنّ محمد باشا الصاقزلي استغل الوضع المتأزم الذي تواجهه الدولة العثمانية، فتصرف وكأنه أمير مستقل وغير تابع لها.

إزاء تصرفاته وبطشه بالجميع، ازدادت النقمة عليه، وبدأ الجميع يتآمرون ضده فتمكنوا من شراء طبيبه الخاص، فدس السم له ولابنه في الثامن عشر من آب سنة ١٦٤٩م حيث أغلق أبواب القصر عليه إلى أن توفى، ودفن بجوار مقبرة الريس طرغوت باشا[2] .

خلّف محمد باشا الصاقزلي وراءه خادمه عثمان باشا دون أن يوصي له بالولاية، ونظراً لخدماته وقدرته على الإدراة وخبرته التي كسبها من سيده محمد

---

(١) شارل فيرو ص ١٨٠.

(٢) محمود ناجي: ص ١٥٤ (تذكر بعض المصادر التركية أن الطبيب كان أرمنياً، إلا أن هذا الادعاء غير صحيح والمصادر التركية قالت إنه أرمني للحقد التاريخي القائم بينهما، ولن أقول يهودياً أيضاً فالحقد التاريخي قائم ما بيننا وبين اليهود، وكل ما يمكن قوله أنه طبيب خائن، أنقذه الداي وعززه وحماه وقدم له كل ما يستطيع، ويقال أن محمد باشا مات لمرتين المرة الأولى حين رأى ابنه يموت من تأثير السم ويناديه انقذني يا أبي والأب مسموم هو الآخر وعاجز عن الخروج لأن أبواب القصر مغلقة بإحكام) المؤلف.

باشا الصاقزلي، اتفق أعيان المدينة ووجهاؤها على تعيينه داياً على الولايـة، واعترافـاً منه بفضل سيده عليه حمل كنيته وتلقب بعثمان باشا الصاقزلي.

أبدى عثمان باشا عدم رغبته في إدارة الولاية، وزعم أنـه قبـل المنصب بنـاءً على وصية سـيده لـه، علمـاً أنـه أجرى اتصـالات سرية مـع الوجهـاء والأعيـان، ووعدهم خيراً إن هو أصبح دايـاً على الولايـة، كمـا اتصـل بضبـاط الإنكشـارية ووعدهم بالترقية وزيادة الرواتب لهم ولجنودهم.

تعهد عثمان باشا الصاقزلي أثناء قبولـه التهـاني بـالعمل على حفـظ الولايـة والسهر على راحـة الأهـالي وأمنهـم، وأنـه سيلتزم بنهـج سيده، وأنـه لـن يسـمح للأجانب التدخل بشؤون الولاية، ولـن يمنحهـم امتيـازات تخولهـم التحـرك داخـل الولاية.

كان عثمان باشا الصاقزلي قرصاناً بحرياً شجاعاً، عَرِفَ خلال حياتـه كيفيـة الانصياع لأوامر رؤسائه، ويمتـاز بصـبر علـى الشـدائد ومواجهـة الأخطـار، ولهـذا فالشدة والصرامة متأصلة في طباعه، فمنذ اللحظة الأولى خافته الإنكشارية وتجنبـت معارضته، وأبدت استعدادها لتنفيذ أوامره، وليقطع الطريق عليها زاد روابتها من ٦ إلى ١٠ ريالات.

عمل عثمان باشا الصاقزلي على الاهتمام بالبحرية، وأشـرف عليهـا بنفسـه، فوسّع دار صناعة السفن (الترسـانة)، فاسـتقدم الصنّـاع والخـبراء مـن كـل مكـان، واشترى سفناً كبيرة وزودها بمدافع حديثة، وترك إدارة الولاية على ما هي عليه من التنظيم الذي كان مطبّقاً أيام سيده.

عُرِفَ عن عثمان باشا الصاقزلي الترف وبناء القصور، فأقام قصراً خاصـاً بـه سَمتْه الأهالي قصـر (الأعمـدة)، كمـا سمـح للأغنيـاء وكبـار ضباطـه بنـاء القصـور الخاصة بهم، وأفسح المجال للتجار ببناء الخانات في مختلف أرجاء الولاية، وفي عهده توافد التجار الأوربيون بأعداد هائلة.

اعتادت قبائل بني الوليد على الثـورة والعصيـان بسـبب الضرائـب المفروضـة عليها، بحجة ضيق حالها فلم يمهلها الـداي عثمـان باشـا، وعلـى الفـور جـرد حملـة

عسكرية برئاسة قريبه رجب بيرام، وكلفهه بتأديبها ومنعها مستقبلاً من رفع عصا الطاعة، وقد واجهت قبائل بني الوليد أشرس حملة تأديبية عرفتها منذ دخول العثمانيين إلى أراضيهم.

عم الرخاء الاقتصادي الولاية كلها بحيث شمل مختلف طبقات المجتمع الليبي، وغدا بإمكان كل إنسان ممارسة التجارة أو دفع الضريبة المترتبة عليه دون تذمر أو تأفف أو ضيق حاله، ولشدة حرصه على الرفاه الذي تعيشه الولاية، منع الأجانب من ممارسة أي نشاط تجاري داخل الولاية دون إذن مسبق، وحدّد لهم مناطق اتجارهم، وفرض على الإرساليات التبشيرية قيوداً صارمة ومنعهم من إقامة أي مركز لهم خارج المدينة، ووضعهم تحت مراقبة دقيقة تحول دون ممارستهم لشعائرهم الدينية.

استمرت ولاية عثمان باشا الصاقزلي ثلاث وعشرين سنة، عدّها الأهالي أياماً، لأنهم لم يشعروا يوماً بعبء الضرائب، ولم يغلقوا أبوابهم ويحتمون بها خوفاً من الإنكشارية، وظلوا منذ سنة ١٦٣١م يتحركون بين مدنهم وقراهم بحرية وأمان، فالطرق آمنة ومعمورة، والتجارة دخلت القرى وغزتها، والقبائل البدوية اعتادت على تأجير جمالها للتجار، محليين وأجانب، والمواد الغذائية مكدسة في الأسواق المنتشرة في مختلف أحياء المدينة، لكنّ عثمان باشا الصاقزلي، لم يستمر على نهجه الإداري، بدأت الشكوك تأكل رأسه، يأخذ الإنسان على الشبهة، فبدأ أولاً بالتجار الأجانب حيث صادر أموالهم وبضائعهم، وتدخل في الأسعار، وفي سنة ١٦٧١م خرجت أساطيله البحرية للغزو، فغنمت الشيء الكبير، وما إن عادت حتى جمع الغنائم لصالحه، فثارت عليه الإنكشارية، وتجمعوا في منطقة المنشية يساندهم الأهالي وبعض الأعيان احتجاجاً على أعماله، فأطلق النار عليهم، واستمر القتال بين الطرفين ثمانية أيام، ولما شعر بفشله، سمّم نفسه، فمات على الفور، ودفن بجوار سيده سنة ١٦٧٢م[1] .

---

(١) Celâl Tevfik Karasapan. s. 136.

كان من أهم الأعمال التي خلّدت الداي عثمان، إقامته الخانات لإيواء الأسرى والتجار، فأشرف بنفسه على نظافة المدينة، تجنباً لعدم تعرضها للأوبئة والأمراض، خصص عدة أقسام من قصر طرغوت لإيواء المرضى وبنى مشفى للمرضى سماها باسمه، وكان يقدم للمرضى وجبة طعام يومياً، وخصص غرفة في القعلة كصيدلية وزودها بالعقاقير اللازمة، واستقدم الأطباء، ولدى تعرض الولاية لوباء كان يطلب من ولاية تونس تزويده بالأطباء، وفي بعض الأحيان كان يستأذن إستانبول بغية إحضار الأطباء الأوربيين.

كان الداي عثمان على عكس سيده، يكره الفرنسيين والأوربيين، ولهذا فرض رقابة شديدة على التجار الأجانب، وألقى القبض على كل شخص لا يحمل جواز دخول، ونظراً لتدفق الأوربيين إلى الولاية، عمد إلى رفع قيمة الجواز من ٢-٥ سكودات.

أجرى الداي عثمان في سنة ١٦٧١ إحصاءً للأسرى الأوربيين في الولاية، فبلغت أعدادهم ١٥٦٠ أسيراً، ونتيجة لاتباعه الظلم وانجرافه وراء الطمع وجمع المال، قام بعرض الأسرى للبيع، فوجّه البابا نداءً إلى الدول المسيحية، يطالبهم فيه، بافتداء الأسرى مهما بلغ ثمن الشخص الواحد، فتوجه في مطلع سنة ١٦٧٢م الماركيز دي مارتيل إلى ولاية ليبية فافتدى الأسرى الموجودين فيها، وعبر إلى ولاية تونس في الخامس عشر من آب سنة ١٦٧٢م، وكلف أحد ضباطه بمقابلة الداي عثمان بشأن افتداء مالديه من أسرى، وعندما قابل الداي بادره الداي قائلاً: هل أحضرت المال اللازم، فرد عليه الضابط الفرنسي قائلاً: إن مولاي الإمبراطور الفرنسي لا يمنحك مالاً، لأن سلطانك أمر بإطلاق سراح جميع الأسرى وبخاصة الفرنسيين منهم، فرفض الداي عثمان ذلك بشدة، وكان دي مارتيل يرغب بقصف المدينة لكنّه غير مخول بذلك[1] .

طبق عثمان منذ سنواته الأولى القوانين المتبعة آنذاك، وكان يشرف بنفسه على تنفيذها، فقد أعدم إمرأة اتُهمت بالكفر والإلحاد، وقطع أصابع إحدى

---

(١) كوستانزيو برنيا، ص ٢٠٠.

الخادمات لارتكابها السرقة، أما اللصوص فعاقبهم بشدة، وفي بعض الأحيان كان يلجأ إلى قطع اليدين أو الساقين أو الاثنتين معاً، فيؤخذ المذنب بعد قطع أطرافه إلى مخزن القلعة، ويوضع الجزء المتبور في القطران لإيقاف نزف الدم(١).

أما عقاب القتلة والمجرمين، فكان الخوزقة لمدة ٢٤ ساعة، أما الجرائم الأخرى، فمرتكبوها يجلدون بالسياط، وتتراوح عدد الجلدات من ٢٠-٣٠ جلدة حسب الجرم المرتكب، وأحياناً تصل إلى /٨٠٠/ جلدة، ولم تكن هذه الأحكام تعتمد على قانون منصوص أو مكتوب، وإنما يفرضها الداي في آوانها، وتشير الوثائق المدونة أن عثمان باشا اقتدى بسيده محمد باشا الصاقزلي في تطبيق تلك الأحكام(٢).

ويمكن القول: إن فترة القوة من مرحلة الدايات، مثّلها الداي محمد باشا الصاقزلي والداي عثمان باشا الصاقزلي، واستمرت من سنة ١٦٣١-١٦٧٢م، عرفت الولاية خلالها فترة ازدهار تجاري وبحري منحتا سكان الولاية خبرات كبيرة، واستقراراً أمنياً مكنّا الأهالي من العيش والتعايش فيما بينهم ومع جيرانهم، وتركا بصمة إدارية وأمنية واقتصادية، لن تشهد الولاية لها مثيلاً.

وبموتهما بدأت أوضاع الولاية العامة بالتدهور والانهيار امتدت قرابة أربعين سنة، انتهت بقيام الأسرة القرمانلية.

٢- فترة الضعف والفوضى

شهدت الولاية عقب انتهاء فترة القوة من عهد الدايات صراعاً دموياً بين أعضاء الديوان فيما بينهم، وبين الضباط وجنودهم، وغدا الديوان ألعوبة بأيدي الضباط الأقوياء الذين شكلوا كتلاً عسكرية، فرضت نفوذها، ولم يتمكن أي من الضباط الأقوياء إيقاف التدهور والانهيار اللذين تشهدهما الولاية، وتولى في هذه الفترة ٤٢ داياً، تولى بعض الإدارة ليوم واحد، وبعضهم تولى لمدة أسبوع أو شهر، لكنّ غالبيتهم مات قتلاً.

---

(١) كوستانزيو برنيا، ص ٢٠٠.

(٢) أرشيف رئاسة الوزراء مهمة دفتري رقم ١٠٩ ص ٥٤.

لم تعمد الدولة العثمانية إلى التدخل أو إيجاد حل للأوضاع المتدهورة بغية إنقاذ الأهالي من الفوضى والاضطراب، واكتفى السلطان بالموافقة على الإجراءات المتخذة من قبل الديوان، وتعرضت الولاية بمختلف مدنها وأقضيتها إلى ظلم وإرهاب شديدين، فاضطر الشبان إلى هجر بلادهم سائحين في المناطق الأخرى يبحثون عن رزقهم، وقد خلت الولاية أثناءها من زعامة محلية قادرة على مواجهة الظلم الذي يمارسه الجند التركي على بلادهم، فالزعامة البدوية اكتفت بحماية قبائلها إلى حد التوغل في الداخل بحيث لا تطالهم أيدي الإنكشارية، أما أعيان المدينة ووجهاؤها فلم يتجرؤوا على تحريض الأهالي، لأن الطابع الديني الذي يحتمي به السلطان حد من نفوذهم خوفاً من تكفيره لهم.

استمر ديوان الإنكشارية بالسير على النهج الذي سلكه منذ سنة ١٥٩٥م، لكنّه أدخل عليه بعض التعديلات، اعتقاداً منه أنها تحول دون انفراد الشخص الفائز بإدارة الولاية، فأوجدوا منصب الكاخيا أي (النائب)[١] . لربما توفي رئيس الديوان فجأة أو طالب الديوان بعزله، فكما هو معروف كانت المدينة تتعرض عقب وفاة رئيس الديوان أو عزله إلى حالة قلق واضطراب وأحياناً يصل الأمر إلى حد الاقتتال، تُزهق خلاله الأرواح، وتُنهب الأسواق، فيغلق الأهالي منازلهم أو يهربون إلى القلعة، ويظلون فيها إلى أن ينادي المنادي بالشخص الفائز بثقة الديوان، وفي أفضل الحالات وأحسنها فإن الانتخابات تستمر عشرة أيام.

أسفر اجتماع الديوان عن انتخاب شخص يُدعى عثمان، وانتخب الريس علي لمنصب الكاخيا وكان عثمان من المهتدين وممن يتمتع بخلق حسن وحكمة

---

(١) كلمة كاخيا : وتعني صاحب البيت أو بيت الأعمال (حالياً يعادل الغرف التجارية أو الصناعية) والشخص الفائز من قبل الدولة كان يلقب سابقاً دعاجي أو شيخ أو نقيب، وهي اصطلاحات عربية الأصل استبدلها الأتراك بلفظة كتخدا أي الشخص الذي يقوم بالوساطة بين الصناع والدولة وعادة ينتخب من قبل الصناع لرعاية مصالحهم لدى الدولة، وبعد التنظيمات لعب الكتخدا دوراً بارزاً في التاريخ العثماني وتمتع بنفوذ قوي تلى الصدر الأعظم في الأهمية للمزيد انظر: Zaki Pakalin c. 1. s. 178.

وعقلانية، لكنّه كان مكروهاً من قبل البحارة، ولهذا امتنع البحارة عن المشاركة في الانتخابات، وتذرعوا بحجة القيام بغزوة بحرية[1] .وحالما عادوا من رحلتهم البحرية، وعلموا بفوز غثمان، احتجوا عليه وتزعم إبراهيم مصرلي أوغلو عملية الاحتجاج، فخلعوه وقتلوه، وانتخبوا مكانه بالي شاويش.

عمل بالي شاويش على تهدئة الأمور بعد اضطراب استمر عشرين يوماً، وكلف العمال بالتوجه إلى عملهم، وأمرهم باتباع العدل، وألزم العساكر بالطاعة وضرب العصاة منهم بشدة، فأغلق الكنائس التي فُتحت منذ زمن محمد باشا، وعامل أسرى المسيحيين معاملة قاسية أسوة بمعاملتهم للأسرى المسلمين، وفي هذه الأثناء واجهته مشكلة ابتدعها مراد باي ابن حمودة حيث هاجم طرابلس وحاصر قلعتها بحجة الانتقام لصديقه عثمان، ولم يُرفع الحصار عنها إلا بعد تدخل العلماء والأعيان حقناً لدماء المسلمين، فقبل توسطهم وعاد إلى بلاده. كما أن إنجلترا استغلت اضطراب أحول الولاية وفساد إدارتها، فطالبت الداي عثمان بتجديد المعاهدة القديمة معها، فرفض طلبها وأبلغها أن المعاهدة القديمة ملغاة وغير ملزم بالعمل بها وعقاباً لها كلف خمس سفن بضرب السواحل البريطانية، وعهّد لمصطفى الكبير الإستانكويلي وإبراهيم مصرلي أوغلو وقره طاغلي والقبطان أحمد طرغوتلي بقيادتها، لكنّه لم يشهد نتائج حملته البحرية، لأن المنية وافته في الثالث عشر من آب سنة ١٦٧٥م.

خلفه في إدارة الولاية مصطفى بهلوان الذي فاز بثقة الديوان، وانتُخب سليمان التوقَاتلي كاخية له، ولما عادت السفن من حملته البحرية، احتج قادتها على انتخاب مصطفى بهلوان، لأنه لم يأخذ رأيهم، فخلعوه ونفوه إلى جزيرة جربة، وبما أن إبراهيم مصرلي أوغلوا يتمتع بنفوذ قوي وشعبية كبيرة، فقد اضطر الديوان لانتخابه بالإجماع خشية الاقتتال[2] .

---

(١) Aziz Samih Alter. s. 226, Celâl Tevfik Karasapan. s. 137.

(٢) كوستانزيو برنيا ص ٢٠٨.

اشترط الديوان على إبراهيم مصرلي قبل انتخابه، الرجوع إليه في كل الأمور التي تهم الولاية، والعمل على تطبيق النظام وإقامة العدل والحد من نفوذ الأوربيين، وتشجيع الأعمال البحرية لضمان الرفاه الاقتصادي وتأمين الأموال لخزانة الولاية.

كان إبراهيم مصرلي أوغلو شجاعاً وجباراً، لا يتورع عن قتل كل من يعارضه، فخافه الجميع، وتوقعوا منه ظلماً شديداً، ومنذ الوهلة الأولى ضرب القبائل الثائرة بشدة وقسوة، وأثقل كاهلها بالضرائب والغرامات، ونفى الضباط المنافسين له خارج مدينة طرابلس، فلجأ بعضهم إلى وجهاء المدينة وأعيانها، وشكلوا وفداً إلى إستانبول لتقديم شكوى ضده إلى السلطان، وحالما سمع إبراهيم مصرلي أو غلو بخبر الوفد، جمع ثروته وغادر المدينة هارباً[1].

سُر الإنكشاريون والأهالي بفرار إبراهيم مصرلي أوغلو، فاجتمع أعضاء الديوان لانتخاب شخص لرئاسة الديوان، ووقع الاختيار على إبراهيم جلبي، وانتخب أحمد كاخيا له، وبعد ثلاثة أيام عاد الأسطول من غزوته البحرية، فاحتج رؤساؤه على انتخاب إبراهيم جلبي، ورفضوا الاعتراف بشرعيته، فاضطر الديوان لعزله بعد تسلمه منصب الداي ثلاثة أيام[2].

علم السلطان بما يجري في ولاية ليبية، وأن الاضطرابات والفوضى تزداد يوماً بعد يوم وأن رعاياه يعيشون مرحلة قلق واضطراب شديدين بسبب فقدان الأمن، وعلى الرغم من معرفته بأحوال الولاية، فإنه لم يتخذ إجراءاً فعلياً، واكتفى بتوجيه فرمان توصية، فتجاهل الديوان فرمانه، واجتمع أعضاؤه لانتخاب شخص لرئاسته، فوقع الاختيار على الضابط الدستاري محمد باشا الذي فاز بثقة الجميع، وأثناء عملية الانتخابات استغل عامل فزان الفوضى السائدة في مركز الولاية، وانشغال العساكر بنتائج الانتخابات، فأعلن عصيانه وتمرده، فاضطر الديوان إلى تكليف مفرزة من الإنكشارية بالتوجه إلى فزان لمحاربة الثائر على سلطته، فتصدت له

---

(١) Celâl Tevfik Karasapan. s. 140.

(٢) Aziz Samih Alter. s. 224.

وهزمته، لكنّ بعض الضباط احتجوا على الدستاري محمد باشا فعزلوه وعينوا الإستانكولي مصطفى الكبير، وكان الداي مصطفى قوياً وشجاعاً، تمكّن من إعادة النظام إلى الولاية[1] .

تعرضت البلاد في سنة ١٦٧٨م إلى وباء شديد، قُتل خلالها عدد كبير من الأهالي ومن جملتهم الإستانكولي مصطفى الكبير، وفوجعت الولاية وأهالها بوفاته، لأنهم سئموا الحالة التي يعيشونها، وعاد الديوان إلى الاجتماع لانتخاب شخص لتولي منصب الداي، وجرت أثناء عملية الانتخاب مشادات عنيفة كادت أن تتحول إلى قتال، وأُغلقت المحلات وهرب الكثير من الأهالي من المدينة وبعد ثلاثة أيام فاز الضابط عثمان برئاسة الديوان، ولسوء طالع الأهالي لم يعش الداي عثمان سوى ثلاثة أشهر[2] ، فعاد الديوان للاجتماع وفاز بالثقة محمد آق ديمرجي، لكنه لم يكن بالرجل القادر على ضبط الأمور لضعفه وتردده في اتخاذ القرار المناسب. فاضطر الديوان إلى إحداث منصب قائد الجيش، وعهد إلى الضابط حسن أبازه بتولي هذا المنصب الجديد، وكلفه بضبط الأمن، والضرب على أيدي اللصوص والمشاغبين، كما عهد الديوان إلى الضابط محمود آغا مهمة الإشراف على الخزانة[3] .

إن ضعف الداي محمد آق ديمرجي، لم يمنعه من البحث عن إيقاع الفتنة بين صفوف الإنكشارية، وحينما نجح في مسعاه، لجأ إلى اتباع الظلم، ففرض على الأهالي ضرائب وغرامات كثيرة، فضج الجميع من تصرفاته وعمت الثورات مختلف المدن، فاستغل خليل بك احتجاجهم وغضبهم من الداي، فقاد عدة سفن واتجه بها إلى الزعفران، وحين وصلها نادى به الأهالي داياً على البلاد، ومنها اتجه إلى مدينة طرابلس فاستقبله الأهالي ونصبوه داياً عليهم بعدما نفوا محمد آق ديمرجي إلى مدينة تاروغا، وكلفوا عاملها بقلته[4] .

---

(١) Aziz Samih Alter. s. 224.

(٢) Aziz Samih Alter. s. 225.

(٣) Aziz Samih Alter. s. 225

(٤) أحمد النائب : ص ٢٨٢.

لجأ الداي الجديد خليل بك إلى اتباع الشدة والقسوة لفرض الأمن والقضاء على الفوضى التي غدت شبه متأصلة في الولاية، وعاقب المهمل من عماله عقاباً شديداً، ورمم القلاع، وأنشأ الحصون، ووسع دار البارود، كما بنى داراً لصك النقود بدون إذن مسبق، ولتمييز العاملين به، أمرهم بارتداء الملابس المزركشة، وبذل جهود كبيرة لإعادة البحرية إلى سابق عهدها.

تفاقمت الأحداث في ولاية تونس نتيجة لطمع مراد الثالث ومحاولته توسيع حدود ولايته على حساب جيرانه، فأوعز السلطان إلى آغا السباهية إبراهيم الشريف بضرورة التخلص منه، ونجح إبراهيم الشريف في قتله وتولى السلطة في تونس ثم هاجم ولاية ليبية سنة ١٧٠٤م بهدف التخلص من خليل بك، فتصدى له خليل بقواته، ولكنه فشل، فترك قواته في أرض المعركة ونجا بنفسه، فصمم إبراهيم الشريف على ملاحقته، إلا أنه تراجع عن قراره بسبب توسط الأهالي لديه، وتعرض قواته لوباء الطاعون.

في سنة ١٧٠٩م أعلن عبد الله بن عبد الله الملقب بالحاجي تمرده وعصيانه، فبدأ بقطع الطريق على القوافل التجارية ونهبها، فجرد خليل بك - الذي عاد لتولي منصب الداي بعد هزيمته أمام إبراهيم الشريف - حملة لتأديبه ومنعه من قطع طريق القوافل والاعتداء على المارة، فاستغل الضابط إبراهيم الأركليلي خلو المدينة من العساكر، فجمع أنصاره ومؤيديه وحاصر المدينة، وحينما علم خليل بك عاد من فوره، ونشب بين الطرفين قتال مرير، انتهى بهزيمة خليل بك، فغادر الولاية إلى مصر عن طريق سرت، ومنها توجه إلى إستانبول.

لازم الفشل الديوان وأعضاءه في اختيار شخص يتولى منصب الداي، بسبب تدخل الضباط الأقوياء واحتجاجهم على الشخص الفائز بثقته، فعلى إثر اغتصاب إبراهيم الأركليلي سلطة الداي، ثار عليه محمد بك الجن وهدده بالقتل، لكنّ الإنكشارية لم تكن راضية عن أي منهما، فقتلت محمد بك الجن وعزلت إبراهيم الأركليلي لاغتصابه السلطة، وعينت الحاج مصطفى داياً على الولاية[1].

---

(١) أحمد النائب : ص ٢٨٧.

استغل أمير تاجوراء حالة الاضطراب التي يعيشها مركز الولاية، وأعلن عصيانه وتمرده، فشكلت الزعامة الإنكشارية مفرزة منها وكلفتها بالقضاء عليه، وبعد تخلصها من الثائر، قررت عزل الداي الجديد الحاج مصطفى لأنه وقف موقف المتفرج من الثائر وكأن الأمر لا يعنيه، وانتخبوا محمود مويس داياً جديداً[1] .

عمل محمود أبو مويس فور توليه منصب الداي على فرض الأمن فألزم الجميع بالطاعة، وطبق النظام وعين الموظفين وكلفهم بمباشرة أعمالهم، ولاحق اللصوص الذين انتشروا في مختلف الولاية يقطعون الطرق ويسلبون المارة ما معهم، ويردمون الآبار التي فُتحت سابقاً. وكان محمود أو مويس يرى بالضابط أحمد باشا القرمانلي شخصية قوية ومنافساً عنيداً له، ففكر بالتخلص منه، وتذرع بأن مدينة غريان تحتاج إلى تأديب، فكلفه بمهمة تأديبها.

شك أحمد باشا القرمانلي بأمر مهمته، وبمضمون الرسالة التي حمّله إياها، وحالما خرج من مدينة طرابلس، فتح الرسالة، وصدق ظنه، فجمع العساكر حوله، وأطلعهم على نوايا محمود أبي مويس، فغضب العساكر من تصرف الداي محمود أبي مويس، وطالبوه بالعودة لقتله والتخلص منه، فاستجاب أحمد القرمانلي، وفور دخولهم المدينة نادوا بأحمد القرمانلي داياً عليهم، وهددوا الداي محموداً أبا مويس بالموت، لكنّ محمود مويس كان على يقين بعدم نجاح خطته، فأعدّ أمواله ومجوهراته وتهيأ للهرب من المدينة.

إن فوز أحمد القرمانلي برضاء الجند والمناداة به داياً على البلاد، وحب الأهالي له، وتطلعهم إلى استلام إدارة الولاية من قبل شخص يمت إليهم بصلة نسب، وما يتحلى به من صفات جيدة وأخلاق حسنة مكّنته من تأسيس سلالة حاكمة تسلمت زمام الأمور فيها من سنة ١٧١١ - ١٨٣٥م[2] .

لم يكن السلطان راضياً تماماً عن الإجراء الذي اتخذه أوجاق الشمال الإفريقي عامة، وولاية ليبية خاصة، لكنه في وضع داخلي وخارجي لا يمكّنه من

---

(١) أحمد النائب : ص ٢٨٧.

(٢) Aziz Samih Alter. s. 229.

فرض إرادته السلطانية بشكل فعلي، وفي الوقت نفسه فإن وضع أوجاق الغرب أفضل من غيره من لأوجاقات الأخرى، فمنذ التواجد العثماني في تلك المناطق لم تبرز زعامة محلية تطالب بالانفصال عنه، وما يحدث فيها من صنع عساكره التي تكنّ له الولاء ومهما فعلت فلن تطالب بالانفصال أو بالخروج عن إرادته، وما يهمه من عساكره أن تحكم باسمه وتثور باسمه، ويخضعون الأهالي لمشيئته السلطانية، فالخطبة باسمه والنقود باسمه والضرائب تجمع له ولحاشيته. فالجهل مطبق وقوانينه نافذة، وسلطانه وعلمه يرفرفان في سمائها، والرعية ترضي بسرعة وهو غير مبالٍ بهمومهم وآلامهم فعساكره تحل أمر الأهالي إذا أظهروا أي تأفف منه.

جـ - عهد الأسرة القرمانلية
(١٧١١ - ١٨٣٥م)

إن ضعف ديوان الجند، وتطلع بعضهم إلى المنفعة الشخصية، وفقدانهم لأسس النظام والتآلف، طبع ديوان الجند في الولايات التي أقرته عامة وأوجاق الغرب خاصة بطابع التنافس المقرون بالاقتتال كحل أخير للتخلص من المنافسة، وغدا الضباط الأقوياء هم أصحاب الحل والربط في كل اجتماع يجتمعه الديوان لاتخاذ أي قرار عام أو خاص.

إذا كان القرن الثامن عشر قد تجلى ببروز بعض الزعامات المحلية في بعض الولايات العثمانية، فإن مناطق الشمال الإفريقي امتازت ببروز الأسر التي مثلت النفوذ المحلي، كما تجلى في مناطق الشمال الإفريقي بضعف الإنكشارية التي قُتل بعضها وتقاعد الآخر بسبب عدم تبديلها من قبل إستانبول وبروز قوة جديدة محلها، ازدادت قوة، مرحلة إثر مرحلة، وأطل القرن الثامن عشر بحلول القولوغلية محل الإنكشارية التي شاخت وهرمت[١].

لم يكن ظهور الأسرة القرمانلية نتيجة تخطيط[٢]، وإنما نتيجة ولادة حتمية للعصر أولاً. وللمراحل السابقة التي عانتها ثانياً. كما أن أحمد القرمانلي لم ينحدر

(١) قول أوغلو : ومعناها ابن العبد)، نشأ هذا الجيل نتيجة زواج الجنود الأتراك من النساء المحليات، والنسل الجيل أطلق عليه اسم القولوغلية، عاشت القولوغلية خارج السور وكلفت بحراسة المدينة، ولم يكن لها من المميزات سوى إعفائها من الضرائب، ومع مطلع القرن الثامن عشر بدأ نفوذها يزداد إلى أن تسلمت السلطة وظل نفوذها إلى أن قضى عليها الوالي حافظ باشا في مطلع القرن العشرين لدى رفضها دفع ما عليها من ضرائب.

(٢) الأسرة القرمانلية أسرة تركية الأصل من مدينة قرمان الواقعة جنوب الأناضول في آسيا الصغرى، جاء الجد الأكبر أثناء قدوم سنان باشا لتحرير طرابلس الغرب من الفرسان سنة ١٥٥١ م، وكان مصطفى باشا الجد الأكبر من جملة الجنود الذين أمر سنان بإبقائهم، فاستقر في منطقة المنشية، ومارس التجارة وتمكن من امتلاك مزارع وتزوج من فتاة طرابلسية الأصل واندمج مع أهالي المدينة للمزيد انظر: ابن غلبون : التذكار فيمن ملك طرابلس من الأخيار. تحقيق الطاهر الزاوي ص ١٩٠. وانظر أيضاً : طرابلس الغرب تحت حكم الأسرة القرمانلية تأليف رودلفو ميكالي. ترجمة طه فوزي ص ١١-١٢.

من سلالة عريقة أو ابن زعيم ديني أو طريقة صوفية، وليس له أي ماضٍ حربي يكسبه المجد والشهرة، بل كان واحداً من ضباط الإنكشارية وممن كانوا يقفون في مؤخرة الحوادث، و لهذا نجا من عملية نفي أو قتل، علماً بأن هناك بعض المصادر تشيد برجولته، وتعلق المصادر الأخرى على استنتاجات لا سند تاريخي لها. كوصفه بالذكاء من قبلها معتمدين على ذلك شكه بالرسالة وقراءتها لعساكره وعودته بهم لتوليه داياً على على الولاية[1] .

دخل أحمد القرمانلي مدينة طرابلس في السابع والعشرون من حزيران سنة ١٧١١م محاطاً بترحاب الأهالي والعلماء، و لم يكن أحمد على جهل بالصعوبات التي ستواجهه، إذا تمكّن من الحصول على فرمان التولية من إستانبول فإن جميع مشكلاته تحل بضربة واحدة، وخاصة إذا استرضى الأعيان والعلماء، فالجند زيادة رواتب وترفيع يرضي غرورهم، إذا التزم جانب الأخلاق وتعفف عن ضربهم أو تشريدهم، علاوة على ذلك فهو ليس بحاجة إلى تلويث يديه بدماء الإنكشارية، فإشارة منه للقولوغلية كافية بتدمير الإنكشارية تصفية لثأر رابض على صدورها منذ بداية تكوينها وتبلورها كقوة ناشئة أدنى حقوقها الاعتراف بوجودها ويمكن أن تكون قوة رديفة للإنكشارية في الأزمات التي تتعرض عليها يوماً إثر يوم.

فكر أحمد باشا القرمانلي بأن الإنكشارية ستعيق تحركاته وتتصدى لأي محاولة إصلاحية يحاول القيام بها، وللتخلص من شغبها وكره الأهالي لها، أعدّ لها وليمة وذبح رؤساءها، وفر بعضها من الولاية طالبة النجاة ومخلّفة وراءها ممتلكاتها وأرزاقها[2] .

قام أحمد باشا بملاحقة حركات العصيان والتمرد التي حدثت في تاجوراء وترهونه، وقاد بنفسه حملة أعدّها ضد مسلاتة، وتعد ثورة علي بن عبد الله الصنهاجي سنة ١٧١٥م من أكثر الثورات صعوبة، لأن قائدها تستر بالدين. فادعى

---

(١) مهمة دفتري نمره : ١٦٩ ص ٥٥.

(٢) حسن محمود ص ١٨٣. أحمد النائب ص ٢٨٩، عمر علي بن إسماعيل ص ٣٨.

أنه المهدي المنتظر وأنه سينقذ البلاد من الأتراك، فالتفت حوله قبائل الجبل الغربي والكمكوم الواقعة جنوب شرقي مدينة مزوة، ثم انتقل بأتباعه إلى الجبل الأخضر ببرقة وأطلق لرجاله حرية نهب القرى التي مروا بها، فسلبوا القبائل مواشيها وأحرقوا المزروعات، فخافهم سكان القرى واضطروا إلى هجرها فراراً من الموت، فجرد أحمد باشا حملة كبيرة قادها بنفسه، وبدأ بملاحقة عبد الله الصنهاجي ومؤيديه من منطقة إلى أخرى، وحالما سمع عبد الله الصنهاجي بملاحقة أحمد القرمانلي له، فر هارباً تاركاً أنصاره ومؤيديه يواجهون الموت على يد أحمد باشا[1].

لم يبذل أحمد باشا جهداً كبيراً في القضاء على حركات التمرد والعصيان التي قامت في الولاية بسبب وقوف الأهالي لجانبه ومساعدته في الكشف عنها، وإحجامهم عن تقديم المساعدة لها، كما أن التزام الجند بالطاعة والانصياع لأوامره، مكّنه من تنظيم أمور الولاية تنظيماً جديداً فعيّن الموظفين في الأقضية والنواحي، وشكل مفرزة الحرس المحلي، وكلفها بالمحافظة على الأمن وملاحقة اللصوص وقطاع الطرق في كل مكان يحلون فيه، ثم التفت إلى الاهتمام بتحصينات الولاية، فرمم الحصون والقلاع، وأصلح أسوار المدينة وأبراجها، وشيد حصوناً إضافية، وبنى جامعاً باسمه[2].

اندفع أحمد باشا القرمانلي بعد الاطمئنان عن قوته، والتزام الجميع لأوامره، بالانصراف إلى توسيع حدود إمارته على حساب جيرانه، فجدّد بتصرفه الصراع مع الجيران بعد توقف استمر زمناً طويلاً[3].

تمكن أحمد باشا القرمانلي من خلال تنظيمه لأمور ولايته واعتماده على أقربائه، ومشاورته للعلماء والأعيان من تعميق نفوذه وتقوية مركزه، فضمن لأبنائه

---

(١) أحمد النائب ص ٢٩٠. عمر علي بن إسماعيل ص ٣٨-٣٩.

(٢) Mahmut Amer. Trablusgrap Osmanli Faliyati. s. 40

(٣) Aziz Samih Alter Afrikta Türkler. s. 290.

من بعده حكـم الولايـة حكمـاً وراثيـاً، واستبعدَ الأهـالي الـذي تطلعـوا لمشـاركته الإدارة، ونفاهم من البلاد ولاحق أبناءهم خشية إثارة الفتنة أو إقامة تحالفات محلية، ليتمكّن من إدارة الولاية وأحوالها.

ما اتخذه هيأ له فرصة اتخاذ قراراته بعيداً عن السلطان وفرماناته، وبدا وكأنـه حاكم مستقل وغير تابع لسلطان إستانبول، ولاسيما بعدمـا تلقب بأمير المؤمنين وسك نقوداً باسمه، فباشر بعقد صلح مع النمسا دون مراجعة إستانبول أو الإطـلاع على رغباتها[1] ، ووضحّ للوفود التي قدمت إلى ولايته للإتجار وعقد المعاهدات أنـه الوحيد في عقدها وأنه لم يُعد مجرد فرمان سلطاني بيد بني عثمان، وأكد ذلك برفـع اسم السلطان مـن الخطبـة، وتشـكيل مجـالس شـرعية في مختلـف أنحـاء الولايـة دون الحصول على موفقة مفتى الإسلام في إستانبول، وكلفها الفصل بالدعـاوى المقدمـة لها[2] .

استمر أحمد باشـا القرمـانلي في نهجـه الإداري، إلا أنـه خفـف مـن مواقفـه المعادية للسلطان، وليكسب شرعية توليـه إدارة البـلاد، راسـل السـلطان العثمـاني، وحمّل وفـوده الهدايـا الثمينـة، وأظهـر في مراسـلاته أنـه تـابع للسـلطان، فـرد عليـه السلطان في سنة ١٧٢٢م بفرمان سلطاني مع منحه لقب (مير ميران، ولقب باشا)، وكـانت السـنوات الأولى لحكمـه تتسـم بـالعدل والرخـاء الاقتصـادي وتخفيـف الضرائب عن الأهالي، ولجأ في الفترة التي سبقت إصابته بالعمى وفقـدان البصـر إلى تشديد قبضته على الأهالي وفرض غرامات مالية أثقلت كاهلهم، تلاها تنازله لابنـه محمد باشا، وقد دفعته عزة نفسه وشجاعته إلى إطلاق النار على نفسه في الرابع من تشرين الثاني ١٧٤٥م، ودُفن في جامعه[3] .

---

(١) إثوري روسي : ليبيا منذ الفتح العربي حتى ١٩١١ ص ٢٨٥.

(٢) حسن صافي : طرابلس الغرب تاريخي ص ٥٦، محمود ناجي: تاريخ طرابلس الغـرب ص ١٦٠.

(٣) إثوري روسي: ليبيا منذ الفتح العربي حتى ١٩١١ ص ٢٨٥.

قدّر العلماء والأعيان لأحمد باشا جهوده وحرصه على تحسين أمور البلاد ومنحها صفة شبه استقلالية، وأملّوا من ولي العهد محمد باشا خيراً، ونظراً لخبرته في الإدارة، ومعرفته التامة بأحوالها، فقد أجمعوا على انتخابه والياً على البلاد.

اقتصر اهتمام محمد باشا على تأمين حدود ولايته، وضمان قوتها البحرية، وسمح لبحارته بمهاجمة السفن البحرية والسواحل الأوربية، فأوقعت سفنه الرعب والخوف في مختلف السواحل التي هاجمتها، فسارعت معظم الدول الأوربية لخطب وده، والالتزام معه بمعاهدات واتفاقيات جديدة، كما اضطرت فرنسا لتجديد المعاهدة التي عقدتها مع والده سنة ١٧٢٨م.

طالبت بريطانيا محمد باشا القرمانلي بعقد معاهدة معها أسوة بالمعاهدة التي جدّدها مع فرنسا، وحصلت من جراء توقيعها سنة ١٧٥١م على مكاسب ضخمة، مكّنتها من تحقيق امتيازات سياسية واقتصادية، وغدت الجالية البريطانية أكثر الجاليات الأوربية تواجداً في ولاية ليبية خلال ولايته، كما ضمنت المعاهدة عدم مساعدة السفن الليبية للسفن الجزائرية والتونسية في حال وقوع صدام بينها وبينهم[(١)].

تمتعت ولاية ليبية خلال السنوات الأولى لحكم محمد باشا القرمانلي بهدوء أمني ورفاه اقتصادي واستقرار إداري لم تعرفه خلال القرن الثامن عشر، كما ارتبطت مع جيرانها بعلاقات حسنة، وغدا تجارها يتنقلون ضمن مناطق الشمال الإفريقي بحرية تامة، دون أي مضايقات، ورُفعت الرسوم الجمركية عن البضائع القادمة من ولايتهم، كما توافد تجار الأوجاق إليها ومارسوا التجارة فيها.

لم يواظب محمد باشا على اتباع الطريق الذي سلكه عند بدء توليه السلطه، وقد دفعه الاستقرار الأمني وحب الأهالي له إلى ترك إدارة الأمور لأقربائه، وانغمس في حياة اللهو والمجون، فعمت الرشوة مختلف الدوائر والإدارات، ومارس أقرباؤه أعمالاً مشينة، وبلغ تجاوزهم حد عقد المعاهدات باسمه مقابل رشاوي، وفرضوا

Celâl Tevfik Karasapan. s. 125. Aziz Samih Alter. s 231. (١)

على الأجانب أتاوات أوقعت إدارته في مآزق سياسية مع الدول الأوربية وساءت علاقته كثيراً بالدولة العثمانية، وانتهى الأمر به إلى القتل في إحدى حفلات العبث والمجون التي كان يقضيها مع رفاق السوء[٢].

خلفه في إدارة الولاية ابنه علي باشا، ولم يكن قد بلغ مرحلة النضوج، فصغر سنه، جعل الضباط أوصياء عليه، فاستغلوها لتقوية نفوذهم واستعادة مجدهم - لاسيما الإنكشاريين منهم - فبطشوا أولاً بالمتنفذين من القولوغلية والأهالي، وعقدوا المعاهدات مع الدول الأجنبية لقاء أتاوات مالية، كما صادروا عائدات السفن البحرية، فكثُر أعداؤهم، وفسدت العلاقات مع جيرانهم، وانتهى الأمر بالوالي الجديد إلى تقديم تعهد لقائد الأسطول الفرنسي بو فريمون (Beau Fremon) سنة ١٧٦٦ بإعدام كل مغامر ليبي يمارس العنف ضد السفن الفرنسية[٢].

امتازت السنوات الأولى لعلي باشا بن محمد القرمانلي بتعرض الولاية لوباء الطاعون الذي أدى بحياة الكثيرين من الأهالي، علاوة على المجاعة الناشئة عن سوء الإدارة، وانحراف الموظفين وفوضى الضباط وجشعهم وعبثهم بمقدرات الأمور التي تولوا إدارتها على حساب طفولة علي باشا وعدم نضوجه وخيانة أقربائه، وعزوف العلماء والأعيان عن التدخل لإصلاح الأمور التي تزداد تدهوراً يوماً بعد يوم.

كما استغل يهود الولاية التي قدموها من الأندلس الوضع المتردي، وفساد الإنكشارية وضباطها، فبدؤوا بشراء المناصب المهمة وسخروها لصالحهم الشخصي، كما استغلوا فقر الأهالي لشراء منازلهم، وكونوا لأنفسهم حياً خاصاً بهم، وتجلى رد الشباب على تردي الأوضاع بالهجرة من ديارهم طلباً للعيش، في حين انطلق البحارة في عرض البحر يهاجمون السفن دون تمييز مخالفين بذلك بنود الاتفاقيات المعقودة وحرمة جيرانهم[٣].

---

(٢) عمر علي بن إسماعيل. انهيار الأسرة القرمانلية في ليبية ١٧٩٥-١٨٣٥. ص ٤٧.
(٢) عمر علي بن إسماعيل. انهيار الأسرة القرمانلية في ليبية ١٧٩٥-١٨٣٥. ص ٤٧.
(٣) عمر علي بن إسماعيل. انهيار الأسرة القرمانلية في ليبية ١٧٩٥-١٨٣٥. ص ٤٨.

خاب ظن الأهالي بتولي الأسرة القرمانلية إدارة البلاد، وغدا الجميع يخشون ضياع البلاد نتيجة الفساد وغياب الضمير، وتدفق الأجانب وتنافسهم على امتلاكها، فدخلت روسيا ميدان الصراع بمحاولتها شراء الجزيرة الواقعة في خليج بومباي (بمبة) الواقعة على ساحل برقة، لكنّ السلطان العثماني تدخل في الأمر ومنع روسيا من الحصول عليها.

أمل السكان خيراً من التدخل العثماني، فقدّم الأهالي شكوى إلى السلطان يطالبونه بوضع حدٍ للفوضى القائمة، لكنّ الضباط المقربين من علي باشا، لم يمكّنوا الأهالي من تقديم شكواهم للسلطان، واستمروا يعقدون الاتفاقيات على حساب الولاية، إلا أن علي باشا الذي كان صغير السن، شب وصقلته التجارب، فاستبعد المفسدين من حوله، ولتلافي العجز المالي الذي تواجهه ولايته، فرض الضرائب، وعقد الاتفاقيات والمعاهدات مع الدول الأجنبية وصادر واردات التجارة، إلا أن محاولاته باءت بالفشل بسبب تعرض البلاد للجفاف، ففي بداية عام ١٧٧٥م انتشرت الأمراض وفتك الطاعون بالأهالي إثر المجاعات التي عمت الولاية قبل سنوات، ويُعد وباء سنة ١٧٨٥م من أشد الأوبئة التي واجهتها البلاد، وتتحدث الآنسة توللي بوضعها شاهدة عيان عن نتائجه فتقول: «حدث في بداية يوليو، نتيجة لآثار وباء الطاعون وما سببه من تدمير وتخريب ووقائع اتسمت بالهول والبشاعة، فالكآبة والحزن خيما على المدينة، وكانت أجسام الموتى مكدسة فوق بعضها بعضاً، وكان كل خمسة أو ستة منها تُربط مع بعضها، وتُحمَّل على حيوان يركض بهم مسرعاً إلى المقبرة...»[1] .

إزاء الفقر والجوع والمرض التي أطبقت على مدن الولاية، ومانتج عنهم من بؤس مدقع وفقر عام وشامل وقفت حكومة الباشا عاجزة عن مواجهة المصائب التي تطحنها مع رعاياها، في حين هجرت العساكر معسكراتها وثكناتها سائحة في

---

(١) الآنسة توللي وعشرة أعوام في طرابلس ١٧٨٣-١٧٩٣، ترجمة عبد الجليل الطاهر ، ليبية ١٩٦٧ ص ١٩٣.

أرجاء البلاد تلتهم ما تركته الأمراض والأوبئة، ونشب اقتتال بين القبائل عمت مدن طرابلس وترهونة وتاجوراء[1] .

كان لعلي باشا القرمانلي ثلاثة أولاد، حسن، يوسف وأحمد، وكانت العلاقة بينهم سيئة للغاية، فكل منهم يخشى الآخر ويتخوف من أن يعهد الأب لأخيه بولاية العهد، ولا سيما أحمد الذي كان موضع حسد وغيرة من أخويه، لأن الأب كان يعتمد عليه في الإدارة، وحينما منحه الأب لقب آغا الإنكشارية، بدأ التآمر يتنامى لدى يوسف، فأسرع بجمع الحرس الخاص حوله تحسباً من وفاة والده استعداداً لانتزاع الأمر إذا حدث ما لم يتوقعه، وكان يوسف المعروف بشراسته وجشعه السلطوي يراقب الأحداث ويسعى لتفاقمها لتؤول إليه الأمور، وكان الأب على معرفة بنوايا يوسف، وما يدبره من مكائد وفتن، فحذره من ذلك وحمّله مسؤولية مايجري، وتخوفاً من تورطه أكثر في الأمر، نقله إلى قصر المنشية ليظل على مقربة منه وتحت أنظاره، كأفضل حلٍ للحد من زيادة المشكلات[2] .

اتسعت دائرة الإشاعات القائلة، بأن الأهالي ينوون اللجوء إلى السلطان العثماني لإنقاذهم من المآزق الإدارية التي تعانيها البلاد، وأدرك يوسف أن الوقت حان لانتزاع السلطة من والده العاجز، فاتصل سراً بزعماء الأهالي وبزعماء القبائل، ووعدهم بمشاركتهم في الحكم، وأعلمهم أن الدولة العثمانية سترسل قوة عسكرية لإعادة سطيرتها الفعلية على الولاية، وذكّرهم بالمآسي التي ارتكبها الأتراك بحقهم، كما اتصل بزعيم قبيلة المحاميد خليفة بن غومه المحمودي، وتعهد له بالالتزام بتوجيهاته، ومنحه امتيازات كثيرة إن هو ساعده في تسلم الحكم لانتزاعه من أخويه[3] .

وما إن اطمأن يوسف إلى تأييد القبائل له والتفافها حوله، ووقوف سكان مدينة طرابلس إلى جانبه باستثناء بعض القبائل القاطنة في المنشية والساحل، حتى

---

(١) عمر علي بن إسماعيل. انهيار الأسرة القرمانلية في ليبية ص ٤٩.

(٢) طرابلس الغرب. مسائل مستعجلة نمره ٢٠٩١. عمر علي بن إسماعيل ص ٥١.

(٣) Aziz Samih Alter. s. 235.

بدأ بإعلانه توليه السلطة، وتوجهه إلى منزل أخيه الأكبر حسن للحصول على موافقته، فوجده جالساً مع والدته، فهجم عليه يريد قتله إن لم يؤيده، فتدخلت أمهما لالا حلومة، محاولة إيقاف المشاجرة بينهما، لكنّ يوسف رفض توسلات والدته فرفع سيفه يريد ضرب أخيه، فرفعت الأم المسكينة يدها لمنعه، لكنّ سيف يوسف قطعّها من المرفق، وبدلاً من الاهتمام بوالدته، تناول غدارته من وسطه، فأطلق النار على أخيه المهتم بالأم المصابة فطرحه قتيلاً[1] .

ترك مقتل حسن أثراً عميقاً لدى سكان مدينة طرابلس، فكثر أعداء يوسف، كما أعلنت بعض القبائل تخليها عن مساعدته، ففر يوسف إلى قبيلة المحاميد المؤيدة والمناصرة له، فاستدعى خليفة غومه المحمودي زعماء القبائل وشرح لهم عمل يوسف، وأقنعهم بالأمر واستقر الرأي فيما بينهم على تولية يوسف والياً على البلاد، لكنّ سكان المنشية والساحل، لم يتغير موقفهم منه، وصمموا على مقاومته.

عم الاضطراب والقلق معظم مدن الولاية وأقضيتها وبخاصة مدينة طرابلس التي ظل القلق يسودها مدة ٣٨يوماً، وبدت وكأنها في حالة حرب، لكنّ علي باشا بحكمته وذكائه تمكّن من حقن الدماء، فقد أمر مؤيديه بالكف عن ملاحقة يوسف، وأوصاهم بالمحافظة على حياته، كما أقنع ولده أحمد بضرورة الاجتماع مع أخيه يوسف، فرضي أحمد باللقاء طالما يؤدي إلى إيقاف نار الفتنة المتأججة وفي الوقت نفسه أظهر يوسف قبوله بتولي أحمد، فهدأت المدينة، وزالت العناصر المسلحة من الشوارع[2] .

---

(١) تعددت الروايات بشأن مشاجرة الأخوين، فبعضها تقول: إن يوسف بتر يد أمه. وعمر علي ابن إسماعيل يؤيد الروايات التركية. أما الآنسة توللي فتذكر أن يوسف جرح يد أمه جرحاً بسيطاً. للمزيد انظر: Aziz Samih. s. 232. Kara span. 127. وأحمد النائب، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ص ٣٠٣.

(٢) Aziz Samih Atter. s. 233. Kara sapan. s. 127-128.

وفي ٢٠ تموز سنة ١٧٩٠ احتُفل رسمياً بتعيين أحمد باشا، وقدمت قناصل الدول الأوربية لتهنئة البك الجديد، واعتقد سكان الولاية أن فتنة الأسرة القرمانلية انتهت طالما قبل يوسف الخروج من مدينة طرابلس لممارسة عمله الجديد كحاكم على مصراته، ولكنّ سكان مصراته أعلنوا احتجاجهم على الحاكم الجديد، وأرسلوا إلى أحمد بَكْ يعلمونه بقبولهم أي حاكم باستثناء يوسف الذي مازالت يداه ملطختين بالدماء[1] .

تضايق يوسف كثيراً من تصرف مصَراته، وعدّه إهانة صريحة ضده، فطلب من والده إرسال حملة بقيادة البك الجديد لتأديبهم، وقصد يوسف من طلبه تفريق مؤيدي أحمد، وإشعال الفتنة مجدداً، فرفض الاستجابة إلى طلب أخيه، وأعلموه في حال قبول طلب يوسف، سيهاجمون طرابلس وسيأتون بمصطفى القرمانلي المطالب بالعرش – من تونس أو بأحد الأمراء من مصر ليسلمونه الحكم[2] .

إزاء ما استجد من أحداث، تأزم الموقف أكثر من السابق، وأيقن أعيان طرابلس وعلماؤها أن فتنة العائلة لايمكن إيقافها إلا بتدخل الدولة العثمانية، فالسلطان سليم الثالث يتولى سدة الحكم، وهو يسعى للإصلاح وإنقاذ الإمبراطورية من الفوضى التي تعيشها، وحالما عَلِمَ بما يجري في الولاية واستنجاد سكانها به، أصدر فرماناً يقضي بتعيين علي باشا الجزائري والياً على ولاية ليبية سنة ١٧٩٤م[3] .

عَلِمَ القرمانليون بما فعله سكان مدينة طرابلس والإجراء الذي اتخذته إستانبول، فعقدوا اجتماعاً فيما بينهم، وبعدما تناسوا خلافاتهم، قرروا فتح أبواب المدينة محاولين طمأنة الأهالي، وكلفوا العساكر بالمحافظة على الأمن، ثم استدعوا أعيان المدينة ووجهاءها وتدارسوا أمر قدوم الوالي الجديد، وأقنعوهم بضرورة

---

(١) عمر علي بن إسماعيل ص ٥٤.

(٢) عمر علي بن إسماعيل ص ٥٤.

(٣) حسن صافي ص ٧٤، محمود ناجي ص ١٦٣، Aziz Samih. s. 2323

مساعدتهم، كما اقترح يوسف منع الوالي الجديد من دخول المدينة وإغراق سفينته الراسية في الميناء، لكنّ والده تخوف من عواقب مقاومة الوالي الجديد، لأن السلطان سيعدّه تحدياً لإرادته السلطانية، ففضل النزوح إلى تونس(١) .

لجأ علي باشا القرمانلي إلى ولاية تونس، لأنه يرتبط مع والي تونس حموده باشا بعلاقات حسنة، إضافة إلى أن علي باشا الجزائري المعين على ولاية ليبية، شقيق والي الجزائر المرتبط مع حموده باشا بعلاقات سيئة جداً، لذا فإن حموده باشا قرر استقبال الأسرة القرمانلية ووعدهم بمساندتهم لاستعادة عرشهم المغتصب(٢) .

اختلفت آراء المؤرخين حول دقة الأحداث التي جرت في ولاية ليبية آنذاك، فالمصادر التركية تؤكد أن أفراد الأسرة القرمانلية فروا إلى تونس فور وصول الأسطول العثماني إلى المياه الليبية، وأن علي باشا نزل المدينة وتلا فرمان السلطان المتضمن إنهاء حكم الأسرة القرمانلية وتعيينه والياً على البلاد، فأطاعته الرعية ماعدا قبيلة بني نويرة، لكنّ علي باشا أقنع الأعيان والعلماء وزعماء القبائل بضرورة إطاعة السلطان حرصاً على سلامة الولاية، فالتف الجميع حوله، وعاهدوه بالوقوف إلى جانبه، في حينن تذكر بعض المصادر ولا سيما التقارير الواردة من الولاية، أنّ هناك بعض المدن رفضت الاعتراف بالوالي الجديد، وأعلنت تمسكها بالولاء للقرمانليين(٣) .

---

(١) Kara sapan. s. 127. Aziz Samih. s. 233.

(٢) يذكر عمر علي بن إسماعيل أن علي باشا الجزائري لم يحصل على فرمان سلطاني بتعيينه والياً على ليبية، ويستند على أقوال الآنسة توللي التي كانت آنذاك موجودة في طرابلس، إذ تقول إن علي باشا ومن معه لم يكونوا من جيوش السلطان، وإنما هم غزاة قدموا لنهب المدينة. ويؤكد ذلك بوثيقة رقم ١٤٥٤١، وفي حين تؤكد الوثائق العثمانية منها مهمة مستعجلة رقم ٢٠٠ ص ٥١ أن علي باشا جاء بناء على فرمان سلطاني. انظر كتابنا تاريخ المغرب العربي الحديث ليبية ملحق ٤ ص ١٧٠.

(٣) يذكر تاريخ ابن علبون أن حموده باشا كلف جيشه باحتلال جربه، ومتابعة طريقه إلى طرابلس لاحتلالها وطرد علي باشا الجزائري منها وتهيئة الأمر فيها للأسرة القرمانلية. وأكدت الوثائق العثمانية مهمة مستعجلة رقم ٢٠٠ ص ٥١، بأن علي باشا الجزائري -

عمل علي باشا الجزائري فور تسلمه الإدارة على التخفيف من قيمة الضرائب المفروضة على الولاية تجاه المركز، وضرب العصاة ولاحق اللصوص، وألزم الجند بالطاعة، وهدد المخالف بالجلد، لكنّ العداء الذي يكنّه الجند والأهالي ضده، والتزام بعض المدن بالولاء للقرمانليين وبخاصة زعيم قبيلة المحاميد المؤيد للقرمانليين الطامع بالحصول على مكاسب في حال تولي يوسف إدارة البلاد، أعاق تحرك الوالي الجديد وأفسد مساعيه ولا سيما بعد فشله في الحصول على الأرز من مصر، فاضطر إلى إطعام عساكره البرغل، فاحتقرته العساكر وغدوا يلقبونه بعلي برغل[1].

لم يوفق علي باشا (برغل) باحتلال جربة، لأن حموده باشا والي تونس، أرسل قواته إليها، وتمكنت من احتلالها، ومنها تابعت القوات الفرنسية زحفها باتجاه طرابلس الغرب بحجة أن الأهالي طلبوا منه إنقاذهم، وإعادة الولاية إلى الأسرة القرمانلية، وحالما بلغ حموده باشا بقواته مشارف طرابلس، جمع علي برغل قواته استعداداً لمواجهته، وخرج بها إلى خارج السور، لكنّه اضطر للتراجع إلى داخل السور حالما علم بتخلي سكان المنشية والساحل عن مناصرته جهز ثلاث سفن لشحن أمتعته وترك المدينة دون أن يعلم به أحد[2].

= كتب إلى إستانبول يعلمها بأن بعض من في المدن يساندون الحاكم القرمانلي علي باشا وأفراد أسرته، وأن والي تونس حموده باشا أمر بإرسال قواته لمساندة الأسرة القرمانلية ولشن الغارات على الولاية، كما تذكر مهمة مستعجلة أن السلطان العثماني وجّه أوامره إلى ولاة تونس والجزائر وطرابلس ورباطاتهم يوصيهم بالتعايش السلمي فيما بينهم ويحذرهم من ارتكاب حماقات بحق بعضهم. (انظر الأتراك العثمانيون في شمال إفريقية، ترجمة عبد السلام أدهم ص ١٥٦ هامش).

(١) عُرف علي باشا بالجزائري، لأنه عاش فترة طويلة في الجزائر، وتولى فيها منصب رئيس البحرية، كما كلف بمنصب وكيل الخراج، لكنه طُرد منها لاتباعه الرشوة والإساءة للأهالي، جمع ثروة عظيمة، فتوجه إلى إستانبول وتمكّن بأمواله من شراء منصب والي طرابلس الغرب. وبعد فشله في الحصول على الأرز لقب بعلي برغل، ويذكر عمر علي ابن إسماعيل أن اسمه علي بن زول. للمزيد انظر: عمر علي بن إسماعيل ص ٦٠.

(٢) الأتراك العثمانيون في إفريقية الشمالية: تأليف عزيز سامح التير، ترجمة عبد السلام أدهم ص ١٥٩.

عادت الفتن إلى ولاية ليبية بعودة الأسرة القرمانلية، فأحمد باشا القرمانلي وأخو يوسف دخلا المدينة برفقة الجيش التونسي، وتخوف الطرابلسيون من إساءة الجيش التونسي لهم، فأعلن قائد الجيش التونسي المتمركز في القلعة أنه لن يستمر طويلاً في البلاد، فأجمع الأهالي على انتخاب أحمد باشا القرمانلي والياً، وعُين يوسف قائداً للجيش وولياً للعهد[1].

ضجر أهالي طرابلس الغرب من تصرفات الجيش التونسي، فطالبوا قائده بضرورة الانسحاب لأنه لم يَعَدْ هناك مسوغ لبقائه، وتعهد له بتقديم ما يفرضه عليهم من أموال، وتكفل سكان المنشية والساحل بدفعها لأنهم أكثر المتضررين من بقاء الجيش التونسي.

لم يُخف على سكان مدينة طرابلس نوايا يوسف، وكان الجميع على يقين باستعداده لقتل أخيه مقابل استلامه الإدارة، وبما أن أفراد الأسرة القرمانلية معتادون على زيادة الأضرحة التزاماً بالتقاليد الشعبية لسكان الولاية، فقد خرج البك الجديد أحمد باشا إلى تاجوراء لزيارة أضرحتها يرافقه أخوه يوسف باشا مع أعيان البلاد وعلمائها، وما إن قطعوا مسافة من الطريق حتى غافلهم يوسف باشا، وتسلل خفية عائداً إلى طرابلس، فأغلق أبوابها، وأطلق طلقتين بالمدفع إيذاناً بإعلانه الثورة وتسلمه الحكم، وأمر المنادي بتولي يوسف باشا إدارة البلاد، وحالما علم أحمد باشا بما فعله يوسف، أدرك أنه لن يستطيع مقاومته ولتجنب إراقة الدماء تابع طريقه إلى مصراته، ورفض عرض الأهالي بمساندته ضد أخيه، وبعد فترة غادرها متوجهاً إلى مالطة[2].

١- ولاية يوسف باشا:

عاشت ولاية ليبية بين سنتي ١٧٩١-١٧٩٣م، وحصار سنوات ١٧٩٣-١٧٩٤-١٧٩٥م مرحلة مليئة بالقلق والفوضى، نتج عنها اضطراب أمني، وضيق

(١) الأتراك العثمانيون في إفريقية الشمالية ص ١٥٩.

(٢) عمر علي بن إسماعيل: انهيار الأسرة القرمانلية في ليبية، ص ٢٧٨.

اقتصادي، دفع معظم التجار إلى ترك متاجرهم، ومغادرة الولاية وبخاصة بعد انتشار أعمال السلب والنهب في مختلف أرجائها، كما تعرضت تحصينات مدينة طرابلس وأسوارها للخراب والدمار وزهقت أرواح كثيرة من جراء الاضطرابات والمجاعة، إزاء ذلك عمد يوسف باشا فور توليه السلطة على طمأنة الأهالي، وتعهد للأعيان والعلماء بتطبيق العدل، وتأمين الرفاه للجميع وطلب منهم مساندته. ثم انصرف أولاً إلى ترميم أسوار المدينة وإصلاح أبراجها، وزاد من قوة تحصيناتها الدفاعية، وبث عيونه في كل مكان لملاحقة اللصوص وقطاع الطرق ومسببي الشغب والفوضى.

أحدث تولي يوسف باشا إدارة البلاد، تغيرات جذرية في أسلوب الحاكم لم يشهده الأهالي سابقاً، لقد اعتمد سياسة الإقناع، فهو يملك لساناً حلواً يمكّنه من إقناع محدثيه، ويسلب لب سامعيه، وبفضل ذكائه الخارق تمكّن من نقل البلاد من حالة الاضطراب والقلق إلى حالة الطمأنينة والاستقرار، وانطلق الأهالي يمارسون حياتهم المعتادة دون خوف أو وجل، وكأن الأمور عادية منذ سنوات، وقد كتب عنه الإنجليزي سميث سنة ١٨١٦-١٨١٧م قائلاً: «إن يوسف باشا يمثل مزيجاً من الفضائل والرذائل، فهو رجل اجتماعي ذكي وأب عطوف وصديق مخلص، يبدو أن الطبيعة قد أرادته أن يكون إنساناً شريفاً، ولكنّ التجارب التي صادفته قد ساهمت - ولابد - في طغيانه الجامح وفكره الخالي من الثقافة»[1] .

عمل يوسف باشا على تعميق صلاته بالدولة العثمانية، وظل كأسلافه ينظر إليها على أنها دولة الخلافة الإسلامية، وأن سلطانها خليفة للمسلمين، وكان يعلن ذلك لمن حوله، لكنّه كان بقرارة نفسه، يدرك أن الدولة العثمانية لن تساعده في

(١) إثوري روسي ص ٣١٥ (في الواقع إن ما كتبه سميث عن يوسف باشا وبخاصة وصفه له بانعدام الثقافة لديه، فيه شيء من الإجحاف وعدم الإنصاف، فيصفه بالذكاء وعدم الثقافة وهذا تناقض واضح في أقواله، ولقد تناسى الكاتب الإنجليزي أن يوسف تعامل مع الطبيعة البدوية وأهلها، وإقناع أهلها مع قساوتهم ليس بالأمر السهل) (المؤلف).

بناء دولته، ولهذا تصرف باستقلالية في حكمها بالشكل الذي يراه مناسباً ويضمن له الاستمرار في الحكم، لا الذي يرضي السلطان العثماني القابع في قصوره وبين غلمانه وجواريه، ولكي يكسب ود الأهالي شاركهم المصاعب الخارجية بغية إشغالهم عما ارتكبه من مآسٍ في سبيل وصوله للحكم، و لم يجد وسيلة أفضل من توجيه أنظارهم إلى ممارسة الأعمال البحرية، فزاد من عدد السفن، وشجع الشبان للعمل بها، ولكي يتمكن من تقوية سلطانه على البلاد، فإنه يحتاج إلى فرمان سلطاني يثبته في حكمه للولاية، بغية قطع الطريق على أعدائه ومنافسيه من أقربائه، فلجأ بادئ إلى الأعيان ووجهاء طرابلس وزعماء القبائل البدوية، وأقنعهم بضرورة توجيه عريضة إلى السلطان يعبرون منها عن رغبتهم بتعيينه والياً عليهم.

اقتنع الأعيان والوجهاء بفكرته، فأعدّوا عريضة موجهة إلى السلطان، فكَلف أمير البحر حسين باشا بإيصالها وزوده بالهدايا الثمينة، كما كتب رسالة للسلطان شرح له فيها أوضاع الولاية، والظروف التي دفعته للقيام بمثل ذلك، وتعهد فيها بإعلان عبوديته له، وأنه سيذل أقصى جهوده للمحافظة على الأمن فيها وتطبيق العدل وتأمين الرفاه للجميع، وقد اقتنع السلطان بالعهود التي قطعها يوسف تجاهه وبخاصة بعد تأييد الأهالي له، وفي سنة ١٧٩٦م وصله المرسوم السلطاني القاضي بتعيينه في إمرة أمراء طرابلس الغرب، وتضمن فرمان السلطان خطاباً موجهاً لأهالي الولاية وعلمائها يأمرهم بإطاعة الوالي الجديد، ومساعدته في إدارة الولاية والحفاظ على رعاياه[1] .

---

(١) مهمة دفتري نومره ٢٠٣ ص ١٧٥ (يؤمر أمير أمرائي أمير أمراء طرابلس الغرب يوسف باشا دام إقباله ابن علي باشا. وردت العريضة المرفوعة إلى عتباتي العلية ومقر العدالة الملكية المفيدة، بأنك تبذل الجهود الصادقة لإعمار رباطي المنصور وضبط أمور الإيالة الموجهة لعهدة واهتمام لباقتك، كما وردت إلى ركابي الملكي المستطاب الهدايا المرسلة عن طريق أمير البحر وزيري حسين باشا دام إجلاله لإبراز وإظهار صدقك وعبودتك لمقامي السامي، وبتوجيهاتي السلطانية الصادرة في اليوم الرابع من شوال المبارك من هذه السنة، فقد تقرر إبقاء الإيالة المذكورة، كما كانت في فطنتك وسيرت إلى طرفكم قطعة واحدة من نوع فرقطية للقرصنة مجهزة بثمانية وعشرين مدفعاً مع غيرها من الذخيرة –

لم يلتزم يوسف باشا بالوعود التي قطعها للسلطان وبخاصة المحافظة على السفن التي ترتبط مع الدولة العثمانية بعلاقات ود وصداقة، وعدّ يوسف باشا أن السلطان العثماني يقيم علاقات مع الدول المعادية لولايته، بينما يأمر حكام الولايات التابعة له بعدم إقامة أي علاقة مع الدول إلا بإذنه، ولإظهار عدم تابعيته للسلطان لجأ منذ اللحظة الأولى إلى تجاهل أوامره، وأنه يمتلك أحقية إقامة علاقات مع الدول إذا اقتضت الحاجة ففي أيلول سنة ١٧٩٦ أمر بحارته بمهاجمة السفن الروسية فأسروا بعضها، و لم يُطلقْ سبيلها إلا بعدما دفعت روسيا المبالغ التي طلبها منها[١] .

استمر يوسف باشا بمهاجمة جميع السفن التي تمر في البحر الأبيض المتوسط وعدم إطلاقها إلا بعد دفع ما عليها من أتاوات، وغدا بحارته يشددون الخناق.على معظم السفن الأوربية، وتجاهل الفرمانات الهمايونية الموجهة إليه من إستانبول بين الفينة والأخرى. ففي سنة ١٧٩٧م قدّمت عدد من الدول شكوى إلى السلطان العثماني عن أعمال يوسف وبحارته، وكلفوا قناصلهم إقناع الديوان الهمايوني بعزل يوسف باشا من ولاية ليبية، وفي سنة ١٧٩٨ جاءه فرمان سلطاني يحذره من تصرفاته ويأمره بعدم التعرض لسفن فرنسا والنمسا والبندقية، لكنّ يوسف باشا رفض الالتزام بالفرمان، وطلب قناصل تلك الدول إلى مجلسه، وهددهم في حال عدم دفع ما عليهم من ضرائب، فإنه سيهاجم سفنهم، فاضطروا مرغمين لدفع الضرائب المستحقة عليهم، لأنهم أدركوا أن الوالي يوسف باشا مصمم على تنفيذ تهديده[٢] .

= واللوازم المدرجة في السجل، لقد أصدرت هذا الأمر الكريم لتعمل على تحسين حال سكان الإيالة وتجدد القلاع وتستكمل حاجتك من الذخيرة وتبذل المستطاع في تنظيم الرباط وتقويته، وتجدد نظام الجند والضباط والعساكر الذين اختلت نظمهم الأصلية وتدنت كفاءتهم، وأن تسوي الشؤون اللازمة مثال الجزائر وتونس وأن تكثر من مراكب القرصنة وتوفر القوارب البحرية، وأن تعمل بمقتضى الأوامر العلية المبعوثة لسلفك سنة ١٢٠٦ هـ ولا تعترض أبداً سبيل مراكب روسيا والنمسا).

مرسل إلي مع ... أواسط شوال ١٢١١هـ/١٣ نيسان ١٧٩٦م.

(١) عمر علي بن إسماعيل. انهيار الأسرة القرمانلية في ليبية ص ٥٨.

(٢) Aziz Samih Elter. s. 236.

شعر يوسف باشا بأن أسوار المدينة بحاجة إلى ترميم وتقوية، وأن السفن الليبية بدأت بالتراجع نتيجة للاضطرابات والحوادث التي عصفت بالولاية قبل سنوات، فانصرف إلى تحصين المدينة وترميم أسوارها، وزاد من بناء الاستحكامات الدفاعية وزودها بالمدافع الثقيلة، كما وسّع ميناء طرابلس وزاد من تقويته، وحالما اطمأن إلى قوة دفاعات المدينة انصرف إلى بناء أسطول بحري ضخم يستطيع بوساطته مواجهة تحديات الدول الأوربية، فشجع الشبان للعمل في البحرية ومنحهم رواتب عالية وأعفاهم من الضرائب والخدمة العسكرية.

تدفق الشبان من مختلف مدن الولاية للعمل في البحرية، وخلال زمن قصير تمكن يوسف من بناء قوة بحرية قادرة على مهاجمة الدول الأوربية التي لا ترتبط معه باتفاقية أولا تدفع ماعليها من ضرائب وأتاوات.

لم يكن يوسف باشا يرمي من وراء تقوية أسطوله البحري وممارسة الأعمال البحرية حباً بالاعتداء على سواحل الدول الأوربية وسفنها أو الانتقام منها، بقدر ماكان يهدف إلى ضمان قوة الولاية ومواجهة الدول الطامعة بولايته، إضافة إلى تأمين مردود اقتصادي لولايته وإشغال الشبان بالأعمال البحرية والصيد، بعدما احترف غالبيتهم أعمال السلب والنهب نتجية الفوضى التي عانوها خلال السنوات الماضية، وتؤكد بعض المصادرر الأخرى أن يوسف باشا هدف من وراء تقوية الأسطول، وربط الدول به بدلاً من ارتباطها بالسلطان العثماني، وأنه استغل انشغال أوربة بالحروب النابليونية لإظهار قوته وإرغامها على عقد اتفاقيات منفردة معه[1].

سارعت فرنسا سنة ١٨٠٢م إلى عقد اتفاقية مع يوسف باشا، وفسرت المعاهدة التي أقامها يوسف مع فرنسا على أنها عمل عدائي ضد الدولة العثمانية وولاياتها الإسلامية، وتناسى مهاجمة فرنسا لمصر وتحديها للمشاعر الإسلامية، وأن الواجب الديني يفرض عليه الوقوف إلى جانب إخوته في مصر ومقاطعة فرنسا بفرض أنها دولة اعتدت على الديار الإسلامية وقتلت المسلمين في مصر.

---

(١) إثوري روسي ص ٣١٩.

لم يقتصر عمل يوسف على اتخاذ موقف لأيرضي السلطان، بل تجاهل فرماناته، وجسّد تجاهله للسلطان وفرمانه سنة ١٧٩٩م عندما قدم إليه قنصل الدانمارك يحمل فرماناً سلطانياً يطالبه بإرجاع السفن الثلاث التي أسرتها سفنه، فأجاب القنصل بالقول: (إنكم تعتقدون أن الفرمان شيء كبير، ولكنّ يجب أن تعرفوا أنه من الممكن الحصول على فرمانات مقابل أربعين قرشاً شبرقياً، وأن هذه الفرمانات ليست هنا سوى قصاصات من الورق)[1].

غضب السلطان من تصرف يوسف باشا وتجاهله لأوامره، وأيقن أن يوسف يقيم علاقة حسنة مع فرنسا التي تحتل مصر، ولكنّه لم يكن قادراً على معاقبته، بسبب الحملة الفرنسية ومانتج عنها من إرباك لإمبراطوريته، وتطلعه إلى الإصلاح وتنظيم أمور دولته تنظيماً حديثاً يتناسب مع المستجدات التي حدثت في مطلع القرن التاسع عشر.

إن تصرف يوسف باشا بوصفه أحد الأمراء المستقلين سبب له مشكلات داخلية وخارجية كثيرة، فعلى الصعيد الداخلي ثارت بعض المدن الليبية، ففي سنة ١٨٠٣م ثار أهالي غريان احتجاجاً على ممارسة العنف تجاههم، وإرهاقهم بالضرائب، وفي سنة ١٨٠٦م قام أحمد بن سيف النصر شيخ قبائل سرت بالإغارة على بعض السفن الأجنبية الراسية على ساحل المدينة[2].

استغلت مدينة غدامس عصيانات المدن الأخرى، فأعلنت ثورتها ضد يوسف باشا، فقطعت الطريق التجاري المؤدي إلى الداخل أو تونس وغيرها، فكلف ابنه علي باشا بالتوجه إلى مدينة غدامس لتأديبها وإخماد تمردها وإعادتها إلى الولاية بعد تركها عدة سنوات منفصلة عن إمارته ومطالبتها بالأموال الميرية التي دفعتها إلى إيالة تونس خلال السنوات الماضية، وحالما بلغها علي باشا شدّد الحصار

---

(١) رودلفو ميكاكي: طرابلس الغرب تحت حكم الأسرة القرمانلية، ترجمة طه فوزي، معهد الدراسات العربية العالمية ١٩٦١ ص ١٤٧.

(٢) عمر علي بن إسماعيل: إنهيار الأسرة القرمانلية في ليبية ١٧٩٥-١٨٣٥ م ص ٨٦.
Aziz Samih Alter. s. 237

عليها، فاستسلمت إثر المعاملة القاسية التي فرضها عليها، كما جمع السلاح الموجود فيها، وفرض عليها ضعفي ما كانت تدفعه لتونس، وقفل عائداً إلى طرابلس بعدما عيّن عليها والياً من قبله، وبعد مدة كلفه بإخضاع الجبل الغربي، لكنّ علي باشا فشل في مهمته لضعف قواته وقلة عددها، وقوة وشراسة مقاتلي الجبل الغربي(1).

ارتبط يوسف باشا مع جيرانه بعلاقة حسنة، لكنّ الموقف بينه وبين حموده باشا تأزم بسبب عدم دفع يوسف باشا الأموال المتبقية من تكاليف الحملة التي تسببت بإعادته وعائلته إلى حكم طرابلس، إلا أن يوسف تنكر لجميل حموده باشا، وتذرع بأن السند وُقّع من قبل أخيه أحمد، وأن قيمة السند دُفعت إليه من قبل سكان غدامس، فهي تدفع الضريبة لتونس أكثر من خمس سنوات.

اشتد الموقف تعقيداً وتأزماً بينهما، وأخذ الطرفان يستعدان للقتال، إلا أن انشغال حموده باشا بثورة الجند التركي سنة ١٨١١م، أوقف التنافس بينهما ودفع كل منهما لمعالجة أمور ولايته، كما استغل يوسف فرصة انشغال حموده باشا بثورته وأعلن رسمياً ضم غدامس إلى ولايته، وحينما رفض سكانها تبعيتهم له، جرد حملة بقيادة ابنه علي باشا وحاصرها لمدة ثلاثة أيام، فاضطر علماء غدامس وأعيانها لطلب الأمان من علي باشا وأعلنوا قبولهم الانضمام إلى طرابلس مع التزامهم بالشروط التي فرضها عليهم وهي:

١- دفع الضرائب التي دفعت إلى تونس خلال خمس سنوات وقدرها ٣٠٠٠٠٠ مثقال من الذهب.
٢- دفع ١٢٠٠٠٠ محبوب ذهبي أي مايعادل ٤٨٠ ألف فرنك نفقات الحملة.
٣- دفع الضرائب المترتبة عليهم تجاه الولاية.

وافق أعيان غدامس وعلماؤها على الشروط التي فُرضت عليهم والتمسوا مهلة زمنية لجمعها فوافقهم على ذلك.

---

(١) أحمد النائب: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ص ٣٣٥.

ارتبط يوسف باشا بعلاقة جيدة مع الجزائر، كما ارتبط مع محمد علي باشا والي مصر بعلاقات حسنة أيضاً، واستمرت العلاقة جيدة وحسنة حتى سنة ١٨٢٧م، لكنها تأزمت لأن محمد علي باشا قَبِلَ الاشتراك مع فرنسا بحملتها ضد داي الجزائر[١] .

أما على الصعيد الخارجي، فمنذ القرن التاسع عشر وسّع يوسف دائرة صراعه مع الدول الأوربية الغارقة بالحروب النابليونية، وحالما انتهت أوربة منها، أخذت تبحث عن وسيلة لإنهاء أعمال القرصنة البحرية لدول المغرب العربي، لأن قراصنها طوقوا أوربة بجدار من الرعب والخوف دام قرنين من الزمن، فبدأت بمراجعة حساباتها، بعدما عجزت دولها منفردة عن إخضاع قراصنة الشمال الإفريقي أو الحد من نشاطهم التجاري ضد سواحلها، ووجدت تلك الدول أن اتفاقها خير وسيلة للتخصل من هذا الكابوس المخيف، وتوصلت تلك الدول إلى عقد مؤتمر دولي يحرم القرصنة البحرية، فاجتمعوا في مدينة إكس لاشابل سنة ١٨١٦، وأسفر الاجتماع عن اتخاذ قرار بتحريم القرصنة البحرية.

استمر قراصنة الشمال الإفريقي بمهاجمة السفن الأوربية، و لم تكنّ إنجلترا راغبة ضمنياً بتنفيذ قرارات المؤتمر خوفاً من منازعة فرنسا لها في نيابات الشمال الإفريقي، كما أن يوسف باشا يرتبط معها بعلاقة جيدة، لأنه التزم معها منذ احتلالها لجزيرة مالطة بتزويد الجزيرة بالمواد الغذائية اللازمة لها إضافة إلى منح قنصلها مركز الصدارة في الولاية.

لم يعبأ يوسف باشا بمقررات المؤتمر، وقد أورد لنا ميكاكي نقلاً عن خطابي القنصل الإنجليزي والقنصل الفرنسي، أن عدد السفن التي استولى عليها بحارة يوسف باشا في منتصف سنة ١٨١٥م بلغ عددها ست سفن دانماركية، وحمولتها مايعادل خمسمائة ألف قرش، وما لايقل عن ألف خمسمئة أسير إيطالي سُجنوا داخل حمامات طرابلس الغرب[٢] .

---

(١) عمر علي بن إسماعيل: إنهيار الأسرة القرمانلية في ليبية ص ١٥٢.

(٢) عمر علي بن إسماعيل: إنهيار الأسرة القرمانلية في ليبية ص ١٥٣.

لم تستمر العلاقة السيئة ما بين يوسف باشا وفرنسا، فبوصول آل بوربون إلى الحكم، تحسنت العلاقة بينهما، فشعرت بريطانيا بخيبة أمل إثر تحسن العلاقات بين يوسف باشا وفرنسا، ولإفساد العلاقة بينهما، بدأت تطالب بتطبيق مقررات إكس لاشابل، فاستغلت اعتداء السفن الجزائرية على سفنها، فكلفت أسطولها البحري بقيادة إكسموث (Exmeuth) بالتوجه إلى المياه الإفريقية لإرغام ولايات الشمال الإفريقي على تنفيذ قرارات إكس لاشابل، وساندتها بعض الدول التي تدور في فلكها، كما أجبرت يوسف باشا على عقد صلح مع سردينا وصقيلية بعد أن رفض سابقاً توقيع الصلح معها(١).

فقدت نيابات الشمال الإفريقي حيويتها واندفاعها للنزاعات المحلية التي عصفت بالنيابات الثلاث، فالولاة العثمانيون وجدوا بتزايد النفوذ الأوربي في المنطقة إفساداً لمهماتهم، وإقصاءً علنياً للمد العثماني، فقدموا تقريراً للسلطان العثماني يعلمونه بذلك، وبما أن السلطان لم يتخذ أي إجراء عملي، فقد فضل الولاة وسكان الولايات الاعتماد على إمكاناتهم المحدودة، فالأسطول العربي ظل يمارس نشاطه البحري بسفن القرون الماضية، في حين انصرفت الدول الأوربية إلى تطوير أساطيلها البحرية، إضافة إلى ممارسات سياسية، أكدت أطماع دول أوربة بممالك الدول العثمانية في مناطق الشمال الإفريقي.

وعلى ضوء المستجدات الجديدة، بدأت قوة بحرية بدخول ميدان الصراع البحري بشكل أقوى وأعنف من الدول الأوربية كافة والتي تمتع بماضٍ بحري عريق، ولن نغالي بالقول إذا قلنا إن القوة البحرية الأمريكية الناشئة اتسمت منذ اللحظات الأولى بالطمع والجشع الاقتصادي والسياسي بآن واحد، ووقفت في مواقف عدة معبرة عن حقدها الدفين ومحاولتها الانتقام لماضيها البحري الضعيف، لذلك اصطدمت أولاً بولاية ليبية لإجبارها على توقيع الصلح معها بغية ضمان الاعتراف بها بوصفها واحدة من الدول البحرية القوية أمثال فرنسا وإنجلترة، وحينما فشلت

---

(١) Tavfik Kara sapan s. 128

في مسعاها، عمدت إلى إثارة الفتنة الداخلية، فأعلنت تأييدها لأحمد بك شقيق يوسف باشا المقيم في مصر، وزودته بقطع بحرية، ومكنته من الوصول إلى مدينة بنغازي، وعلى الرغم من معرفة يوسف باشا بما ستؤدي عودة أخيه إلى الولاية من اقتتال وحرب أهلية دامية، فقد رفض تلك المساومة، وقرر التمسك بحقه مهما بلغ الثمن.

لم تكن السفن الأمريكية لتتجرأ على التجول وهي رافعة علم بلادها ففي بادئ الأمر كانت تتستر تحت العلم الإنجليزي إلى أن نالت استقلالها سنة ١٧٧٦م ومن ثم احتمت بالسفن البرتغالية كما احتمت بسفن نابولي وصقلية والبندقية بعدما ناصبتها السفن الإنجليزية العداء العلني، وعدَّ الأمريكيون تصرفهم إهانة كبرى لهم ولا سيما بعدما رفضت فرنسا تأمين الحماية لسفنهم، وجاء الرفض الفرنسي بناء على الاتفاقية المعقودة مع إنجلترا التي جاءت تنص على عدم مساعدة الدول الصغرى والأخذ بيدها خشية منافستها في الحقل التجاري.

إزاء ذلك اضطر الأمريكيون إلى إرسال قناصلهم إلى ولايات الشمال الإفريقي محملين بالهدايا الثمينة، ووُفِقَ بعضهم في مهماتهم، وتمكن مندوبهم من إقامة قنصلية أمريكية في طرابلس الغرب سنة ١٧٩٩[1].

لم تحظَ الولايات المتحدة الأمريكية بالمعاملة التي حظيت بها فرنسا وإنجلترا من قبل ولايات الشمال الإفريقي لإتباعها أسلوب المخادعة والتحايل، إضافة إلى عدم التزامها بالوعود التي قطعتها على نفسها تجاهَ مَنْ تلتزم معهم بعهود ومواثيق، مما عرض قناصلها إلى إهانات عدة، وعزي سبب ذلك إلى ضعف الأسطول البحري، فاجتمع الكونغرس الأمريكي لاتخاذ خطوة أولية تهدف إلى بناء الأسطول وزيادة عدد سفنه، ووقّع الرئيس الأمريكي قراراً يقضي ببناء ست بوارج حربية كبيرة[2].

---

(١) عمر علي بن إسماعيل: إنهيار الأسرة القرمانلية في ليبية ص ١٠١. (يذكر أن أول قنصل أمريكي عين في ليبية هو جيمس كاثكارت، وكان سابقاً سجيناً في مدينة الجزائر، لأنه كان جاسوساً) للمزيد انظر: تاريخنا ج٥ ص ٨٠-٨٥.

(٢) تاريخنا (مجموعة من المؤلفين) ستة أجزاء. ليبية ١٩٧٧. ص ٨٠-٨٥.

لم تلتزم الولايات المتحدة الأمريكية بدفع المبلغ الذي اتفق قنصلها جوزيف دونالدسون مع يوسف باشا ومقداره (٢٥٠) ألف فرنك فرنسي سنوياً، فعمد يوسف باشا إلى تهديد القنصل الأمريكي بالطرد من الولاية وإغلاق القنصلية الأمريكية، فلجأ القنصل إلى الوساطة، لكن يوسف باشا رفض أي تدخل في هذا الموضوع، فطرد القنصل الأمريكي من مجلسه، كما أمر سفنه بالاستيلاء على أي سفينة أمريكية تقابلها[1] .

احتج القنصل الأمريكي على الإجراء المتخذ، فأنزل علم بلاده عن مبنى القنصلية، وطلب إلى رعاياه مغادرة المدينة[2] . غير أن كوستانزيو برنيا يذكر أن الذي أمر بإنزال العلم الأمريكي هو يوسف باشا : «لما فشلت المفاوضات بين يوسف باشا وبين أمريكا، أمر يوسف باشا بإنزال العلم الأمريكي وأحرقه أمام العموم »[3] . فعدت أمريكا ذلك إهانة لها، فأمرت أسطولها بالتوجه إلى المياه الليبية لضرب جميع موانئها وهدمها.

عمدت أمريكا منذ سنة ١٨٠١م إلى ممارسة العنف والوحشية، يحدوها في ذلك حب السيطرة ومحاولتها تولي موقع دولي مهم وسعيها للهيمنة السياسية والاقتصادية أسوة بفرنسا وإنجلترا.

لم تكن البحرية الليبية بالبحرية القادرة على مواجهة البحرية الأمريكية المتطورة، إضافة إلى اضطراب الوضع الداخلي للولاية، وانقسام السكان إلى قسمين، قسم يؤيد أحمد بك، والقسم الآخر مع يوسف، وعلى الرغم من ضعف موقف يوسف باشا، فقد صمم على مواجهة الأسطول الأمريكي والتصدي له، لكنه لم يستطع الاستمرار في عملية المواجهة، وانتهى الأمر به إلى توقيع صلح معها سنة ١٨٠٥م حصل الأمريكيون بموجبه على امتيازات ضخمة من أهمها سلامة سفنهم التجارية وتفضيل قناصلهم على بقية قناصل الدول الأوربية.

---

(١) Aziz Samih Alter. s. 237-238.

(٢) Aziz Samih Alter. s. 238.

(٣) كوستانزيو برنيا: طرابلس من ١٥١٠-١٨٥٠ تعريف خليفة محمد التليسي ص ٢٨٦.

تُعدّ المعاهدة المعقودة ما بين ولاية ليبية والولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٨٠٥م بداية إنهاء الخلاف بينهما، ونقطة نشوء البحرية الأمريكية ودخولها دائرة الصراع البحري والتنافس السياسي الدولي، وغدت البحرية الأمريكية تمتلك قرار الفصل إزاء المشكلات والصعوبات التي تواجهها وتواجه أوربة، ومن جهة أخرى، فالأسطول الليبي رغم اعتماده على سفن قديمة، فقد لعب دوراً بارزاً في ميدان الصراع البحري، وحقق للولاية أموالاً طائلة أضاعها يوسف باشا وحاشيته، وأسفر عن جهلهم وتجاهلهم ضياع الولاية والأسطول معاً، وتعرض الولاية لفساد عام وفقر مدقع تحمل الأهالي نتائجه ولا سيما إثر تحطم الأسطول وتوقف أعمال القرصنة، ولجوء يوسف باشا إلى فرض ضرائب هائلة لتغطية نفقاته الخاصة ونفقات قصره.

وهكذا يمكننا القول: إن كل انهيار تشهده ولاية ليبية، يقابله بروز مرحلة جديدة من الإدارة، وتميزت المرحلة القرمانلية بإدارة خاصة مغايرة للإدارة العثمانية السابقة فبداية قيامها تأييد شعبي والتفاف عام حول مؤسسها. ونهايتها ولاة ضعاف، وإدارة عرش ملطخ بالدماء، وصراع أخوي على الإدارة، وولاية فاقدة لمجمل المقومات الاقتصادية والنظم السياسية، وقوى أوربية تزيد الوضع الداخلي تأزماً وتعقيداً، وقوى بشرية محلية تابعة اسمياً لسلطان لا يعلم عن أحوال الولاية شيئاً، وأهالي تتطلع لمنقذ عثماني أو أوربي على حدٍ سواء.

كان من الممكن أن ينمو الدخل الضعيف، وأن يغدو التصحر العام محدوداً، وأن يطرأ على الأسطول بسفنه القديمة تحول تقني يزامن العصر إلى حد ما، لو أن أفراد الأسرة القرمانلية أرادوا لنظامهم الوراثي الاستمرارية، وقدّروا للأهالي استجابتهم لهم، لو لم يلجأ يوسف باشا إلى تحريك القبائل، اعتقاداً منه أنه حل استراتيجي يعفيه من العصيانات المحلية.

إن الأحداث المستجدة والتحولات الجديدة، أجبرت يوسف باشا على الانضواء والرضوخ للأمر الواقع مركّزاً أنظاره على ولايته، فبدأ البحث عن مصدر يؤمن له دخلاً مالياً يعوضه عن الموارد المفقودة، فالضرائب لم تعد تفي متطلباته،

وحتى موارد الولاية لا تفي بحاجة الأهالي، فسكان الولاية وإن تناسوا المآسي التي ارتكبها، إلا أن السلوكية التي سلكها خلال توليه الإدارة وبخاصة، في السنوات الأخيرة من حكمه، أعاد إلى أذهانهم صورة الماضي القريب، فأضاع جهد السنوات التي مكّنته من توطيد الأمن وتأمين استقرار إداري وازدهار اقتصادي، كشفتها أحداث القرن التاسع عشر، تأكدت بقرار أوربي يقضي بتحريم الرق وإيقاف القرصنة البحرية المصدر الأساسي لولايات الشمال الإفريقي عامة وليبية خاصة.

٢ – ولاية علي باشا وسقوط حكم الأسرة :

إزاء ممارسات يوسف باشا، وزعزعة الوضع الداخلي، استغلت بعض القبائل المتحالفة مع حفيده محمد بك – الثائر في بنغازي– الفرصة فأخذت تطالب المدن والقبائل الأخرى بمؤازرتها، فأعلنت مدينة فزان عصيانها، وحذت المناطق الداخلية حذوها، وساهمت القولوغلية – المهملة منذ زمن طويل – في تحريض الأهالي على الثورة للإطاحة بيوسف باشا وحاشيته، ولزيادة الاضطراب عمدت إلى نشر الرعب في مدينة طرابلس وما جاورها من مناطق[١] .

أدرك يوسف باشا أنه لن يستطيع مواجهة الأحداث الجارية، وكعادته لجأ إلى أسلوب المخادعة لاستباق الأحداث قبل وقوعها وتفاقمها بهدف توجيهها لصالحه، فأعلن عدم قدرته على تحمل أعباء الحكم بسبب مرضه وكبر سنه، وأوضح للأعيان والعلماء رغبته بالتنازل لأفضل أبنائه، وبعد اجتماعه بهم صرح لهم قائلاً : «أشهد بحضوركم جميعاً أنني أتنازل عن الحكم، وأضع ابني علي باشا والياً عليكم وأخاه إبراهيم قائداً للجيش»[٢] . فوافقه الحاضرون، وأقسموا اليمين على التزامهم باحترام إرادة الباشا ووقعوا على وثيقة الولاء والطاعة للباشا الجديد سنة ١٨٣٢م.

---

(١) إثوري روسي : ليبية منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١ ص ٣٤٤.

(٢) إثوري روسي : ليبية منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١ ص ٣٤٤-٣٤٦.

انصرف يوسف باشا بعدها إلى تأمين الدعم لابنه علي باشا، فأرسل رسالة إلى السلطان يشرح له الأسباب التي دفعته للتنازل لابنه عن الحكم، وسبب الثورات التي عمت الولاية، وادعى في رسالته أن الثوار يطالبون بإلغاء الضرائب والقضاء على النظام العسكري المتبع، وأن تنازله عن الحكم كان بناءً على رغبة العلماء والأعيان، إضافة إلى كبر سنه وعجزه عن القيام بأعباء الحكم كولده علي[1] .

أعلن علي باشا فور تسلمه الحكم، رغبته في تطبيق العدالة وإنصاف المظلومين، وتوطيد الأمن والاستقرار، فدعا أولاً إلى إجراء مصالحة بين الأطراف المتنازعة، لكن الثائرين رفضوا الاستجابة لندائه، وبما أن الاضطرابات مستمرة، وأعمال السلب والنهب تعم مختلف مدن الولاية، فقد عمد إلى توجيه مفرزة عسكرية إلى منطقة المنشية والساحل ومنحها صلاحية إخماد الاضطراب السائد، واشتد الاقتتال بين الأهالي الثائرين والعساكر، ولولا عثور العساكر على كميات كبيرة من البارود وفي قصر الحكومة، لتعرض عساكر علي باشا للهزيمة، ولفشلوا في المهمة المكلفين بها.

استمر النزاع بين صفوف الأسرة القرمانلية، فانقسمت البلاد إلى قسمين: قسم يؤيد محمد بك ويحظى بتأييد أوربي، والقسم الآخر يؤيد علي باشا المدعوم بالعساكر وبعض القبائل القاطنة بجوار طرابلس وخاصة بعد تنازل علي باشا لغومة المحمودي عن الجبل[2] .

وفي السابع عشر لشهر أيلول سنة ١٨٣٤م، قَدِمَ شاكر أفندي إلى طرابلس الغرب حاملاً فرمان تولية علي باشا بوصفه أمير أمراء ولاية ليبية، وأعلم شاكر

---

(١) عمر علي بن إسماعيل: إنهيار الأسرة القرمانلية في ليبية ص ٢٧٢.

(٢) غومة المحمودي هو ابن الشيخ خليفة المحمودي زعيم قبيلة بني نويره، تسلم زعامة القبيلة بعد مقتل أخيه أبي القاسم المحمودي سنة ١٨٢١م، وغومة المحمودي هذا سيلعب دوراً بارزاً في مواجهة حادة مع ولاة العهد الباشوي.

أفندي الوالي علي باشا بقدوم بعض قطع الأسطول العثماني مع عدد من العساكر، فعم الفرح والسرور مختلف أرجاء الولاية لدى سماعهم ذلك[1] .

وتفيد المصادر التركية أن شاكر أفندي اجتمع مع الثوار، وطالبهم بالهدوء ووعدهم بإيصال الرسالة التي سلموها إليه إلى السلطان، كذلك فقد حمل رسالة علي باشا معه، وحالما عاد إلى إستانبول قدم الرسالتين إلى الصدر الأعظم، وشرح له الحالة السياسية التي تمر بها الولاية.

عقد الصدر الأعظم اجتماعاً مع كبار رجال الدولة، وعرض عليهم محتوى الرسالتين وما قدمه شاكر أفندي من معلومات، وأسفر الاجتماع عن اتخاذ قرار يقضي بإعادة الولاية إلى الإدارة المباشرة للدولة العثمانية آخذين بالحسبان الوضع الاقتصادي المتردي للولاية، والأطماع الأوربية بها.

سئم سكان مدينة طرابلس الغرب حالة القلق والاضطراب التي يعانونها منذ سنوات، فمدينتهم ما تزال محاصرة، ومنازلهم عرضة للسلب والنهب والقصف المدفعي من قبل عساكر علي باشا وهم ينتظرون ومعهم الوالي الجديد علي باشا قدوم الأسطول العثماني، ولكل منهم تصوراته المتناقضة عن سبب قدوم الأسطول العثماني، فالثوار يتصورون أنه قادم لإنقاذهم مما هم فيه من قلق واضطراب، وعلي باشا يتصور أن الأسطول قادم لتثبيته في السلطة والقضاء على العصيانات المنتشرة في الولاية.

تحرك الأسطول العثماني من إستانبول في أوائل شهر أيار بعد موافقة السلطان على تنفيذ مهمته في ولاية ليبية، فبلغها في السابع والعشرين منه سنة ١٨٣٤م، وعُهد إلى مصطفى نجيب باشا بتسوية الأمور وإنهاء الأسرة القرمانلية وإدارة الولاية وتوطيد الأمن والاستقرار فيها ريثما تصله تعليمات جديدة.

صرّح مصطفى نجيب باشا فور رسو أسطوله في ميناء طرابلس أن مهمته فرض النظام والقضاء على مثيري الشغب والفوضى، ولدى قدوم علي باشا إلى

---

(١) مهمة دفتري : مهمة مكتومة رقم ٩ و Aziz Samih Alter. s. 2. s. 243

قيادة الأسطول للترحيب بالأسطول وقائده، قابله نجيب باشا أيضاً بترحـاب ممـاثل، وطلب نجيب باشا من علي باشا إصدار أوامره إلى الأهالي من مؤيديه بالتزام الهـدوء وتسليم ما لديهم من أسلحة، وحالما اطمأن نجيب باشا إلى تنفيذ الأمر وأن الأهـالي مالوا إلى السكينة، أمر فوراً بإيقاف علي باشا ومَنْعهُ من مغادرة الأسطول، وبعدهـا خرج إلى البر وعقد اجتماعاً في جـامع الريـس طرغـوت، وتـلا الفرمـان السـلطاني القاضي بإزالة الأسرة القرمانلية، وتكليفه رسمياً بتسيير الأمور حتـى ورود تعليمـات جديدة من إستانبول.

إن الإجراء المتخذ من قبل إستانبول تجاه ولاية ليبية، أسـفر عنـه بـدء مرحلـة إدارية جديدة مغايرة للمراحل السابقة، كما أن الأمر اقتضـى مـن الدولـة العثمانيـة بعد إعادة طرابلس إلى سيطرتها المباشـرة، التعـامل مـع المتغـيرات الدوليـة أولاً ومـا تعانيه من تبديل إداري في مركزها ثانياً، فالأطمـاع الفرنسـية تجـاوزت الجزائـر إلى تونس، ومحمد علي باشا لم يعد مقتنعاً بولايـة مصـر وبـلاد الشـام وبريطانيـا دولـة التوازنات السياسية الدولية لها مصالحها الخاصة في مناطق الشمال الإفريقـي ومصـر وبلاد الشام، وجيشها المتطـور الجديـد بعـد القضـاء علـى الإنكشـارية غـير مؤهـل لمواجهة الأحداث، وروسيا تتطلع للوصول إلى المياه الدافئـة برغـم المعارضـة الحـادة لأوربة الغربية، كما أن تدخل العثمانيين في منـاطق الشـمال الإفريقـي دفـع الـدول الأوربية لتغيّر حساباته، والإصلاحات التونسية زادت الحسابات الأوربية تعقيداً.

هذه المتغيرات أفرزت نهضة قومية وفكرية علمية مضطربة المسار والأهـداف في الدولة العثمانية والولايات العربية على حدٍ سواء، و لم تشمل مختلف المنـاطق بـل اقتصرت على المدن الرئيسة للولايات العربيـة وليـس بالإمكـان إيصالهـا إلى مختلـف أجزاء كل ولاية لصعوبة تحقيقه نتيجة للترسبات السلبية للعثمانيين، ولهذا وُجِدَ تحـدٍ عام، يتصف بغالبيته بالعفوية والمقاومة غير المنظمة، ومقاومتهـا المسـتقبلية ليـس مـع قوى يتفقون معها دينياً أو قوميـاً، وإنمـا هـو صـراع اقتصـادي لأنهـا تمتلـك عقليـة متطورة واعية لخطواتها يحدوها في ذلك دوافع اقتصادية وثقافية بعيدة كل البعد عن الشهرة والمجد والمفاخرة رداء آل عثمان وهدفهم الأولي وغايتهم القصوى.

إن الاضطرابات والقلاقل وجهل الولاة العثمانيين منذ سنة ١٥٥١م حتى سنة ١٨٥٠م أعاق أي تطور فكري للإنسان العربي الليبي، يتعدى التخلص من الظلم وتأمين لقمة العيش وإسكات مدافع الصراع التركي على الإدارة، وما تولّد لدى عرب ليبية يدور حول إبعاد الحاكم الغريب - وإن كان الدين يجمعهم - عن بلادهم، واستمر الأمر على ما هو عليه حتى فترة الثمانينات مدفوعة بتأثير أحداث عدة من أهمها :

١ - الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة١٨٣٠م ولتونس سنة ١٨٨١ م.

٢ - الاحتلال الإنجليزي لمصر سنة ١٨٨٢م.

٣ - قيام الوحدتين الإيطالية سنة ١٨٧٠م، والوحدة الألمانية سنة ١٨٧١م وانعقاد مؤتمر برلين وتولي السلطان عبد الحميد الثاني العرش العثماني سنة ١٨٧٦م.

٤ - تعيين أحمد راسم باشا والياً على ليبية وسعيه الجاد لخلق نضوج فكري وإدراك للأخطار المحدقة بالولاية، أكمل طريقه الوالي رجب باشا.

٥ - التأثيرات الثقافية التي خلقّتها الحركة السنوسية.

٦ - تحويل ليبية إلى منفى لمعارضي السلطان عبد الحميد الثاني.

هذه الأحداث التي فرضها النصف الثاني من القرن التاسع ساهمت في خلق وعي كبير ونضوج عميق، أعطى ثماره الفعلية بعد خروج الأتراك من بلادهم، وأثناء الاحتلال الإيطالي لها، سبقها مراقبة محلية لولاة العهد العثماني الثاني الذين عينوا خلال هذا العهد، فأيدوا المخلصين منهم، وقاوموا المتخاذلين منهم ولا سيما المؤيدين للإيطاليين.

الفصل الثالث

أوضاع ليبية

(من ١٨٣٥ إلى ١٩١١م)

١ - عهد الباشوات (١٨٣٥-١٩١١م):

امتد هذا العهد ستاً وسبعين سنة، تولى خلالها إدارة الولاية ثلاثة وثلاثون والياً، استمر بعضهم قرابة سنة واحدة، وحكم بعضهم الآخر سنوات عدة، ولم يكن ولاة هذا العهد بأفضل من سابقيهم من الولاة العثمانيين باستثناء الوالين أحمد راسم باشا ورجب باشا.

تفيد المصادر التركية الحديثة أن ولاية ليبية خلال هذه الفترة شهدت تولي ولاة أكفاء، امتازوا بالخبرة الإدارية والكفاءة العسكرية، فأخلص بعضهم لمهمته وقاوم بشدة التغلغل الأوربي المتزايد، كما أن الدولة العثمانية شددت رقابتها على الولاة وعاقبت المسيء منهم.

طُرحت تساؤلات كثيرة عن الأسباب والدوافع التي دفعت الدولة العثمانية لفرض سيطرتها المباشرة على ولاية ليبية، وهل وُفق العثمانيون في تدخلهم المباشر؟

يصعب الإجابة عن التساؤلات المطروحة بإسهاب كافٍ، فالصراع الفرنسي الإنجليزي تصاعد بشكل سافرٍ في مناطق الشمال الإفريقي، ولم يكن بإمكان فرنسا التطلع لمد نفوذها الاستعماري على أقطاره الأربعة، وهي تتطلع إلى استحواذ تونس والمغرب العربي، وبريطانيا لها مصالحها الخاصة في المغرب الأقصى لحماية قاعدتها في جبل طارق، وليبية لم تكن محط أنظار فرنسا اللاهثة وراء مكاسب سياسية

واقتصادية، فبريطانيا دولة التوازنات السياسية لا يعنيها مناطق وارداتهـا الاقتصاديـة محدودة، وهذا لا يعني أنهما لا يتطلعان إلى ولاية ليبية وغير مدركين لما تتمتع به من مركز استراتيجي مهم، وخصوبة تربتها إذا وَجَدَتْ الاهتمامَ المطلوب.

لقد وفق العثمانيون في تدخلهم المباشر في ولاية ليبية، ومساهمتهم في القضاء على الأسرة القرمانليـة، وتمكّنهـم مـن إنهـاء الصـراع العـائلي، وفي الوقـت نفسـه، تدخلهم أيقظ روح المنافسة الأوربية، وتخوفت فرنسـا كثيراً مـن الجيرة العثمانيـة، وحاولت التمسك بالقرمانليين تماشياً مـع مصالحهـا، هـذه التناقضـات الإداريـة أو السياسية، ولدّت عند الليبيين بلورة الأحداث وإن تفاقمت وأيقظت روح التحـدي وإن دفع الليبيون ثمنها بسخاء وبدون حساب فداءً لوطنهم.

لم يكن العثمانيون خلال المراحل الأولى يسيطرون إلا على المناطق السـاحلية من الولاية، ولم يتمكنوا من إخضاعها بصورة كاملـة حتـى سـنة ١٨٥٨م، فقضـوا بذلك على النزاعات البدوية الاستقلالية، وتخلصوا من الزعامة البدوية وثوراتها الـتي لا تهدأ، ولكن بشكل محدود.

عمل مصطفى نجيب باشا بعـد اعتقالـه لعلـي باشـا علـى الاهتمـام بالولايـة، فجمع أعيان المدينة ووجهائها والأهالي في مسـجد طرغـوت باشـا، للاطـلاع علـى آرائهم ورغباتهم، فشكل لجنة مصالحة برئاسة الحاكم الشرعي أحمد التوغـاري مـع خمسة من الأعضاء الآخرين لحل المنازعات القائمة كما أسند إليهـم مهمـة المحافظـة على الأمن[1] ، ولاحق محمد باشا القرمانلي وقتله ونفـى أخـاه إلى مالطـه، وفـرض عقوبات صارمة بحـق المخـالفين، واسـتقبل غومـة المحمـودي كزعيـم وأمـر المدفعية بإطلاق اثنتين وعشرين طلقة، وبعد استقباله أمر باعتقاله ووضعه بالسجن لأسباب غـير معروفة، ونجم عن اعتقاله إعلان قبيلته الثورة على الأتراك، استمرت عشرين سنة، واجه الولاة خلالها مضايقات حادة، وتعرض الجنود الأتراك للهلاك والقتل، ولم تهدأ ثورتهم حتى قدوم الوالي عثمان باشا الذي تمكن من قتله بعد إطلاق سبيله.

---

(١) طرابلس الغرب : مسائل مهمة: رقم ٢٠٧٩، ٢٠٩٠، ٢٠٩٧.

في نهاية سنة ١٨٣٥م عزل مصطفى نجيب باشا وخلفه محمد رائف باشا، الذي عمل فور وصوله على اطلاق سراح غومة المحمودي من السجن ومنحه امتيازات كثيرة إرضاءً له، وتفيد بعض المصادر أن الوالي محمد رائف باشا فعل ذلك، لأن إستانبول أوعزت إليه إطلاقه واسترضاء بعض الزعامات السياسية المحلية، وملاحقة العصاة منهم والحد من نشاطاتهم وتحركاتهم المشبوهة ومنعهم من الاتصال بالدول الأوربية سعياً منهم لإقامة زعامة على حساب الإدارة العثمانية التي اصطدمت بتحديات محلية لم تعهدها سابقاً.

وفي الثاني والعشرين من تموز سنة ١٨٣٦م وصلت إلى المياه الليبية فرقة بحرية بقيادة القبودان طاهر باشا حاملاً فرمان توليته والياً على البلاد بدلاً من محمد رائف باشا. ويقال إن تكليف طاهر باشا بإدارة الولاية كان نتيجة للثورات المحلية التي عمت المدن الليبية، وأن الصحافة الأوربية حمّلت الأتراك مسؤولية الفوضى التي تعصف بالولاية.

عمل طاهر باشا على إخماد الثورات التي انتشرت في تاجوراء، فألقى القبض على عثمان الأدغم وجهّز قوة لملاحقة غومه المحمودي الثائر في الجبل، ومن ثم اتجه إلى ترهونة لإخماد ثورتها بقيادة الشيخ المريض، وثورة منطقة ورفلة وفزان بزعامة عبد الجليل زعيم قبائل أولاد سليمان.

لم تكن إستانبول راضية عن تصرفاته حيال الثورات المحلية، وبخاصة ثورة غومه المحمودي، وعلى الرغم من قصر مدته إلا أنه ترك آثاراً عظيمة، فقد بنى قصراً للحكومة في مصراته، وبنى داراً خاصة بحريم الولاية في طرابلس، وعامل الأهالي بما فيهم الثائرين معاملة حسنة، وخاطبهم لأكثر من مرة أن ثوراتهم تنعكس سلباً عليهم وعلى بلادهم، فخيم الهدوء النسبي على أغلب أجزاء الدواخل، مما ساهم في طمأنة الأهالي، وغدت القوافل التجارية تجد طريقها إلى الداخل، بعدما كانت منحصرة على مناطق الساحل ولا سيما بعد سنة ١٨٤٢م ونهاية ثورة عبد الجليل، وينقل إلينا الرحالة الألماني (بارث) نفسه أنه شاهد قافلة مكونة من ألف جمل، محملة بالتبر واللؤلؤ والتوابل والزعفران وريش النعام والعبيد، وكان يتقدم القافلة في الغادة، رائد، يمتطي مهراً.

أما الشركات الأجنبية للمقاولات فلم تحظَ بتشجيع الإدارة العثمانية، ففي سنة ١٨٤٠م أنشئت شركة فرنسية مركزها مارسيليا لاستغلال مناجم الكبريت في سرت، وعقدت اتفاقها مع الثائر عبد الجليل، وبعد مقتله رفضت الحكومة العثمانية الاعتراف بالامتياز الممنوح لها[1].

وفي سنة ١٨٣٧م عين الجشمهلي حسن باشا والياً على ليبية، وكانت البلاد تواجه وباء الطاعون الذي عمَّ مختلف أرجائها، وهلك أناس كثيرون، وكتب قنصل ساردينا سنة ١٨٣٧م إلى السلطات الصحية في مدينة جنوا تقريراً قدم فيه هذه الإحصائية عن الوفيات والإصابات الناتجة عن ذلك الوباء.

(لقد بقيت هذه البلاد، بثلث عدد السكان الذين كانوا يسكنونها في الماضي، فإذا أحصينا الإصابات في هذه المدينة وضواحيها، والمقاطعات الداخلية مثل الزاوية والجبل وغريان وفزان التي سرى إليها الوباء، دون أن نعلم به إلا بعد مضي فترة طويلة من الزمن، فإن عدد الضحايا يرتفع إلى رقم ٨٠٧٠٠ تقريباً، وهو رقم جدير بالثقة التامة، إذ قام القاضي بإحصائه بغية تسجيله في الحوليات، بعدما ورد عليه في التقارير المكتوبة من مختلف قضاة المقاطعات)[2].

عمد الوالي حسن باشا فور وصوله إلى اتباع سياسة اللين محاولاً كسب الثائرين، وتعهد لهم بالحصول على الأمان من السلطان، لكن الثوار ازدادوا عنفاً وتمسكاً إثر تأييد الأهالي لهم، فلجأ الوالي حسن باشا إلى العنف، فوجّه ضربات شديدة وقاسية ضد سكان مدن تاجوراء والساحل والمنشية، وأسفر تصرفه عن اتساع الهوة بين الأهالي والولاة العثمانيين، وغدا جميع الأهالي يقدمون المعونة سراً إلى الثوار، آملين إنقاذهم من ظلم الولاة الأتراك.

استاءت إستانبول من فشل حسن باشا فاستدعته في أيلول سنة ١٨٣٨م، وعينت علي عشقر باشا الذي اعتمد باب التفاوض مع المتمردين بغية إيقاف القتال

---

(١) إتوري روسي : ليبية منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١ ص ٣٧٦.

(٢) إتوري روسي : ليبية منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١ ص ٣٦٢.

وحقن دماء المسلمين، وحينما لمس إصرارهم على الثورة بطش بهم وتمكّن بفضل حنكته العسكرية من إلزام عدد من المدن الثائرة بالطاعة، وكلف حليم بك بالقضاء على ثورة بنغازي، في حين توجّه بنفسه لمواجهة الثائر عبد الجليل في بلدة مصراته، وبعد قتال استمر ثمان ساعات، اضطر عبد الجليل إلى الهرب إلى فزان.

إن حنكة عشقر باشا مكّنته من بسط السلام على المنطقة، ووافقهم على دفع الجزية على أن تشمل الأعوام السابقة رغم معرفته الأكيدة بعدم التزام عبد الجليل أو غومه بدفع الجزية، وبقدوم موسم الحصاد، أصبح دفع الجزية المتفق عليها مستحقاً، إلا أنهما رفضا دفع ما عليهما من ضرائب فاستؤنف العداء وتحول إلى قتالٍ دامٍ، خرج عبد الجليل مهزوماً، في حين هزمت قواته أمام ثورة أهالي غريان واستمر القتال بين الطرفين بشكل متقطع حتى سنة ١٨٤١م.

سئم عشقر باشا من اضطراب الأوضاع في ولايته، وبغية تهدئة الأمور، قرر اتباع منهج حربي جديد في قتال الثائرين، فكلف أحد ضباطه ويدعى أحمد بمهمة مهاجمة المتمردين في غريان وحقق نجاحاً باهراً، إلا أن عبد الجليل وغومه المحمودي فرا كلٌّ باتجاه قبيلته، وبعد فترة تعرض عبد الجليل إلى كمين نُصب له بعد اجتماعه مع القنصل الإنجليزي وارينغتون لمناقشة مسألة إلغاء تجارة الرقيق، وقُتل عبد الجليل ومن معه في هذا الكمين، ويعتقد المؤرخ الفرنسي فورد أن وارينغتون له اليد الطولى بتدبير الكمين، وأن الاجتماع خطط له مسبقاً، والأتراك علموا بموعد الاجتماع، ويؤكد ذلك العلاقة الجيدة القائمة بينهما(١) .

استُدعي الوالي علي عشقر باشا إلى إستانبول في تموز سنة ١٨٤٢م، وخلفه محمد أمين باشا، ويمتاز محمد أمين باشا بحكمته ودهائه، ولهذا عُدت فترة ولايته من أكثر الفترات هدوءاً واستقراراً، وهذا ما ساعده على إنجاز مشاريع عمرانية واقتصادية خلدت اسمه في تاريخ ولاية ليبية الحديث.

انصرف محمد أمين باشا إلى تنظيم أمور الولاية تنظيماً إدارياً جيداً ، فشكل

---

(١) Tevfik Kara sapan s. 145.

الألوية والأقضية والنواحي، ونظم أمور الميرية كل حسب قدرتـه، واستمر تنظيمـه الإداري معمولاً به حتى سنة ١٩١١م.

لمس محمد أمين باشا المآسي التي حلت بالولاية إثر وباءُ الطاعون المدمر الذي أصابها، وتجنياً من تكرار المأسـاة ثانيـة، أقـام مستشـفى وزودهـا بمختلـف صنـوف الأدوية والعقاقير الطبية اللازمة[1] ، كما أنشأ منطقـة سـكنية في منطقـة أبـو نجيـم، وهي خصبة جداً وغنية بمياهها، كانت سابقاً مقراً للصوص وقطاع الطـرق، فـأمر ببناء سبعة وخمسين منزلاً، وأسـكن الأهـالي فيهـا، وزودهـم بـالبذار وأعفـاهم مـن الضرائب لمدة ثلاث سنوات، وأطلق عليها اسم الآثار المجيدية تيمناً بالسـلطان عبـد المجيد[2] .

لم يقتنع محمد أمين باشا بـالتهم الـتي أطلقـت علـى الثـائر غومـه المحمـودي، فاستدعاه بوساطة مصطفى بك قورجى ومنحه الأمان، فَقَدِمَ إليـه غومـه المحمـودي فعظّم الباشا من مقامه ومنحـه لقـب قبوجـي باشـا، وعينـه عضـواً بمجلس الإدارة وأسكنه في طرابلس [3] .

ظل غومه المحمودي مقيماً في طرابلس يمارس حياته العادية بهدوء تـام إلى أن حدث خلاف بينه وبين اللواء أحمد باشا قائد الجيش، وعلى الفور ألقى القبض عليه ونفـاه إلى مدينـة بورصـة التركيـة، فـانتفضت قبيلـة المحـاميد وعمـوم أهـالي الجبـل احتجاجاً على اعتقال زعيمهم.

وفي سنة ١٨٤٦م عزل محمد أمين باشا وعُيِّن مكانه محمد راغب باشا الـذي اصطحب عائلته معه. وكان محمد راغب حكيماً وعادلاً، عمل خلال ولايتـه علـى تطبيق النظام، ولاحق المشاغبين في مناطق الجبل وفـزان، وأسـفر اصطـدام قواتـه في تلك المناطق عن مقتل قائد الجيش اللواء أحمد باشا، فكلف الباشا حملة بقيادة بشـير بك لمهاجمة المتمردين في بلدة ككلة وتدميرها، وفي الجنـوب أعلـن سـعيد بـن عبـد الجليل الثورة على الأتراك انتقاماً لوالده الذي قتل غدراً.

---

(١) طرابلس الغرب سالنامه س سنة ١٣١٢ ص ١٦٢، أحمد النائب ص ٣٥٥.

(٢) طربلس الغرب مسائل مهمة نمرة ٢٠٩٨.

(٣) أحمد النائب : المنهل العذب ص ٣٥٥.

وفي سنة ١٨٤٨م عين الوزير أحمد عزت باشا والياً على البلاد، ويُعَدّ أحمد عزت من أكثر ولاة العهد العثماني عدلاً وحكمة، عمل خلال فترة ولايته على الاهتمام بالناحيتين العمرانية والزراعية، فمنح الفلاحين قروضاً، وخصص للفقراء من الأهالي قسماً معونة سلطانية، حيث جاءه الرد السلطاني بالموافقة على تخصيص معونة سنوية لفقراء الولاية كمكرمة سلطانية له، وحالما وصلت المعونة السلطانية وزعت على العموم بشكل عادل[1] .

أخاف الإحصاء الذي أجراه أحمد عزت الأهالي، فقدموا شكوى إلى السلطان أسفر عنها صدور فرمان سلطاني يقضي بعزله سنة ١٨٥١م وتعيين مصطفى نوري باشا بدلاً منه. عمد مصطفى فور وصوله الولاية إلى ملاحقة مثيري الشغب والفوضى من سكان المنشية والساحل ونفاهم خارج الولاية، كما جمع الأعيان والعلماء وكبار الأهالي وشرح لهم الهدف من الأحصاء الذي أجراه الوزير أحمد عزت باشا. وحضّهم على تفهم الأمور قبل التأفف والاحتجاج، وفي سنة ١٨٥٥م فرَّ غومه المحمودي من منفاه في مدينة بورصة، وما إن وصلت أخبار فراره حتى اشتعلت الثورة من جديد، وشدّد الثائرون الخناق على الحامية التركية في جميع المدن ما عدا طرابلس، فاضطر الوالي إلى إعداد حملة عسكرية لملاحقة زعامة الثوار التي فرت إلى الجبل، وتمكنت الحملة المرسلة من مهاجمة القصر في الجبل واستولت على الأدوات العسكرية الموجودة فيه. وبينما كان الوالي يلاحق غومه المحمودي الذي دخلها سراً والتجأ إلى مناطق قبيلته، جاءه فرمان عزله وتعيين عثمان باشا[2] .

وصل عثمان باشا ولاية طرابلس أواخر ١٨٥٥م، وفور وصوله أعد حملة لملاحقة غومه المحمودي قادها بنفسه، وظل أشهر يلاحقه حتى تمكّن منه وقتله، وفرض الأمن، فاستقرت الحياة وعاد الأهالي لمزاولة حياتهم الاعتيادية[3] .

---

(١) أحمد النائب : المنهل العذب ص ٣٥٥.

(٢) أحمد النائب : المنهل العذب ص ٣٦٣.

(٣) أحمد النائب : المنهل العذب ٣٦٥.

خلفه على الولاية سنة ١٨٥٧م الوزير أحمد عزت باشا للمرة الثانية، وكعادته اهتم بتنظيم الولاية إدارياً وحضّ الأهالي على إرسال أبنائهم إلى المدارس التي أقامها في بعض المدن الرئيسة وبخاصة في مركز الولاية، كما أسس مكاتب الرشدية ودائرة للبريد، واشترى سفينة سماها المولودية من إنجلترا بمبلغ قدره (٤٥٦٠) ليرة إنجليزية ساهم تجار الولاية بشرائها، خُصصت لنقل البريد من طرابلس إلى إستانبول وبالعكس[١] .

تُعدّ الفترة الثانية لولاية الوزير أحمد عزت باشا التي امتدت ثلاث سنوات من أكثر الفترات هدوءاً واستقراراً، فخلالها توافد التجار الأوربيون إلى الولاية، فغمرت بضائعهم الأسواق المحلية ووجدت بعض القبائل البدوية مصدراً لتشغيل أبلها في نقل التجار الأوربيين وبضائعهم إلى المناطق الداخلية وبخاصة السودان. وفي سنة ١٨٦٠م عين الوزير محمود نديم باشا، ويصفه صاحب المنهل العذب بصاحب العقل السديد والرأي الصائب ومن ذوي الهمة العالية، لأنه أدرك منذ الوهلة الأولى أن الولاية تعاني فقراً شديداً سببه الفوضى التي أعاقت حركة التطور العلمي والاقتصادي، كما أن الأهالي مسالمون وغير ميالين إلى اتباع أعمال الشغب، وأن المحافظة على الطابع البدوي وجفاف أراضيهم ولدّت فيهم الكسل فاقتنعوا بأدنى مستوى للمعيشة، فانصرف إلى تعميرها زراعياً، وأحضر غرس الزيتون وقدّمها للأهالي مجاناً، كما خصّ مناطق ترهونة بأكثر من ألف غرسة زيتون أحضرها لهم من ولاية تونس، وبنى قصراً للحكومة في ناحية العزيزية وزوارة، وأقام مطبعة في قصر الحكومة في طرابلس لطبع الأخبار والكتب المدرسية، وسمى المجلة التي أعدّتها المطبعة (طرابلس الغرب) كما استحصل من إستانبول على فرمان يقضي بتحويل الإيالة إلى ولاية، فعم الفرح مختلف المدن، وباشر بتوزيع الوظائف على المتعلمين من الأهالي، ونظم مجالس الجنايات والحقوق والتجارة[٢] .

---

(١) أرشيف رئاسة الوزراء . تصميف إرادة داخلية رقم ١٩٠٥٢ لف رقم ٧.

(٢) طرابلس الغرب، سالنامه س سنة ١٣١٢ ص ٦٣-١٦٤ص. أحمد النائب: المنهل العذب ص ٣٨٤.

حظيت الولاية خلال فترة التنظيمات الخيرية بتطوير أمور إدارية كانت سابقاً محرومة منها، وغدت الولاية بنظمها الإدارية المستحدثة ولاية ممتازة، وزُودت بجهاز قضائي كبير، ساعد الولاة على إقامة محاكم في بعض المدن الرئيسة، وفي الفترة الواقعة من ١٨٦٤-١٨٨٢م عين عليها ما يزيد على اثني عشر والياً، تميزت فترتهم بقصرها ومنهم منْ عُين لمرتين، ويُعدّ المشير علي رضا باشا من أبرزهم نشاطاً، اهتم بالزراعة وقدم للفلاحين قروضاً وخفّف عليهم الضرائب، وسهّل لهم وسيلة لبيعها في تونس أو غيرها، كما اهتم بالصناعة وأمّن للصناعات الحرفية المحلية الآلات اللازمة لها، وشق الطرق، ونظم البريد بين مختلف المدن، ومدّد خطوط البريد والتلغراف براً[1] ، وأقام سوق العزيزية وأعفى بضائعه من الضرائب، وأقام (موقتخانه) وفوقها ساعة كبيرة ذات ناقوس ضخم يُسمع صوتها لمسافة عدة أميال مع بناء مسجد ضخم بالقرب من دار الحكومة[2] .

تزامن اهتمام الولاة العثمانيين مع تزايد النفوذ الأوربي بممالك الدولة العثمانية عامة وولايات الشمال الإفريقي خاصة، ولمس الأهالي الخطر الأوربي بعد التحرشات الفرنسية بتونس واستعدادها فعلياً لاحتلالها مدعية قيام قبائل خمير بالاعتداء على الحدود الجزائرية، وإرغام الباي على توقيع معاهدة بارود، بعد دخول قوات فرنسا الأراضي التونسية وتوجهها لمحاصرة قصره، فازدادت مخاوف الليبيين من احتلال فرنسا لتونس، فطالبوا البابا العالي بمساعدة تونس في محنتها، وكلفوا شيخ البلد ورئيس البلدية أحمد النائب السفر إلى تونس تعبيراً عن تضامنهم مع إخوتهم التونسيين[3] .

إثر الاحتلال الفرنسي لتونس سنة ١٨٨١م، كلفت الدولة العثمانية الوالي أحمد راسم باشا بتولي إدارة ولاية ليبية وعهدت إليه مهمة حمايتها من الخطر

---

(١) أرشيف رئاسة الوزراء تصنيف إرادة داخلية. وثيقة رقم ٩٤٤٠٧ لف ٣.

(٢) أحمد النائب: المنهل العذب ص ٣٨٧.

(٣) لم يذكر لنا أحمد النائب الأسباب الحقيقية لسفره إلى تونس، وما هي النتائج التي توصل إليها وهل سمحت له السلطات الفرنسية بالاجتماع مع وجهاء تونس؟.

الأوربي المحدق بها، ومنحته صلاحيات مطلقة، وواقع الأمر أن الـوالي أحمـد راسـم باشا كان أهلاً للمسؤولية المنّاطة به.

عمل خلال ولايته الـتي استمرت اثنـتي عشـرة سـنة علـى تحقيـق وعٍ ثقـافي وقومي في ولاية ليبية، تصدى بحزم للإيطاليين الراغبين باستحواذها، وذرّب الأهـالي على السلاح، وأقام لهم حملات توعيـة، وافتتـح سـتاً وثلاثـين مدرسـة، كمـا أنشـأ المدارس الصناعيـة لتعليـم الأيتـام المهـن المختلفـة، سـاهم بحـل مشـكلة الحـدود مـع جيرانه، وحذّر القبائل القاطنة من التعدي وتجاوز الحدود الفرنسـية لكـي لاتتخذهـا فرنسة ذريعة للتدخل، ووجّه اهتمامهم لممارسة الزراعة وزوّدهم بـالبذار المناسـب، وأنشأ في الأراضي التي لم تزرع مزارع، سُميت (سواني راسم باشا)[1] . أدخل إلى ليبية زراعة أشجار القهوة وأقام القصور في الأقضية والنواحي، كما أقام الفنادق في المدن وحفر الآبار الإرتوازية وزودها بالآلات البخاريـة الحديثـة وشـجع تربيـة دود القز وأمّن لهم غرس أشجار التوت، وبنـى الأسـواق التجاريـة وأفسـح المجـال لكـل راغب بممارستها ويعد سوق الأربعاء وسوق الحميدية من أهم الأسـواق وأشـهرها نشاطاً وفعالية، كما أحضر لمدينة طرابلس المياه العذبة من بئر أبو مليانه، وفي عهـده بُنيت مستشفى الغرباء، وأصلـح مطبعـة الولايـة وأكمـل لوازمهـا، وأحـدث غرفـة تجارية ليبية ومنع تجارة الرقيق، وضرب بشدة على تُجّارها ورفع الحمايـة الأجنبيـة، حذر الأهالي من التعامل مع الأجانب وبيع أملاكهم أو الاستقراض من بنـك رومـا ومنع ضباطه من إرسال أولادهـم إلى المدارس الأجنبية لتعليم أبنائهم فيها، وفي سـنة ١٨٩٣م استدعاه السلطان عبـد الحميـد الثـاني إلى إستانبول، وبعـد وصولـه إليهـا بأشهر أرسل رسالة إلى سكان ولاية ليبية يطمأنهم فيها عن صحته، ويحضّهم علـى مقاومة الأجانب، وفي سنة ١٨٩٧م، علم الليبيـون بوفـاة الـوالي أحمـد راسـم باشـا فبكاه الجميع بكاءً مُراً[2] .

---

(١) طرابلس الغرب، سالنامه س سنة ١٣١٢ ص ٣٠٨.

(٢) للمزيد من أعمال أحمد راسم باشا، هناك رسالة دكتوراه بعنوان (ولاية أحمد راسم باشا) قام بإعدادها باحث عربي من القطر الليبي.

في سنة ١٨٩٨م، كُلف نامق باشا بإدارة الولاية، وسار على نهج أحمد راسم باشا من ناحية توعية الأهالي وتشجيعهم على طلب العلم، وتدريبهم على السلاح، وقام بجولة إلى الحدود الليبية التونسية، وسعى لحل الخلاف الحدودي الذي عاد للظهور ثانية، اتصل بزعماء الحركة السنوسية،وأفسح لهم المجال لإقامة زواياهم في مناطق طرابلس الغرب وغيرها من المناطق الأخرى، كما اهتم بالطباعة وأسس جريدة الترقي، ما استكمل إيصال المياه العذبة إلى مدينة طرابلس حيث جرّها إليها من عين زارة.[1]

تلقى نامق باشا خلال ولايته،تقدير السلطان عبد الحميد الثاني، وقلّده رتبة الوزارة السامية في منشور عالٍ سلطاني، صدر بتاريخ ١٤ ربيع الأول سنة ١٣١٥هـ/آب ١٨٩٨م، خلفه في إدارة الولاية هاشم باشا صهر السلطان عبد الحميد الثاني، ولم يقم هذا بأي عمل يستحق الذكر والثناء وجل مافعله جمع الأموال وراقب معارضي السلطان عبد الحميد الذين أرسلوا إلى الولاية نفياً لهم، وبعد بقائه لمدة سنتين، خلفه سنة ١٩٠٠ الوالي حافظ باشا، ويُعد من جملة الولاة الذين خدموا الولاية بإخلاص حيث اقتدى بالوالي أحمد راسم باشا في تنظيم الأمور، كما أجرى إحصاء سكانياً للنفوس وفرض ضرائب خصصها لتحسين الولاية، وجرد القولوغلية من الامتيازات التي تتمتع بها منذ زمن طويل، وروضّهم للنظام وحينما رفعوا عصا الطاعة ضربهم بشدة بغية اقتلاعهم من الولاية بوصفهم عنصر شغب وفوضى، وأراح المواطنين من تجاوزاتهم سنة ١٩٠٢م.

أنشأ حافظ باشا فرعاً لبنك الزراعة مهمته مد المزارعين بالقروض بدلاً من استدانتهم من بنك روما، وحينما لمس تزايد النفوذ الإيطالي الصريح بشؤون الولاية ومضايقته، طلب من الأهالي تشكيل وفد رسمي للذهاب إلى إستانبول بحجة تجديد الولاء للسلطان، ورفضهم التدخل الأجنبي بشؤون بلادهم طالبين منه اتخاذ خطوة إيجابية وفعّالة حيال ذلك[2] .

(١) أرشيف رئاسة الوزراء. تصنيف إرادة داخلية رقم ١٠٨١٠.

(٢) أحمد صدقي الدجاني: ليبية قبيل الاحتلال الإيطالي طرابلس ١٩٧١ ص ١٦٠.

اهتم الوالي بالتعليم، فأسس المدارس الإبتدائية ودار معلمين للنبات، وعاقب الضباط الذين يرسلون أبناءهم إلى المدارس الأجنبية، وتعاون مع الفريق رجب باشا الذي تولى القيادة العسكرية وحضّه على فرض التدريب على كل مواطن قادر. خلفه في إدارة الولاية حسن حسني باشا، وكان هذا مريضاً ذهب بعد عدة أشهر من وصوله إلى مالطة للمعالجة، فاستغل الإيطاليون فترة معالجته فزادوا من تدخلهم، وفي سنة ١٩٠٤م كُلف رجب باشا رسمياً بالإدارة وكان الفريق رجب باشا على إطلاع كامل بأمور ولايته، تشجع خلال توليته رسمياً على فرض التدريب الإجباري على السلاح، وطلب من إستانبول تزويد الولاية بالسلاح والذخيرة، لأنها بحاجة ماسة إليه.

قاوم رجب باشا بقوة التغلغل الإيطالي، وقام بتوعية المواطنين، فنشر التعليم، وافتتح المدارس المهنية لتدريب الفتيات على أعمال الخياطة والتطريز والعزف على البيانو، وأنشأ سوقاً تجارياً سماه سوق المشير، كما افتتح في مدينة الخمس مشفى للأهالي وجهّزه بمختلف الأجهزة الأولية والأدوية الضرورية، وبعد الانقلاب الحميدي استدعي إلى إستانبول وعهد إليه منصب وزير الحربية، خلفه في سنة ١٩٠٨م أحمد فوزي الذي سلك نهج رجب في مقاومة التدخل الإيطالي، وطالب رسمياً بإغلاق بنك روما، كما أنار مدينة طرابلس بالكهرباء وفي عهده دخلت السيارة إلى الولاية[1] .

تضايق الإيطاليون من تصرفاته تجاههم، فاستخدموا نفوذهم لدى إستانبول لعزله وطالبوا بتبديله، فاستدعي إلى إستانبول وعين مكانه حسن حسني باشا وهو غير الوالي الذي تولى سنة ١٩٠٢م، ويصفه أحمد صدقي الدجاني بأن حسن حسني تركي الجنسية إيطالي الروح والعقل.

وخلال ولايته ازداد النفوذ الإيطالي، وأبعد كل شخص معادٍ لهم، فتصرف الإيطاليون بالولاية وكأنهم حكامها الحقيقيون[2] .

---

(١) أحمد صدقي الدجاني: ليبية قبيل الاحتلال الإيطالي ص ١٦١.

(٢) المرجع السابق ص ١٦١.

ضجّ السكان من تصرفاته ومواقفه المعادية لهم، فعزل سنة ١٩١٠م وعين مكانه إبراهيم أدهم باشا، وكان إبراهيم أدهم باشا يشغل قبل ترقيته إلى رتبة وال منصب قائد القوات العسكرية في الولاية، عُرف عنه النزاهة والإخلاص، لكنّه كُلف بالإدارة في وقت غير لائق به، فعجز عن إيقاف المصير المدروس الذي ينتظر الولاية وتصدى علانية للإيطاليين وهددهم باللجوء إلى السلاح إذا استمروا في تدخلهم. وجّه رسائل عدة إلى إستانبول يطالب فيه حكومة الاتحاديين بتزويد الولاية بالسلاح والمدربين العسكريين، أقام معملاً لصناعة السلاح والذخيرة، وعدّه الإيطاليون عدوهم الأكبر، لذلك سعوا إلى عزله، وكان رئيس وزراء الاتحاديين حقي باشا المتزوج من إيطالية يكره إبراهيم ويحقد عليه لمواقفه تجاه الإيطاليين[1]، فأصدر فرماناً باسم السلطان يقضي بعزله دون بديل له، فاضطر إبراهيم أدهم باشا إلى إسناد إدارة البلاد بالوكالة إلى الدفتر دار نسيم بك، وبعد سفر إبراهيم باشا بخمسة عشر يوماً قَدِمَت سفن حربية إيطالية إلى ميناء طرابلس وفرضت حصاراً على المدينة إيذاناً باحتلالها عسكرياً.

لم يكن إبراهيم باشا آخر الولاة العثمانيين، فقد عين نشأت بك والياً عليها أثناء ضرب إيطاليا للمدن الساحلية الليبية، وجاءه فرمان التولية عن طريق تونس، لكنّ الولاية احتُلت من قبل الإيطاليين وسقطت مدينة طرابلس في السابع والعشرين من شهر أيلول سنة ١٩١١.

وفي سنة ١٩١٢م أُبرم الصلح بين تركيا وإيطاليا، واعترفت تركيا رسمياً بموجب معاهدة أوشي (لوزان) بالحماية الإيطالية على ليبية، وبخروج الأتراك منها، خرج الشمال الإفريقي بكامل أقطاره من السيطرة العثمانية التي استمرت من ١٥٥١-١٩١١م، تحمّل الشعب العربي مسؤولية التصدي للغزو الأجنبي، في حين تجلى الرد العثماني باحتجاج أفلاطوني لايسمن ولايغني من جوع .

---

(١) مهمة دفتري نمره : ١٢٧ ص ٣٤.

٢ – الإدارة العثمانية في ليبية :

كانت سياسة الإدراة العثمانية وطريقتها خلال المرحلة الثانية (العهد الثـاني) موضوع نقاش حادٍ ما بين مؤيد لها ومعادٍ، وعلى أي حال فإن الكثير مـن الكتّـاب والمؤلفين يعترفون بأن العثمانيين حازوا خلال الفترة الثانية مـن إدارتهم ليبيـة علـى اعتراف القوى الأوربية بتلك الإدارة و لم يحاولوا فقط تأسيس نظـام حكومـة محليـة متطورة تدريجياً، بل سعوا جاهدين لتطوير الأوضاع الاقتصادية للولايـة وبـرز هـذا بصورة واضحة في عهد عدد من الولاة من أمثـال أحمد عـزت باشـا وراسـم باشـا ونامق باشا ورجب باشا.

إن صراعـات الجنـد علـى سـاحتها خـلال المراحـل السـابقة، أوقـع حكومـة الباشـوات ١٨٣٥ – ١٩١١م في مستنقع إقنـاع الأهـالي، وصـرف معظـم ولاتهـا لمعالجة الثورات التي تـولى قيادتهـا زعامـة قبليـة، وسـعيهم لتهدئـة السـكان الذيـن تعاطفوا مع الثورات وقادتها حيناً ومع الولاة الأتراك وإدارتهم حيناً آخر.

وبالنتيجة: فقد استمر العمل بنظام الحكومة المعتمد من قبل الأسرة القرمانلية، وقسمت ليبية إلى ثلاثة أقاليم، يُحكم كل إقليم أفراد من العائلة القرمانلية مع وجود مقاعد إقليمية في كل من طرابلس ومصراتـه وبنغـازي، وقُسـمت هـذه الأقـاليم إلى مقاطعات عرفت باسم (القائدية) لكل منها رئيس يلقب بـ (القائد)، وكانت جميـع السلطات بأيديهم ماعدا السلطة القضائية، وعولجت الأمور القضائية من قبل قضـاة طبقوا القانون المستمد من القرآن الكريم.

أ – التقسيمات الإدارية:

قُسـمت ليبيـة في سـنة ١٨٤٣م إلى إقليمـين متمـيزين همـا: ولايـة طرابلـس ومتصرفية بنغازي وتعاملت متصرفية بنغازي مع حلومة إستانبول مباشرة في أمورها كافة، ماعدا الأمور العسكرية والبريدية والرسوم الجمركيـة والقانونيـة الـتي كلفـت السلطات العليا في طرابلس بالإشراف عليها بحدود محددة[1] .

(١) مهمة دفتري نمره : ٣٦ ص ٣٧.

حمل حكام طرابلس وقورنية ألقاباً مثل (الوالي) و (المتصرف)، والأخير يأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد الوالي، أما الوالي فيساعده مجلس استشاري (مجلس إدارة) مؤلف من: رئيس القضاة والمفتي، والمكتبجي (رئيس الأمناء) والدفتر دار (رئيس المالية)، وستة قناصل غير مأجورين ينتخبون كل سنتين من قبل سكان الولاية، ويتعامل المجلس الاستشاري مع القضايا المالية والقانونية والمدينة.

قسمت ولاية طرابلس إلى أربع متصرفيات أو ضاحق هي: طرابلس - الخمس - الجبل الغربي (مركز يفرن) - فزان (مركز مرزوق)، وقسمت كل متصرفية إلى نواحٍ والنواحي إلى مراكزٍ، ويسمى رؤساء المتصرفيات (المتصرفين)، وكان قائموا المقام رؤساء للقائمقامية، ورؤساء للنواحي.

ضمنت متصرفية طرابلس عدة قائمقاميات هي: طرابلس - الزاوية - العجيلات - زوراة - الساحل - المنشية - علوانة - شيميك - مزوه، وبلغ عدد سكانها ٢٧٥,٠٠٠ نسمة تقريباً.

وضمنت متصرفية الخمس عدة قائمقاميات هي: الخمس - مصلاته (مسلاته) - بمقعد في القصيبات - زليطن - مصراته - سرت وناحية تاورغه، وبلغ عدد سكانها ١٣٠,٠٠٠ نسمة.

وضمنت متصرفية الجبل الغربي قائمقاميات: يفرن - فساطو - الهود - الجوش - نالوت وغدامس مع عدة نواحٍ هي: سابا - زينتان - ككلا - مسدا، وبلغ عدد سكانها ١٠٠,٠٠٠ نسمة.

أما متصرفية فزان ومركزها مرزوق فضمت القائمقاميات التالية: الشيانة - سوكنه - غات ونواحي: صيحة - الجفرة الشرقية - وادي الغرب - وادي عتبه - وادي ظلله[1] - فرطون - سبها - هو - ودان، وبلغ عدد سكانها ٧٠,٠٠٠ نسمة.

وبالرجوع إلى الوثائق العثمانية التي مدتنا بتلك التقسيمات يكون العدد الإجمالي لسكان ولاية طرابلس ٥٧٥,٠٠٠ نسمة.

---

(١) وردت في معظم المصادر وادي زلة.

أما متصرفية بنغازي فضمت ثلاث قائمقاميات: درنه - المرج - جالو، وأضيفت إليها غيجاب وطبرق، وفي سنة ١٩١٠م أسست قائمقامية إضافية هي الجغبوب، ومن النواحي التي اتُبعت إليها: سلوق - قمينس - إجدابية - توكرا - برسيس - عبيد - سيرا - سلنط، وكانت نواحي موسى بردي تحت سلطة لواء قائمقامية طبرق، ونواحي قبائل زوايا ومغاربة تابعة للواء قائمقامية جالو، وبلغ عدد سكانها الإجمالي ٢٣٠,٠٠٠ نسمة تقريباً.

أما ديوان الإياله فمهمته مساعدة أمير الأمراء في الإدارة، وطرأت عليه متغييرات تناسبت ومرحلة التنظيمات الخيرية ووزعت مهماته على النحو التالي:

١- **البكلربكي**: وهو يترأس إدارة الولاية قبل التنظيمات وبعدها، ويعيّن من قبل السلطان.

٢- **البك**: ويتولى قيادة القوات العسكرية، وكان قبل التنظيمات يلقب بآغا الإنكشارية.

٣- **القاضي**: ومهمته الفصل في الأمور القضائية، ويعين من قبل إستانبول ويعين غالباً لمدة سنتين[1] .

٤- **دفتردار**: وكان سابقاً يعرف بمسؤول بيت المال، وفيما بعد عرف بالدفتردار.

طبقت الدولة العثمانية نظام (السالياناات) أي المعاشات، ولم تتمكن من تطبيق نظام الإقطاعي الأرضي، ووجدت فيها أملاك وقف وأراضٍ أميرية.

أملاك الوقف: خصص ريعها للأملاك الخيرية، كبناء المساجد ودور الحديث وتعليم القرآن، وقسمت أملاك الوقف إلى قسمين: وقف خيري: وهي أملاك يحدد ريعها للأعمال الخيرية مثال أملاك مراد آغا.

وقف ذري: وهي أملاك يحدد ريعها لذرية مالكها، كأملاك الريس طرغوت باشا.

أما الأراضي الأميرية ، فخصصت مواردها لخزانة الدولة ، وكانت الأراضي

---

(١) انظر أناضول دفتري نمره : ٣٣.

الأميرية في ولاية ليبية قليلة جداً، لذلك عمدت الدولة العثمانية إلى تحويل ممتلكات الولاية إلى أراضٍ أميرية[1].

ب – النظام المالي :

خلافاً لما يمكن افتراضه، فإن الحكومة العثمانية لم تستطع خلال سيطرتها الثانية على ليبية مواجهة نفقات الإدارة المدنية والعسكرية للإقليم من الدخل المحلي المرتفع، بل استطاعت أن تحول مبلغاً سنوياً لابأس به من الدخل الزائد إلى الباب العالي.

يدرج الدخل المالي لولاية طرابلس ومتصرفية بنغازي تحت ثلاث فئات هي:

- ريع جُمع من إقليمي طرابلس الغرب وبنغازي وسخر لدفع نفقات الإدارة.
- ريع جمع لمصالح الحكومة العثمانية، ويحول لها مباشرة.
- ريع جمع للمؤسسات المحلية المستقلة ذاتياً وغير الحكومية.

أما الضرائب المفروضة والعوائد المدرجة تحت الفئة الأولى فنظمت على النحو الآتي:

ضريبة (الوركو)[2] وهي ضريبة شخصية تتضمن: ضريبة شخصية مقدارها ٤٠ قرشاً على الذكور البالغين وضريبة على الحيوان مقدارها (٤٠) قرشاً عن كل جمل و(٢٠) قرشاً عن كل ثور أو بقرة، و(٤) قروش عن كل رأس غنم، وقرشان عن كل رأس ماعز، أما ضريبة الشجرة فمقدارها قرش ونصف عن كل شجرة نخيل أو زيتون، أما باقي أشجار الفاكهة فأعفيت من الضرائب لندرتها، ولأن ولاة ليبية سعوا جاهدين إلى تشجيع الأهالي لزراعتها، وهناك ضريبة مقدارها (١٥) قرشاً عن كل بئر يستخدم لري الأرض.

يفترض استبدال ضريبة الوركو بضريبة التمتع وذلك عقب الإصلاح المالي لسنة ١٩٠٣، إلا أنه لم يطبق لأسباب غير معروفة.

---

(١) مهمة دفتري نمره: ٣-٤ ص ٢١٠.

(٢) الوركو كلمة تركية الأصل (Vergi) ومعناها ضريبة.

فرض العثمانيون على الولايات التي خضعت لسلطانهم كماً هائلاً من الضرائب، ولكنهم فرضوا ضرائب متفاوتة مابين ولاية وولاية، كما تنوعت ضرائبهم طبقاً للولاية وإنتاجها الزراعي وثروتها الحيوانية، أما فيما يتعلق بالمزروعات فحددوا ضريبتها بالعشر، وكانت الضرائب تزداد قيمتها حسب الموقف الاقتصادي والعجز المالي للخزينة العامة. فضريبة الأشجار كانت نقدية وبمعدل مجيدي لكل قنطار من الثمار، رفع المبلغ إلى أربع مجيديات سنة ١٩١٠م، أما ضريبة العشر المفروضة على نبات الحلفا (عشب إسبارطي) فكانت تجمع عن طريق الالتزام، وتحمّل زارعوها مظالم كثيرة، لأن الالتزام كان يتم من خلال المزاد العلني، وعندما لايُحقق المزاد الحد الأعلى، فإن الدولة تلجأ إلى جمعها بنفسها بمعدل ٥٠ بارة عن كل قنطار.

أما ضريبة الإعفاء من الخدمة العسكرية، فقد فرضت بشكل رئيس على رعاياها من غير المسلمين، وألزمتهم الدولة بدفعها باسم (بدالة عسكرية)، وواقع الأمر فإن هذه الضريبة جمعت من اليهود فقط وعبر طائفتهم، واستمر الأمر حتى سنة ١٦٦٤م بعد تخلص غالبية عظمى منها باعتناقهم الدين الإسلامي وتسموا باسم يهود الدوغة، وعلى الرغم من محاولة اليهود التحايل على سلاطين آل عثمان، فقد احتج اليهود بشدة على هذه الضريبة، وكان مقدارها (٣٠) قرشاً عن الشخص الواحد شريطة أن يكون غير قادر على حمل السلاح.

وهناك ضريبة الاختبار وختم المصاغات، وكانت بمعدل /١٦/ بارة عن كل أوقية فضة، و/١٦/ بارة[1] عن كل مثقال ذهب، أما رسوم أوزان المصاغ فتقدر بثمان بارات عن كل أوقية فضة أو مثقال ذهب، وكان الشخص المُختَبِرْ والمحصل لهذه الضريبة يلقب باسم الأمين.

وهناك رسوم تسجيل بيع الممتلكات، فكانت عبارة عن صكوك نقل ملكية المتاع، يشرف عليها القاضي حتى سنة ١٩٠٣م، حيث صدر مرسوم يلزم الجميع

---

(١) البارة: تساوي خمس مليم، أي أن كل خمس بارات تعادل مليماً واحداً تقريباً.

بكتابة الصكوك من قبل كاتب العدل، وأن تُسجل في دفتر الحقانية (السجل العدلي) والأجرة المستحقة ١,٥٪ من قيمة الملكية.

فرضت ضريبة ملكية المباني والأرض على المباني والأراضي التي تؤجر للمقيمين من الرعايا الأجانب وهي على النحو الآتي:

١٠٪ على الملكية المؤجرة (بناء أو أرض)

٨ ٪ على الملكية المستخدمة من قبل مالكها شخصياً، إذا قُدر دخله بأقل من ٢٠,٠٠٠ قرش و٥٪ إذا كان دخله أكثر من ٢٠,٠٠٠ قرش.

أما الضريبة الإضافية فتفرض علىّ المذكور أعلاه لصالح دائرة الإرشاد العام ومقدارها ٥٪، كما أضيفت ضريبة أخرى على الضريبة الإضافية لصالح قائد الإمداد والتموين في الجيش مقدارها ٦٪ من الضريبة الإضافية.

- ضريبة إضافية على الضريبة المذكورة أعلاه لصالح دائرة التسجيل مقدارها ١٠٪ من الضريبة الإضافية.
- ضريبة دخل أو (تمتع) مقدارها ٣٪ من الدخل أو من ربح التجار وأصحاب المحلات ورجال التجارة الوطنية، ولم تفرض هذه الضريبة على الأجانب المقيمين.
- ربح متنوع ويتضمن ضريبة على استخلاص عصير النخيل والمقدرة سابقاً بـ ١٢٠ قرشاً لكل شجرة، ثم رُفعت إلى ١٥٠٠ قرشاً سنة ١٩٠٠م وثلاثون قرشاً إضافية للمساهمة في تحسين وتطوير مدرسة الفنون والحرب في طرابلس.
- ضريبة الصودا (نترون) المستخرجة من رسوبيات مابين السخنة ومرزوق في فزان، واستخدم هذا المعدن في مزج العطيس (النشوق) والتبغ المصنع، كما تشكل أجور الممتلكات الحكومية المستحصلة جزءاً من هذه الفئة من الريع.
- ضريبة الإسهام: وضعت بشكل مؤقت سنة ١٨٩٧م كمساهمة في النفقات الحربية ضد اليونان، وفيما بعد ثبتت بمقدار ٦٪ من ضريبة الوركو وضريبة الممتلكات.

وهناك ضرائب كثيرة من الفئة الثانية وتجمع لصالح إستانبول من أهمها:

١- الرسوم الجمركية مقدارها ١٥٠,٠٠٠ ليرة تركية من مباني جمارك طرابلس وبنغازي.

٢- رسوم المناقصة مقدارها ٩١,٥٠٠ ليرة لكل الولاية.

٣- رسوم الميناء ريعها السنوي ٢٠,٠٠٠ ليرة تركية.

٤- رسوم دائرة الحجر الصحي.

٥- رسوم إدارة حصر التبغ.

٦- رسوم الملح.

٧- رسوم الحرير ورسوم الطوابع والمشروبات الكحولية.

جـ - النظام القضائي :

تم بعد سنة ١٨٣٥ إدخال نظام التشريع التركي تدريجياً إلى ولاية ليبية، وفي سنة ١٨٦٩ طبقت آلية القضاء العثماني.

إن تطبيق القانون العثماني على كامل ولاية ليبية كان اسمياً، وتم تطبيقه على المناطق الساحلية المعتمدة للنظام العرفي المعمول به من قبل القبائل البدوية، وإذا كان الأتراك قد توصلوا خلال حملاتهم التأديبية إلى الداخل وحاولوا فرض النظام القضائي، فإن القبائل البدوية عارضت قوانينهم بشدة، ورفضت التعامل بها، لأن ذلك عُدَ تدخلاً في شؤونهم الداخلية ومحاولة عثمانية لانتزاع تلك العادات والتقاليد التي تربوا عليها، وكان النظام القضائي العثماني مشكلاً على النحو الآتي:

أقيم إلى جانب المحاكم الشرعية التي تطبق القانون الديني فقط عدالة ممثلة بالمحاكم التالية والمعروفة باسم نظامية:

١- محكمة الصلح (محكمة السلام)، اختصاصها القرى والنواحي وقضاتها قضاة صلح.

٢- محكمة بدائية. وهي محكمة الدرجة الأولى.

٣- محكمة الجنايات. المحكمة الدورية.

٤- محكمة استئناف.

٥- محكمة التمييز، ومقرها إستانبول.

كانت المحكمة البدائية في الضاحق تضم رئيساً وأربعة قضاة، وفي مدينة طرابلس تضم رئيسين وستة قضاة، منهم اثنان إضافيان وأحد الرئيسين وقاضيان يؤلفان القضاء المدني، ويتألف القضاء الجنائي من رئيس وقاضيين.

وتتألف المحكمة في كل ضحق من قاضي تحقيق وقاضي تنفيذ، في حين خصص لمدينة طرابلس قاضيان للتحقيق.

١ - محكمة الاستئناف:

مقرها مدينة طرابلس، اختصاصاتها ولاية طرابلس ومتصرفية بنغازي، وتتألف من ثلاثة أقسام: قضاء مدني، قضاء جنائي، قضاء اتهامي، وتتألف من رئيسين وعشرة قضاة اثنان منهم إضافيان.

٢ - المحكمة التجارية:

مقرها مدينة طرابلس الغرب، ومجال اختصاصها ولاية طرابلس والأقضية التابعة لها، كما أقيم في بنغازي محكمة تجارية، لكنها لا تملك مسألة البت في القضايا الكبرى، وتتألف المحكمة التجارية من رئيس وقاضيين، ويلحق بها قاضيان أجنبيان للنظر والمشاركة في الأمور التي تتعلق بالرعايا المسيحيين.

٣- محكمة النقض:

وهي آخر المحاكم التي يلجأ إليها المتخاصمون في الأحكام الجنائية والمدنية ومقرها إستانبول.

ونظراً لكثرة الأوربيين الذين قدموا إلى الولاية، استقروا فيها لممارسة الأعمال التجارية وماشابهها من قيام منازعات مابين الأوربيين وأنفسهم ومابين الأوربيين والليبيين، وضعت لها الدولة العثمانية أسساً وأنظمة لتسوية مثل تلك المنازعات وذلك على النحو الآتي:

١- تحال القضايا المدنية والجنائية والتجارية التي تقع بين الأوربيين ورعايا الدولة العثمانية إلى المحاكم المختصة، ويخول الأوربي أحقية الاستعانة بموظف رسمي من القناصل كمترجم.

كان يوجد في مدينة طرابلس مدعٍ عام يسمى (مدعي عمومي) يحتفظ بالمكاتبات والدرجات، وأن كل القضاة والأشخاص القانونيين يرسلون إلى إستانبول.

تتعامل محاكم الشرعية مع المسائل الآتية: مسائل الزواج، الطلاق، نفقة الزوجة المطلقة، رعاية الأطفال، الانفصال، تقسيم الملكية وعامة المسائل المتعلقة بما شابه ذلك، لأن القانون الديني ساري المفعول ومطبق، وكان رؤساء المحاكم الشرعية ونوابهم معروفين كنواب، أما مرشد القضاة فهو المفتي، كذلك فقد عَين القضاة مرشدين للأطفال المسلمين والناشئين والعاجزين والمرضى ومشرفين على إدارة الأوقاف.

والنقطة المهمة الامتيازات الممنوحة للأجانب المقيمين في ليبية، فالقضايا المدنية والتجارية والمسائل الجزائية بين رعايا الأجانب والأجانب من جنسية واحدة كانوا يتعاملون علانية مع محاكم قنصيلاتهم، أما الدعاوى القضائية بين رعايا الأجانب من جنسيات مختلفة، فكانت المحاكم العثمانية تفصل فيها، ويقدم للأجانب ترجمان من قبل قنصليته، كذلك فقد وجد محاكم ربانية مهمتها التعامل مع اليهود ومعالجة كافة مسائلهم الشخصية والدينية.

الأحوال الشخصية للمسلمين واليهود(*)

لكي نعطي صورة أفضل عن حالة سكان ليبية بقصد التعرف عن بعض الجوانب المهمة من أحوال الولاية، إن بعضاً من قوانينهم وعاداتهم واصطلاحاتهم يمكن استعراضها في هذا الفصل.

إن هذه العادات والتقاليد منحت الشعب الليبي شخصيته ومميزاته التي كان على الأتراك تأكيدها والتعامل معها بما يتلاءم وتلك الشخصية وما تمتلكه من أصالة عريقة عربية المضمون والمحتوى إسلامية التكوين والنشأة، أثرت بالوافدين إليها من أتراك وأوربيين.

يُعدّ الزواج من أكثر المؤسسات التي أثرت بالمركز الشخصي للمسلمين، فمن خلاله يمكن استخلاص بعض من القوانين المتعلقة بالتوارث الأسري، فالقانون الإسلامي يعد الزواج من واحدة فقط هو الشكل الأمثل للزواج وطبقاً لذلك فإن ميزة الرجال تنحصر أولاً بإمكانية الزواج بأكثر من زوجة ولكن الأكثر من أربع زوجات في فترة زمنية محددة. ويشترط أن تعامل الزوجات بالتساوي وبالعدل والمساواة، فالزواج يُعد كشكل من العقد غالباً وليس كشراء أو مسألة شراء الزوج للزوجة، وكلا الفريقين أو ممثلوهما يبلّغون الإمام والمختار عن موطنهم والزواج المزمع عقده ومبلغ المهر الذي وافق العريس على دفعه، ويكتب العقد من قبل القاضي، والقانون يفرض أحياناً بعض العوائق على هذه العلاقة، وعلى خلفيات أخرى، وشرعياً فللعروس دوماً الحق في المهر، إذا لم يحدد ذلك في عقد الزواج، ولهاحق المطالبة به وتثبيته طبقاً للعادة المتبعة، ونحن نعلم جيداً أن العرف أقوى من القانون ولاسيما في المناطق التي يسود فيها النظام البدوي.

(*) أخذ هذا الفصل من كتاب ليبية للمؤرخ التركي مصطفى أوزجان.

ويمكن أن يفسخ الزواج لدى حدوث خلاف جوهري وقانوني يؤيده العرف ويحميه القانون ويصونه، وفي الوقت نفسه يمكن تنفيذ الطلاق، وغالباً الطلاق يأتي أو يصدر في أغلب الأحيان من طرف الزوج.

إن الطلاق والزواج من جديد بشكل مستمر لكلا الفريقين يتطلبان العودة إلى قوانين شرعية لتأسيس الشرعية وأبوة الأطفال.

يُعدّ الطفل شرعياً إذا حدثت الولادة بعد الشهر السادس من بدء الزواج، وإذا ولد طفل قبل ستة أشهر، فإن للزوج حق الاعتراف بالمولود أو عدم الاعتراف به كولد شرعي.

وحسب المذهب المالكي، فإن ولدت مطلقة أو أرملة لم تتزوج ثانية ولدت خلال أربع سنوات من الطلاق أو من وفاة زوجها، فإن هذا الطفل يمكن نسبه للزوج الأخير ولهذه المرأة كامل الحقوق بما فيه الإرث.

في ظل القانون الإسلامي، فإن الأطفال ينبغي إعالتهم من قبل والدهم، فإن كانوا ذكوراً فيعيلهم حتى يصبحوا قادرين على كسبهم ومعيشتهم الخاصة، وإن كانوا إناثاً فحتى زواجهن، وإذا كان الوالد غير قادر على إعالتهم بسبب فقره، فإن المسؤولية تنسحب على الأم وفي حال تقصيرها أو عجزها عن الإعالة، فمسؤولية إعالتهم تعود إلى جدهم لأبيهم أو:

جدهم لأمهم

عمهم أو أعمامهم

خالهم أو أخوالهم

يظل الأولاد حتى سن السابعة والبنات حتى سن البلوغ في رعاية (حضانة) الأم، وإذا لم تكن موجودة فتنتقل الحضانة إلى أقرب أنثى لهم، وبعد ذلك يصبحون تحت رقابة الأب، ويمكن للأب تعيين وصي ينوب عنه في حال غيابه، ولدى وفاة الوصي فإن رعاية الأولاد تصبح مسؤولية جدهم لأبيهم أو أكبر الأقارب الأحياء من جهة الأب سناً، وفي حال عدم توفر أحد من هؤلاء، فإن المسؤولية تعود إلى القاضي، وهذه العلاقة تظل حتى بلوغ الأطفال سن الرشد.

أما الأحوال الشخصية لليهود فتختلف بنواحٍ كثيرة عن الأحوال الشخصية للمسلمين، فالأولاد عند اليهود، يظلون تحت الرعاية حتى سن البلوغ الذي هو /١٣/ سنة للذكور و/١٢/ سنة للإناث، بعدها يصبحون تحت سلطة القانون والتعاليم الدينية اليهودية، ويُعدّ الطفل شرعياً متى ولد وفي أي وقت بعد حفلة الزواج، أما بعد فسخ الزواج، فيُعدّ ولد شرعي إذا ولد خلال /٣٠٠/ يوم من طلاق والديه.

تُعدّ العزوبة حسب الشريعة اليهوديةَ عيباً، وسن الزواج لديهم ينبغي ألا يقل عن ثلاث عشرة سنة للعريس، واثنتي عشرة سنة للعروس، وليس هناك عوائق شرعية تحول دون الزواج سوى جلب قيمة المهر من قبل العروس وإعلان الزواج، والشرع اليهودي يمنع أخو المتوفي من زواج أرملة أخيه، إذا لم تلد أولاداً منه، وفي حال الإنجاب فيحق لأخي المتوفي الزواج من زوجة أخيه لضمان ذرية الأسرة وأحادية الزوجة لديهم سارية المفعول، والوالد هو الوصي الشرعي على أطفاله ضمن السن المحددة شرعاً، ولدى وفاته يمكن تعيين الأم على أولادها في حالة كونها قد سميت من قبل الزوج.

وإذا لم تكن معينة من قبل الزوج المتوفي تنتقل الوصاية إلى الأقارب الذكور من جهة الأب طبقاً للتعيين المعمول به من قبل المحكمة الربانية، مع أن سلطة الأب على أبنائه غير محدودة نظرياً.

للزوجة الحق في طلب الطلاق من زوجها من المحكمة الربانية لعلة: منها عدم انسجام في الطباع، وللزوج الحق في طلاق زوجته، ولكن عليه أن يقدم مبررات منطقية ومعقولة لذلك، وهو مجبر شرعاً بطلاق زوجته في حالة ارتكاب الزنا طبقاً للقانون اليهودي.

أما من ناحية الإرث فإن من حق المورث أن يوصي بثروته لمن يشاء حسب ماشاء سواء أكانت الوصية شفهية أو مكتوبة بحضور شهود، شريطة أن يترك قسماً من الثروة لخلفته لذوي القربى الحميمين والقائمة التالية توضح ذلك:

تسلسل أحقية الوراثة طبقاً للقانون اليهودي والعرف

- الولد الشرعي أو الأولاد الشرعيين وفروعهم من الذكور.
- الولد غير الشرعي أو الأولاد غير الشرعيين وفروعهم من الذكور.
- البنات الشرعيات وفروعهن.
- العمات والخالات الشرعيات وفروعهن.
- الوالد.
- الأم.
- الأخ أو الأخوة.
- الأخت أو الأخوات.

الأعراف، العادات، الفلكور (التقاليد)

إن أوضح الملامح الحياتية لسكان ليبية الأصليين سواء العرب أم اليهود كانت متصلة بشكل طبيعي بالحوادث الأكثر أهمية في حياتهم[1] ، لذلك فهي سهلة التناول نسبياً.

وكما هو الحال في كل مكان، فإن الأعراس هي من أكثر المناسبات مرحاً واحتفالاً، وفي ليبية فيعد الحديث النبوي (الموالد النبوية الشريفة) من أكثر المناسبات

(١) لاحول ولا قوة إلا با لله. الأوربيون يهود والأتراك يهود ياترى؟ أم أن هناك مبارات دولية للهرولة نحو الرب اليهودي كأن معظم الكتّاب يرغبون أن يكونوا كوزير الخارجية البريطانية، فهل وصلت الوقاحة ببعض الكتّاب إلى عد اليهود الذين توافدوا من الأندلس بعد سنة ١٤٩٢ والتجأوا إلى ليبية ورحب بهم الشعب الليبي الأصيل من السكان الأصليين.
لو أن الكاتب اليهودي لسامحناه في قوله، أما أن تكون المقولة من طرف تركي يقول أنه مسلم فهي شيء يسيء إلى الدين والأمانة العلمية ويخدش الشعور الإنساني، وهذا عهر تاريخي. (المؤلف).

التي ترد فيها الأناشيد الدينية، ويقيم أهالي ليبية أهمية خاصة للمناسبات المفرحة ولاسيما الزواج، لذلك يشهرون الزواج لأن الزيجات غير المعروفة تسبب المشاكل والمتاعب، على الرغم من أن احتفالات الزواج تختلف من مكان لآخر، إلا أنها على العموم تعبر عن الملامح الرئيسة للسكان الأصدق تعبيراً، وكما هو معتاد فإن العروسين الخاطبين لايعرفان بعضهما البعض، وتتم طريقة التعارف على ملامح أحدهما بواسطة أحد الأقارب.

يستمر الإحتفال خمسة أيام مبتدئاً بيوم الاثنين، وبعد استكمال الإجراءات الشكلية يتم تحديد المهر، وبعدها يقوم العريس بإرسال الهدايا إلى عروسه، والهدايا غالباً تكون ملابس ثمينة وعقود وحلويات مع الأثاث المنزلي، ترسل في وضح النهار على شكل قافلة تعبر الشوارع والأحياء إلى منزل العروسة، وبعد يُدعى أصدقاء الطرفين للإعراب عن تمنياتهم الطيبة، ويسمح فقط للنساء بالدخول إلى مجلس العروس.

وفي اليوم الثاني – ليلة الكسوة – ترتدي العروس لباس الزفاف دون أن تترك المنزل لاستقبال الزائرات من صديقاتها لتهنئتها والمباركة لها، وفي يوم الأربعاء للحنة، وتقوم الزيانة أي اختصاصية الأغاني المفرحة المملوءة بالأهازيج، وفي يوم الخميس تعود الزيانة ثانية لتجميل العروس وصبغ أيديها وأقدامها، ثم تنتقل العروس إلى منزل الزوج يوم الجمعة في عربة مقفلة بعناية وبرفقتها قريباتها وصديقاتها، أما في منطقة الداخل فتنتقل العروس على الجمل جالسة وسط هودج محاط بستائر حريرية، وهناك بعض المناطق تعتمد اختطاف النساء بالقوة، وعلى الرجل الراغب بالزواج خطف عروسه التي تتظاهر بالهرب ليلحق بها العريس ويمسك بها بمفردها، وبعد ذلك يقام مهرجان سباق الخيل وبعض المعارك الهزلية مع اطلاق كثيف للرصاص في الهواء.

أما اليهود فباستثناء الطبقات الراقية والأوربية، فقد اعتادوا على تنظيم الزيجات إما من خلال وكالة الأجانب أو مباشرة بين رئيسي الأسرتين المعنيتين، ونقاط البحث الرئيسة بينهما أولاً وقبل كل شيء المهر الذي يتألف من ملابس

العروس (الجهاز) الذي يضم ناقوساً فضياً وأساور من ذهب وفضة إضافة إلى عقود وخواتم، وليس للجهاز إجراءات خاصة فهو عقد تفاهم وتراضٍ.

بعد الانتهاء من النقاط الأولية، يكون العريس قد تعرف على خطيبته حيث يقوم بزيارتها أثناء مناسبة دينية ولاسيما عيد الفصح اليهودي، وقبل ذهابه إلى منزل عروسه يرسل الهدايا، وعلى الفور تبدأ العروس زينتها التي تتألف من طلاء الوجه والشفتين وتكحيل الحاجبين والأهداب وصبغ أصابع يديها وقدميها ووضع الحناء على اليدين، ويسبق هذا الاستعداد للزينة طقوس دينية خاصة يحضرها صديقاتها من الفتيات اللواتي لايعرفن الرجال، وفي ليلة العرس يجلس العروسان تحت سرادق، ويقوم رجل الدين الخاخام بمواجهة علنية أمام الأقارب والضيوف بتلاوة محتويات عقد الزواج وتحديد المهر، وبعد ذلك يباركهما ويناولهما كأساً واحداً من النبيذ يشرب منه العريس أولاً ثم العروس ثم يكسرانه ويُعد هذا اتمام لحفلة الزواج.

ومن العادات الأخرى، الوفيات وجنازات الموتى من الطرفين، ويرافق هذه المناسبات عروض صاخبة لدى سكان البلاد الأصليين، واليهود اللاجئين، واليهود إلى جانب البكاء والنواح يرخون شعورهم ولحاهم لفترة من الزمن تختلف تبعاً لدرجة قرابة المتوفى، ولم يكن هناك في جنائز اليهود دفن أشياء خاصة بهم سوى وضع الجسد في التابوت بعد غسله وإزالة الشعر عنه، ثم يُخرّج من التابوت ويدفن في قبر يغطيه غطاء التابوت (ألواح خشبية) ولدى مرور الجنازة من منزل المتوفى إلى المقبرة يقوم يهوديان مرموقان بحمل نوع من القماش الأسود موشى بتطريز ذهبي ببسطه بهدف جمع التبرعات من أقارب وأصدقاء المتوفى أو أي يهودي مار بالقرب من المكان، والنقود التي جمعت تدفع إلى أسرة المتوفى إذا كان فقيراً أو إلى الطائفة اليهودية.

د- ملكية الأرض:

أولت الدولة العثمانية أهمية كبرى للأرض ، ومنذ مراحل نشوئها ربطت

قسماً من قواها العسكرية بالأرض، وسعت جاهدة لإعطاء أهمية للأرض لكنّ طبيعتها البدوية ومشكلاتها العسكرية وتطلعها إلى الشهرة والمجد، أعاقت ذلك، وظلت محاولتها تجاه الأرض مجر قوانين نظمية عقيمة المفعول والمردود، ومايهمنا من ذلك استعراض القانون العثماني الذي نظم الأرض تنظيماً قاسياً خلال مراحل التكوين والنشأة، أي المراحل الأولى، ولن أعود إلى عرض القانون العثماني حيال الأرض، وقد ضغت الأرض من حيث الامتلاك بدءاً من ٢١ نيسان لسنة ١٨٥٨م وأدرجت التصنيفات التالية للأرض.

١) ملكي: ملكية خاصة. رهناً بالسلاطين وأبنائهم وذويهم.

٢) ميري: ملكية دولة (أملاك دولة).

٣) موقوف: مليكة وقف (أملاك موقوفة لأغراض دينية أو خيرية).

٤) متروك: أملاك تُركت للمنفعة العامة أو للرعي.

٥) موات: المشاع التي ليست أملاك أناس أو دولة.

١- الملكي: وهو اصطلاح أطلق على الأراضي الحرة التي تخص أشخاصاً محددين، فيكلف جباة بجباية ضرائبها وأعشارها (عشر الغلة أو المال) ومعظم أراضي الملكية الخاصة تقع في المناطق الريفية، وهذه الأرض بيعت أصلاً من قبل الحكومة العثمانية، وأحياناً كانت تباع قسراً إلى الناس المحليين، فبُيعت أملاك مقاطعة زواره ومصراته والزاوية إلى أصحاب الميراث، وبالرجوع إلى السجلات تبين لنا أن الدولة باعتها لأناس غير ليبيين[1].

٢- أملاك الميري: وشملت أراضي زراعية ومواقع أو أمكنة مخصصة لإقامة معسكرات صيفية أو شتوية، غابات، وأراضٍ أخرى، أما ملكية هذه الأراضي، فتتم على شكل ملكية خاصة تمنحها الحكومة لأشخاص خاصين يندرجون تحت عنوان خاص يدعى طابو (Tapu) ولايحق لهم تحويلها إلى ملكية خاصة إلا بعد موافقة الدولة.

---

(١) طابو دفتري نمره : ٦١٣ ص ٧٨.

٣- أملاك وقف: أراضي الوقف وهي أملاك خارج الأرض الحرة وحتى خارج الأرض التي تشكل قسماً من ممتلكات الدولة من خلال إنجاز بعض الشكليات التي وضعت من قبل قانون الدين الإسلامي والتي أصبحت قسماً من الغربة (ممتلكات طبقة البنلاء)، وبإرشاد من إدارة الأوقاف بحيث لاتباع أو تنظم، بل تبقى تحت إشراف الأوقاف التي تتعامل معها طبقاً للشروط التي صيغت من قبل المانح الأصلي، ويخصص عادة أشخاص أو أصحاب دين أو أي شخص آخر ليتلقى حق الانتفاع بهذه الملكية.

٤- أملاك متروكة: تقسم الأرض المتروكة عادة إلى مهنية ومرافق.

الأملاك المهنية: خصصت للمنفعة العامة مثل الطرق.

أملاك المرافق: خصصت كمراع حرة.

٥- أملاك الموات: أي الأرض المسماة الموات (الميتة) وهو اسم أطلق على المناطق النائية وغير المستخدمة من الدولة أو من السكان المحليين القاطنين بالقرب منها، وبالنسبة للوصف العربي له: فهي على بعد بحيث لايسمع صوت الإنسان، وبالعادة تبدأ من مسافة تقدر بميل ونصف من أقرب مقاطعة مأهولة بالسكان.

وهناك ثلاثة أحكام مستندة إلى حديث الرسول الكريم عن أرض الموات:

«الأرض أرض الله»

«الذي يحرث أرض الموات تصبح ملكاً له»

«الذي يحرث أرضاً ليست لأحد له كل الحقوق في تلك الأرض»

القول الأول ورد في القرآن الكريم، بينما القولان الثاني والثالث هما حديث للنبي العربي الكريم، وهناك جدل لا نهائي بين العلماء والفقهاء، فيما يتلق بالمعنى وفحوى الحكم السابقة.

فبعضهم عدّه غير كاف لحرث أرض الموات من أجل امتلاكها، بينما أكد آخرون بأن الموافقة على حرث الأرض يجب أن تحصل إما قبل أو بعد حرثها من أجل التصديق على ملكيتها نهائياً، وقد أقر القانون التركي المفهوم الأخير.

إن نظام تسجيل الأرض ظهر أولاً في طرابلس، أما الملكية الخاصة فقد طبقت في مناطق بنغازي وبعض المناطق المجاورة لطرابلس ولاسيما تاجوراء التي تبعد ١٥كم عن طرابلس، وتجاهل العثمانيون المناطق الداخلية حيث اعتقدوا أن إحياء أملاك الموات صعبة التحقيق وهي واسعة، ولذلك لم تدرج المناطق الداخلية في سجلات الطابو، ولم تتجرأ الدولة العثمانية على تطبيق النظام الإقطاعي الأرضي في ولايات الشمال الإفريقي بعامة، وبصورة عامة كان تطبيقها لهذا النظام محدداً.

أ – التنظيمات المحلية والأوضاع العامة في طرابلس.

بلغ عدد سكان مدينة طرابلس حسب الإحصاءات التي أجريت من قبل الوالي إبراهيم أدهم باشا وقبل بضعة أشهر من الاحتل الإيطالي لها ١٩,٥٠٠ نسمة بما فيهم الأتراك والقولوغلية المتبقية بعد سحقهم من قبل حافظ باشا سنة ١٩٠٢.

والأعداد الإحصائية التي أجريت: ذكرت أن عدد العرب والأتراك ٦٥٠٠ نسمة، يهود ٤٠٠٠ نسمة وأوربيون أكثر من ٢٦٠٠ نسمة معظمهم من رعايا بريطانية القاطنين بمالطة، والعدد الأجمالي للقاطنين في مدينة طرابلس يقدر بـ ٣٠ ألف نسمة. ومن الإحصاءات الأخرى التي وضحّها الإحصاء: ٢٧٥٠ منزلاً و١٣٠ حانوتاً و٣٥ فندقاً، وكانت مدينة طرابلس مقسمة إلى ٢٢ شارعاً أوحياً، وفي مقدمة كل حي أو حارة يقطن مختار الحارة أو شيخ الشارع، وهذا الشخص يعد صلة الوصل ما بين الإدارة وقاطني شارعه أو حيه، وفي عهد الأسرة القرمانلية كان رئيس المدينة يحمل عنوان شيخ البلد وكانت حقوقه مشتركة مع المحافظ والوالي ويساعدهم في أعمالهم بعض الشخصيات الحكومية، ومن مهماتهم مراقبة البلديات والإطلاع على أحوالهم، وحُمل شيخ البلد مهمة تنظيم إدارة المدينة، وظل الأمر كذلك حتى سنة ١٨٧٢م، وبعد ذلك تسربت بعض نصوص القانون الفرنسي إلى جوهر القانون التركي الذي كان معمولاً به منذ قرون عدة، ونتج عن هذا الاقتباس إقامة ما يسمى بالبلدية أو مجلس البلدية وهو مؤلف من عشرة أعضاء، اختيروا من وجهاء المدينة وممن تتجاوز أعمارهم ٢٥ سنة فما فوق، شرطية دفع

نصف ليرة تركية على أنها ضريبة، وبعد مرور عدة سنوات على بقائه في المهمة يصبح من الرعايا الأتراك، وبالرجوع إلى السجلات العثمانية ثبت لدينا أن الحكومة العثمانية اعتمدت هذا البند غير قانوني لمنح اليهود والأجانب حرية التجنس بالجنسية التي يرغبونها (تركية أو ليبية).

وفي سنة ١٩١١م وجد في مدينة طرابلس داران للسينما ومسرح واحد وثلاثة فنادق وخمسة مطاعم، و٧٢ مقهى و٩٥ خانة وأماكن عامة، أما الفنادق الأكثر أهمية فقد اقتصرت على فندق المينيرفا (Minerva) مع مطعم فخم يمتلكه شخص مالطي الأصل.

كان مجلس البلدية يعقد اجتماعاته مرتين في الأسبوع، أما مجلس النواب المحلي فقد اعتاد على عقد اجتماعاته مرتين سنوياً، تضمنت الميزانية المحلية جانباً من ريع الدخل الإجمالي المؤلفة من: رسوم الدين، السوق (مكوس الأسواق)، ضرائب الذبائح الحيوانية، أماكن الوزن العامة، قياس الأراضي الموروثة، أما جانب النفقات فيتضمن: الأجور، الرواتب وموظفي البلدية وتكاليف خفراء وحراس الشوارع والإضاءة والصيانة ومشفى البلدية، وأماكن الراحة والإعانات، وكانت المشافي المقامة في المدينة تحتوي مئتين وخمسين سريراً مخصصة للعساكر.

كانت معظم بيوت طرابلس مؤسسة بشكل محدود وغالبيتها عديمة التأسيس، وهي منخفضة السقف من النوع المارسكوي، نوافذها كثيرة ولها فناء واسع، أما أزقتها وشوارعها فمضاءة بمصابيح الكيروسين.

تدافع الأوربيون إلى زيارة طرابلس الغرب للاستمتاع برؤية (قوس النصر الروماني) المعروف بقوس (ماركوس أوريليوس) الذي بني في عهد أنطونيوس بيوس سنة ١٦٣م، وأعيد بناؤه في عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس ولوسيس فيرس.

أسماء الولاة الأتراك الذين تولوا إدارة ليبية
من سنة ١٥٥١ - ١٩١١م

١ – ولاة فترة البكلربكي (١٥٥١ – ١٦٠١م) :

١ – مراد آغا	١٥٥١ – ١٥٥٥
٢ – الريس طرغوث	١٥٥٥ – ١٥٦٥
٣ – يحيى باشا	١٥٦٥ – ١٥٦٦
٤ – قلج علي	١٥٦٦ – ١٥٦٨
٥ – جعفر باشا	١٥٦٨ – ١٥٨٢
٦ – رمضان باشا	١٥٨٢ – ١٥٨٤
٧ – مصطفى باشا	١٥٨٤ – ١٥٨٨
٨ – حسين باشا	١٥٨٨ – ١٥٩٥
٩ – إبراهيم باشا	١٥٩٥ – ١٦٠٠
١٠– إسكندر باشا	١٦٠٠ – ١٦٠٦
١١– سليم باشا	١٦٠٦ – ١٦٠٧

٢ – ولاة فترة الدايات (١٦٠٧ – ١٧١١) :

١ – مرحلة بدء تشكيل ديوان الجند	١٦٠٧ – ١٦٠٩ فترة اضطراب
٢ – الداي سليمان	١٦٠٩ – ١٦١١
٣ – الداي صفر	١٦١١ – ١٦١٥
٤ – حامد باشا	١٦١٥ – ١٦١٧

٥ - سليمان باشا	١٦١٧ - ١٦١٩
٦ - مصطفى شريف	١٦١٩ - ١٦٢٣
٧ - قاسم باشا	١٦٢٤ - ١٦٣١
٨ - الداي رمضان	١٦٣١ فترة تنازله السري لمحمد باشا الصاقزلي واتفاقه معه
٩ - محمد باشا الصاقزلي	١٦٣١ - ١٦٤٩
١٠- عثمان باشا الصاقزلي	١٦٤٩ - ١٦٧٢
١١- الداي عثمان	١٦٧٢
١٢- الداي بالي باشا	١٦٧٢ - ١٦٧٥
١٣- مصطفى بهلوان	١٦٧٥ عزل من قبل البحارة.
١٤- إبراهيم مصرلي أوغلو	١٦٧٥ - ١٦٧٦
١٥- الدستاري محمد باشا	١٦٧٦ عزل من قبل البحارة
١٦- الداي عثمان	١٦٧٦ عزل بالقوة
١٧- الإستانكولي مصطفى الكبير	١٦٧٧ - ١٦٧٨
١٨- محمد آق ديمرجي	١٦٧٨ - ١٦٧٩
١٩- خليل باشا	١٦٧٩
٢٠- أبازه حسن بك	١٦٧٩ - ١٦٨٣
٢١- محمد داي	١٦٨٣
٢٢- الداي الملقب بالجزائرلي	١٦٨٣ - ١٦٨٤
٢٣- الحاج عبد الله داي	١٦٨٤ - ١٦٨٧
٢٤- ترزي إبراهيم داي	١٦٨٧
٢٥- إمام محمد داي	١٦٨٧ - ١٧٠١
٢٦- عثمان داي (القهوجي)	١٧٠١
٢٧- كليبوليلى مصطفى داي	١٧٠١ - ١٧٠٢

٢٨- خليل داي	١٧٠٢ - ١٧٠٩
٢٩- إبراهيم أركللي	١٧٠٩ - ١٧١٠
٣٠- حاج رجب داي	١٧١١
٣١- محمد بن الجن داي	١٧١١
٣٢- محمود أبو مويس	١٧١١

٣ - ولاة الأسرة القرمانلية (١٧١١-١٨٣٥):

١ - أحمد باشا	١٧١١ - ١٧٤٥
٢ - محمد باشا	١٧٤٥ - ١٧٥٤
٣ - علي باشا	١٧٥٤ - ١٧٩٣
٤ - أحمد باشا	١٧٩٥
٥ - يوسف باشا	١٧٩٥ - ١٨٣٢
٦ - علي باشا	١٨٣٢ - ١٨٣٥

٤ - ولاة عهد الباشوات (١٨٣٥-١٩١١):

١ - مصطفى نجيب باشا	١٨٣٥
٢ - محمد رئيف باشا	١٨٣٥ - ١٨٣٦
٣ - طاهر باشا	١٨٣٦ - ١٨٣٧
٤ - جشمه‌لي حسن باشا	١٨٣٧ - ١٨٣٨
٥ - عشقر علي باشا	١٨٣٨ - ١٨٤٢
٦ - محمد أمين باشا	١٨٤٢ - ١٨٤٧
٧ - محمد راغب باشا	١٨٤٧ - ١٨٤٨
٨ - أحمد عزت باشا	١٨٤٨ - ١٨٥٢
٩ - مصطفى نوري باشا	١٨٥٢ - ١٨٥٨

١٠- عثمان باشا	١٨٥٥ - ١٨٥٨
١١- أحمد عزت باشا (للمرة الثانية)	١٨٥٧ - ١٨٦٧
١٢- محمود نديم باشا	١٨٦٨
١٣- علي رضا باشا	١٨٦٩ - ١٨٧٠
١٤- محمد خالد باشا	١٨٧٠ - ١٨٧١
١٥- محمد رشيد باشا	١٨٧١ - ١٨٧٢
١٦- علي رضا باشا	١٨٧٢ - ١٨٧٤
١٧- سامح باشا	١٨٧٤ - ١٨٧٥
١٨- مصطفى عاصم باشا	١٨٧٥ - ١٨٧٨
١٩- فوسفور مصطفى باشا	١٨٧٨
٢٠- محمد صبري باشا	١٨٧٨
٢١- محمود جلال الدين باشا	١٨٧٨ - ١٨٧٩
٢٢- أحمد عزت باشا (للمرة الثالثة)	١٨٧٩ - ١٨٨٠
٢٣- محمد نظيف باشا	١٨٨٠ - ١٨٨٢
٢٤- أحمد راسم باشا	١٨٨٢ - ١٨٩٥
٢٥- كامل باشا	١٨٩٥ - ١٨٩٨
٢٦- هاشم باشا	١٨٩٨ - ١٨٩٩
٢٧- حافظ باشا	١٨٩٩ - ١٩٠٣
٢٨- حسن حسني	١٩٠٣ - ١٩٠٦
٢٩- رجب باشا	١٩٠٦ - ١٩٠٨
٣٠- أحمد فوزري باشا	١٩٠٨ - ١٩٠٩
٣١- إبراهيم أدهم باشا	١٩٠٩ - ١٩١١
٣٢- نشأت باشا	١٩١١

مصادر ومراجع الجزء الثاني

١ - ابن غلبون محمد خليل : التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار - القاهرة ١٣٤٩.

٢ - برنيا كوستانزيو : طرابلس من ١٥١٠ إلى ١٨٥٠، تعريب خليفة محمد التليسي - ليبيا ١٩٦٩.

٣ - الآنسة توللي : عشرة أعوام في طرابلس ١٧٨٣ - ١٧٩٣ ترجمة الجليل الطاهر - طرابلس ١٩٦٧.

٤ - تاريخنا : تأليف نخبة من المؤلفين ، ستة أجزاء - ليبيا ١٩٧٧.

٥ - رجب أبو المظفر : طرابلس الغرب أحوالي، إستانبول بدون تاريخ.

٦ - روسي إتوري : ليبيا منذ الفتح العربي حتى ١٩١١، تعريب خليفة محمد التليسي - طرابلس ١٩٧٤.

٧ - صافي حسن : طرابلس الغرب تاريخي ، إستانبول ١٣٢٨.

٨ - سليمان محمد زاده : طرابلس الغرب دولت علية وإيطالية وقائع حربية س، إستانبول بدون تاريخ.

٩ - سليمان محمود حسن : ليبيا بين الماضي والحاضر ، القاهرة ١٩٦٢.

١٠ - شارل فيرو : الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي ، ثلاثة أجزاء ، ترجمة عبد الكريم الوافي ، طرابلس - ليبيا ١٩٧٣.

١١ - شكري محمد فؤاد : السنوسية دين ودولة ، دار الفكر العربي ١٩٤٨.

١٢ - عامر علي محمود : تاريخ العرب الحديث والمعاصر - ١٩٩٥-١٩٩٦.

١٣ - عزيز سامح التر : الأتراك العثمانيون في إفريقية الشمالية ، ترجمة عبد السلام أدهم - بيروت ١٩٦٩.

الأتراك العثمانيون في إفريقية الشمالية ، ترجمة محمود علي عامر - بيروت ١٩٨٨.
١٤ - علي عمر بن إسماعيل : انهيار الأسرة القرمانلية في ليبية ١٧٩٥ - ١٨٣٥ طرابلس ١٩٦٦.
١٥ - فارس محمد خير : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ، دمشق ١٩٨١.
١٦ - ميكاكي رودلفو : طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلي، ترجمة طه فوزي ، معهد الدراسات العربية العالمية.
١٧ - النائب أحمد : المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، إستانبول ١٣١٧.

- الوثائق العثمانية :

١ - أناضول قاضبلك دفتري : نمره : ١،٢،٨،١٢،١٣،١٤.
٢ - تطبيق مهره دفتري نمره: ١٢، ١٣، ١٤.
٣ - طرابلس الغرب سالنامه س: ١٣٠٥-١٣٠٦-١٣٠٧-١٣١١-١٣١٢.
٤ - مهمة مكتومة نمره : ٩.
٥ - مهمة دفتري نمره : ٢٠٠-٢٠١-٢٠٢-٢٠٣-٢٠٤-٢٠٧-٢٠٩.

- المصادر الأجنبية :

1 - Amer Ali Mahmut : Trablusgarb'ta osmanli insa Faliyetleri, Istanbul 1982.

2 - Ismail Hakki Uzun çarsili : Osmanli Tarihi (8) cild. Ankara 1975.

3 - Major Anlhony J. cachia : Libya under the second ottoman occupation, Tripoli 1975.

4 - Naci Hikmet : Tarih boyunca kuzag Afrika ve berberiler Istanbul 1955.

5 - Sert Oglu Midhat : Resimli osmanli Tarihi Sitanbul 1958.

6 - Tevfik celal Karaspan : Libya, Trablus garb, Bingazi ve Fizan, Ankara 1960.

محتويات الجزء الأول

الصحيفة

الجزء الأول

المغرب الأقصى

محتويات الجزء الثاني
ليبية منذ مطلع القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين

الصحيفة



صدر باشراف لجنة الانجاز

سعر المبيع للطالب (١١٠) ل.س

الجمعية التعاونية للطباعة
بدمشق